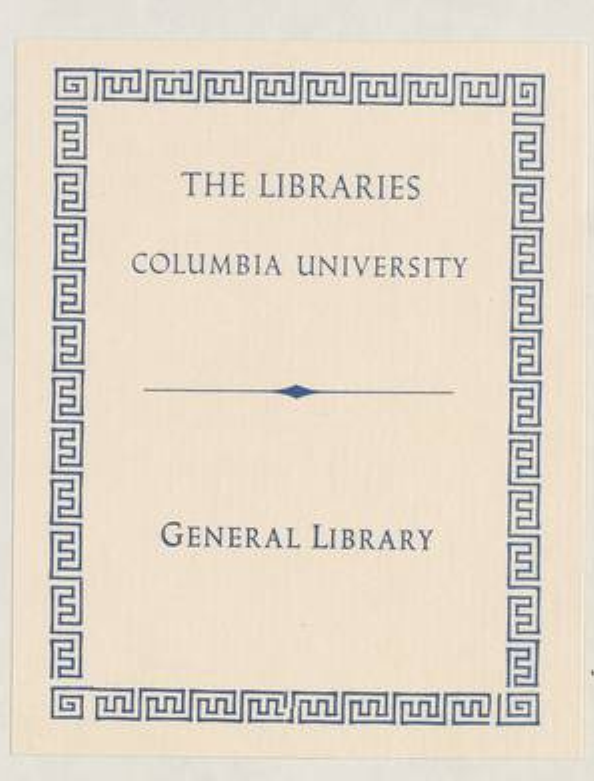
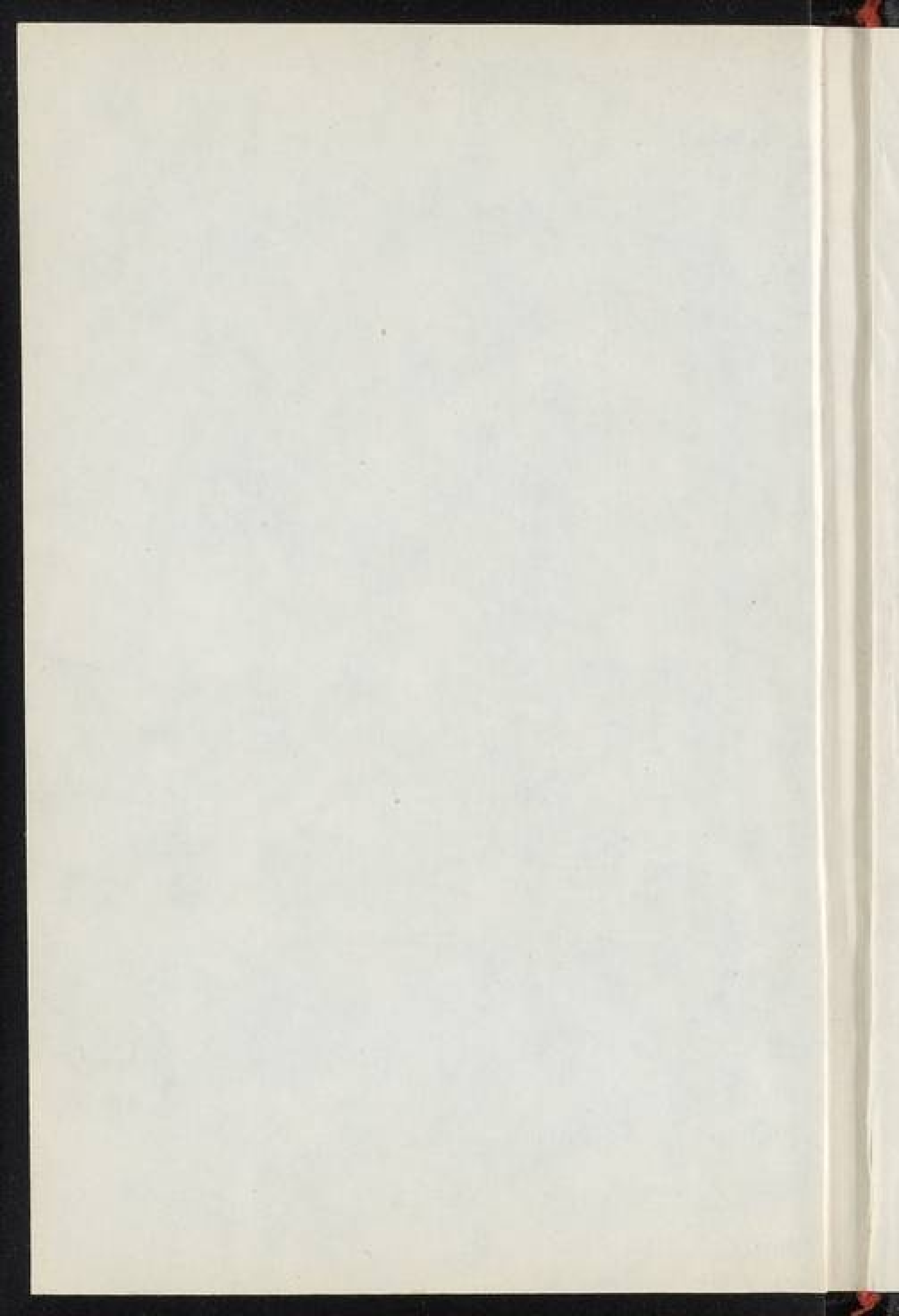
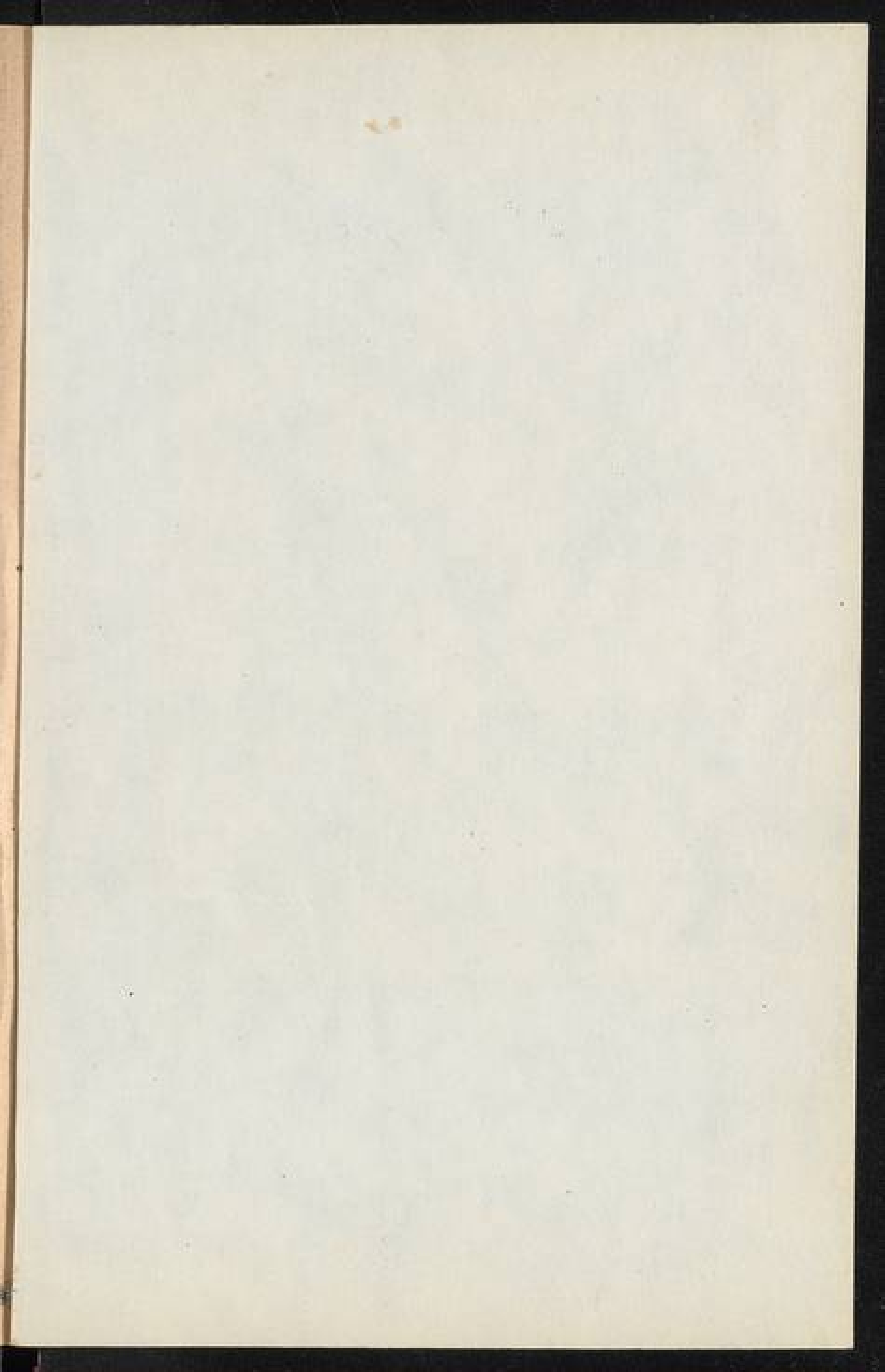
تاريخ العراق

الأول



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY





خمسة وخمسون عاماً
من

تاريخ العراق

١١٨٨هـ - ١٢٤٢هـ

وهو (مختصر) كتاب

مطالع السعود
بطيب أخبار الوالي داود

للشيخ عثمان بن سند البصري الوائلي

١١٨٠ — ١٢٥٠ هـ

اختصره

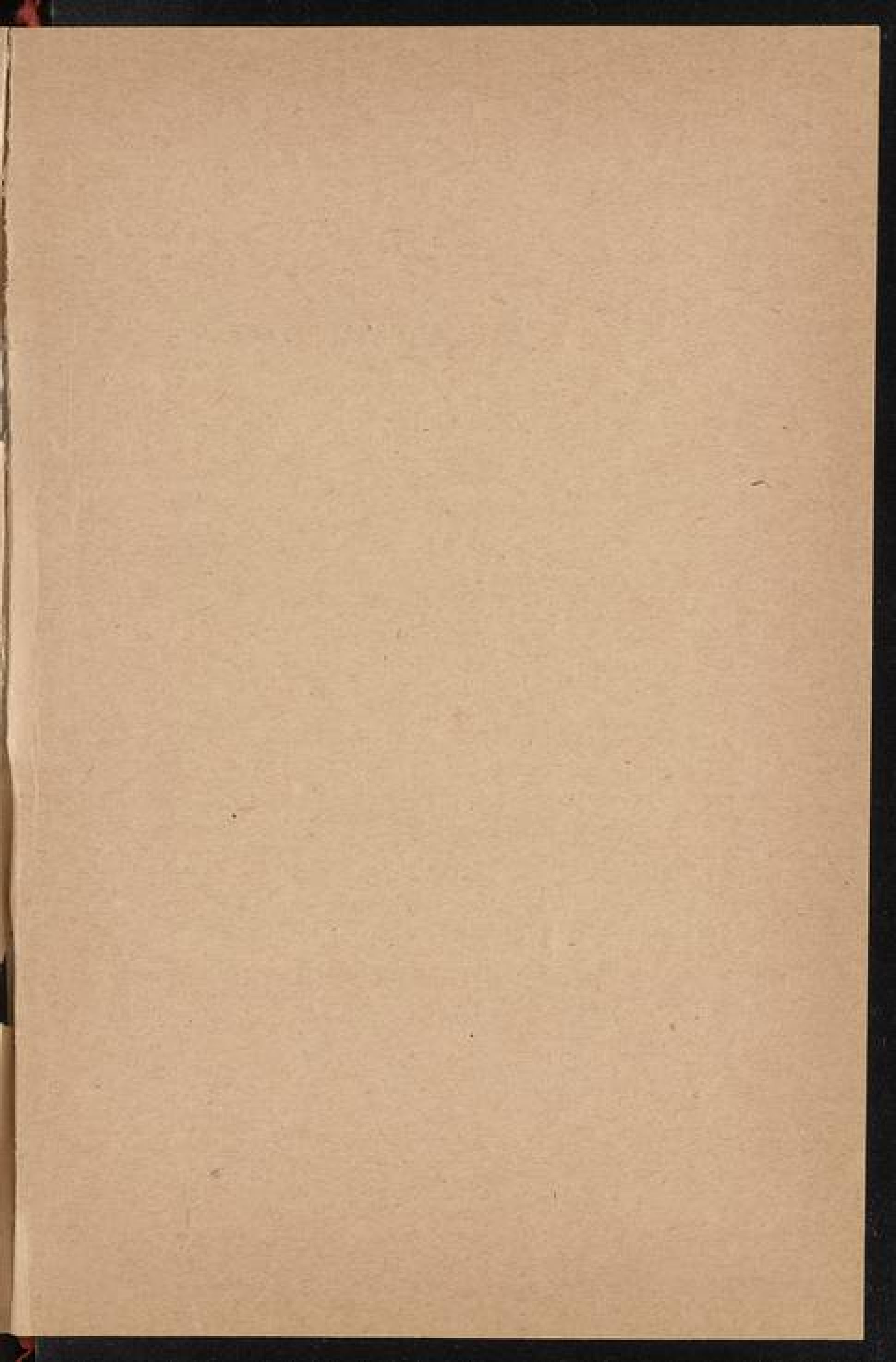
الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني

المدرس بالحرم النبوي الشريف

حققه وعلق حواشيه ووقف على طبعه

خادم العلم الشريف

محب الدين الخطيب



خمسة وخمسون عاماً

من

تاريخ العراق

١١٨٨هـ - ١٢٤٢هـ

وهو (مختصر) كتاب

مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود

للشيخ عثمان بن سند البصري الوائلي

١١٨٠ — ١٢٥٠ هـ

اختصره

الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني

المدرس بالحرم النبوي الشريف

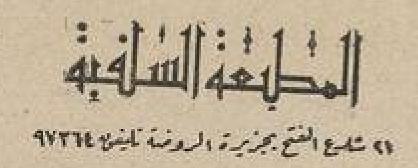
حققه وعلق حواشيه ووقف على طبعه

خادم العلم الشريف

محب الدين الخطيب

القاهرة

١٣٧١



تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

لما كانت مصرُ تُحكم بالمماليك ، وعندما كان المملوك أحمد باشا الجزار يلعب فى سواحل الشام على الحبلين ، كانت العراق تُحكم بالمماليك كذلك ، بل كان جيش الدولة العثمانية نفسه ـ الذى يسمى بالينيچرية ـ قائماً على هذا الأساس برجال إذا عَرف الواحدُ منهم اسمَ والده فقلما يعرف أصلَ ذلك الوالد والاسرةَ التى ينتمى اليها ، فهو نظامٌ يتولاه أناسٌ من أصول منكرة مجهولة الأعراق

وداود باشا (وزير بغداد ١٢٣٢ — ١٢٤٦) الذى ألف ابنُ سند تاريخه هذا على اسمه كان مملوكاً جىء به من بلاد الگرج على الساحل الشمالى للبحر الاسود وبيع صبياً فى أسواق العراق ، فاشتراه

مصطفى بك الربيعي أحد أعيان ذلك القطر ، ثم اشتراه منه سليمان
باشا الكبير (وزير بغداد ١١٩٤ — ١٢١٧) الذى كان هو كذلك
مملوكا لحسن باشا (وزير بغداد ١١١٦ — ١١٣٦) وورثه عنه ابنه
أحمد باشا (وزير بغداد ١١٣٦ — ١١٦٠) فأعتقه . ومن قبله كان على
باشا الايرانى (وزيرُ بغداد ١١٧٦ — ١١٧٨) ربيبَ أحمد باشا ،
وكان الوزيرُ عمر باشا (١١٧٨ — ١١٨٩) مملوكا لاحمد باشا أيضاً .
كما أن من مماليك سليمان باشا الكبير أو ذوى قرابته ممن تولوا وزارة
بغداد صهرَه على باشا (١٢١٧ — ١٢٢١) وابنَ اخته سليمان باشا
القتيل (١٢٢١ — ١٢٢٥) وعبدَ الله باشا (١٢٢٥ — ١٢٢٧) الذى
نشأ مملوكا له وعتيقاً . فوزراء العراق فى قرن كامل وربع قرن
تفرّعوا من بيت حسن باشا ابن مصطفى بك السپاهى إما من ذوى
قرابته أو من مماليكه أو من مماليك مماليكه أو من أصهارهم وذوى
أرحامهم . وقد تخللت ذلك فترات قليلة تولى الوزارةَ فيها رجال
أقحمتهم القسطنطينيةُ على مماليك العراق ، فكانوا أسوأ من هؤلاء
إدارة وأقلّ اضطلاعاً بمهمة الحكم . وداود باشا كان آخرَهم وأعلمهم ،
إلا أنه كان حريصاً على أن يأخذ أكثر مما يعطى ، وعلى أن يثنى
عليه بلسان المجاملة ، وأن ينظر الى تصرّفاته بعين الرضا

وقبل أن ينُاط بابن سند تأليف هذا التاريخ فى أواخر ولاية
داود باشا كان داود باشا قد ناط مثل هذه المهمة بمؤرخ آخر لعله

كردى ، وهو رسول حاوى أفندى الكركوكى ، فكتب باللغة التركية كتاب (دوحة الوزراء) ، وطبع سنة ١٢٤٦ بأمر داود باشا فى أول مطبعة عرفتها بغداد ، وأغلب الظن أن هذا المؤلف الكركوكى هو الذى يسميه ابن سند « المؤرخ التركى » ويصحح له بعض أخباره فى هذا الكتاب . وكانت إقامة ابن سند فى البصرة وبلدة الزبير ، وكان يتردد على بغداد ويجتمع بوزرائها وعلمائها وأعيانها وأمراء القبائل ، فهو من شهود العصر الذى أرّخ له . وقد امتاز كتابه بدقة أخباره عن جنوب العراق ، وانفراده بحوادث وحقائق لا توجد عند غيره ، وبصحة حكمه على شئون القبائل وجمال وصفه لبعض أيامها ، ومعرفته بأقدار فرسانها وذوى أحلامها بل إنه مع شدة تعصبه المذهبي على الدعوة السلفية التى قام الأئمة من آل سعود بنصرتها ، ومع إسرافه أحياناً فى غمط جانبهم ، فإن عروبته الخالصة ، وحسن فهمه لنتائج الاصلاح الذى ترتب على هذه الدعوة ، قد أطلق لسانه بالثناء على ما صار اليه جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت الى الشام كأنهم إخوان أولاد رجل واحد . وهذا أمر كانت جزيرة العرب محرومة من خيراته بعد القرون الثلاثة الاولى من صدر الاسلام ، أى منذ استعجم الاسلام

وأظن أن ابن سند لو كانت إقامته دائماً فى بغداد لا فى البصرة لكان توغله فى معرفة دخائل الوزراء ومماليكهم وأعوانهم من

الكتخدائية والخزندارية أدقّ وأشمل ، بل لو كان عزمه على تأليف هذا التاريخ متقدماً على مدة وزارة داود باشا لكانت المادة التى يسجلها فى مختلف السنين أدسمَ وأوضح . وعلى كل حال فانه بهذا الكتاب ملأ فراغاً فى المكتبة العربية كنا فى وحشة منه . وعندما يتبسط أفاضل المؤرخين العراقيين فى تمحيص ماضى بلادهم وأمتهم سيستفيدون من كتاب ابن سند فى المقارنة بين نظراته الى الحوادث من الناحية التى هو فيها وبين نظرات المؤرخين الآخرين من النواحى التى هم فيها ، فيكمل لهم إن شاء الله بعثُ تاريخ تلك الحقبة ، وبثُّ الحيوية والضوء فى مجاهلها

والاختصار الذى قام به العالم المدنى (الشيخ أمين بن حسن الحلوانى) كان يتوخى فيه المحافظةَ على جوهر الحوادث ، بل كان حريصاً على أن يزيدها وضوحاً بتعليقاته وزياداته التى ميزها عن الأصل بأقواس صان بها أصل الكتاب عن أن يلتبس به ما ليس منه . أما الاختصار فقد تناول القصائد والاستطرادات التى لا دخل لها فى بيان الحوادث

وكان تاريخ ابن سند مسجّعاً على طريقة العتبى فى تاريخ يمين الدولة بن سُبُكتكين وشرحِهِ للشيخ المنينى ، فأطلقه الشيخ أمين الحلوانى من قيودِ السجع ، لأن هذا هو اللائق بكتب التاريخ

وقد حاول كاتب هذه السطور أن يخدم الكتاب على قدر ما

يستطيعه ناشرٌ بعيدٌ عن آفاق العراق ، فعلقتُ عليه بما تيسر لى ، وأردفتُ هذا التصدير بترجمة مستفيضة لابن سند بقلم صديق العالم الكبير السيد محمد بهجة الأثرى . ولابن سند تراجم أخرى فى (حديقة الافراح) للشروانى ، وفى (المسك الاذفر) للسيد محمود شكرى الألوسى ، وفى (مختصر طبقات الحنابلة) للشطى[1] . وقصيدة ابن سند « إبطال الرابطة » فى المجلد الثانى عشر من (المنار) ص ٣٥٠

أما ترجمة الشيخ أمين الحلوانى فقد استنبطتُ بعضها من تعليقاته فى هذا الكتاب ، واقتطفتُ البعض الآخر من الكتب التى نشرها واقتنيتها فى خزانة كتبي ، ومما كنت تلقفته عنه فى عشرات السنين الماضية . وقد كتبتْ عنه دائرة المعارف الاسلامية أسطراً معدودة اكتفتْ بها لأنها لم تجد مصادر ترجع اليها فى توفية الترجمة حقها

وإنى تعبت كثيراً فى استخراج فهرس الأعلام التاريخية لهذا الكتاب ، ولا سيما فى تعيين شخصيات آل بابان وأمثالهم ، لتشابه أسماء تختلف مسمياتها . وعند استخراج الأسماء تبينتْ لى من مقارنتها بيانات كنت أحبُّ لو أنى علقتُ بها على مواضعها من متن الكتاب ، فاستدركتُ ذلك بذكر الممكن منه فى الفهرس نفسه . ولم يهوّن علىَّ ما لقيت فى خدمة هذا التاريخ للعراق إلا إيمانى بأن العراق جزء عزيز من صميم وطنى ، وطن العروبة والاسلام

محبُّ الدين الخطيب

---

(١) مع أن ابن سند كان مالكياً

ح

عثمان بن سند

مؤرخ داود باشا

بقلم عالم بغداد وأديبها السيد محمد بهجة الأثرى

تحدث بها من محطة الاذاعة البغدادية (١)

هو رجل يعد من نوادر أعلام العراق فى القرن الثالث عشر ، جامع بين العلم والفقه فى الدين ، متفوق فى فنون الشعر والنثر ، حادة الذكاء مشبوبه ، قوى الحافظة ، خصب القريحة ، سيال القلم ، واسع الثقافة : له بصر بالعلم الرياضى والتاريخ والنقد الأدبى ، وولع بالتأليف فى كل ما يتصل به من علم وأدب . وله طبيعة كالينبوع تتدفق بالخصب ، ونفس مُطلّعة كلفة بالبحث والدرس كلفاً يدعو إلى الدهشة والإعجاب . ولكنه — إلى جانب هذا — يمثل الطبقة المتشددة فى تفكيره وعقيدته ومزاجه : تنطوى نفسه على التعصب العنيف للمذاهب التقليدية ، والكره الشديد لما لم يألف من الآراء والعقائد ، فكان يفوته الحق أحياناً ، وتتضاءل قيمته حين يشتط فى مخاصمة الآراء التى تباين آراءه مخاصمة تستمد قوتها - بل قد تستمد ضعفها - من سطوة اللسان ، دون قوة البرهان . ومن الشطط فى القول ، فى غير ورع ولا هوادة ولا لين . ولو استطاع - رحمه الله - أن يتجرد من هذه الخلة ، وأن ينزع بعلمه وقلمه الى الاستقلال ، لكان شيئاً آخر أكبر من ذلك

---

(١) مجلة (العالم الاسلامى) البغدادية ، السنة الاولى ص ٥٢٠ — ٥٣٠

ولد عثمان بن سَنَد عام ١١٨٠ هـ فى قرية من قرى نجد اسمها (فُلَيْكَة) قرية من الكويت . ونسبه فى قبيلة وائل ، فهو عربىٌّ صَلِيبة على حدّ التعبير اللغوى الصميم فى وصف العرب الأقحاح

نشأ نشأة فاضلة كما ينشأ أبناء الجزيرة العربية ، وكان نشيط الشباب حادّه ، فأنفقه فى طلب المعرفة والتطواف وراءها فى البلاد . وقصد الأحساء والبصرة وبغداد للقاء العلماء والأخذ عنهم . وكان دائم النقلة من بلد إلى بلد . فتلمذ لمشاهير ذلك العصر ، وتلقى عنهم كل ما وسعه تلقيه من العلوم الاسلامية والعربية دائباً متزيداً من العلم والحفظ والرواية ، حتى قيل إنه حفظ القاموس المحيط كله ، وهو أمر نادر الوقوع ، ودرس العلم الرياضى وألف فيه ، وعنى برواية الشعر ودراسة شروحه

أخذ عن محمد بن فيروز من كبارِ علماء نجد

ولقى فى الأحساء الشيخ عبد الله الكردى البيتوشى (١) الملقب بسيبويه الثانى ، فلازمه وأخذ عنه العربية ، وقرأ عليه رواية حفص عن عاصم ، وسمع عليه غالب مؤلفاته فى الفقه والعربية كشرحه على نظمه حروف المعانى ومتن الألفية ، وشرح ديوان سقط الزند للمعرّى

وتلمذ فى بغداد للشيخ موسى بن سميكة العالم البغدادى الحنبلى الزاهد المتوفى سنة ١٢٢٣ : قرأ عليه رواية حفص وشعبة

وللشيخ على السويدى محدّث العراق المشهور : سمع منه الحديث ،

---

(١) وذكره فى تاريخه (ص ١٢ من طبعتنا) لمناسبة قصيدته التى يستنجد بها الامير سليمان بن شاوى الحميرى لنصرة أهل البصرة عند استيلاء متوحشة الشيعة الايرانيين عليها فى سنة ١١٨٨

وأجازه ، وناوله عشرة أثبات تلقاها عن الأئمة (١)

ولغير هؤلاء من الاعلام (٢)

ونشأ ابن سند على مذهب الامام مالك فاختص بفقه مذهبه

ولما قدم بغداد مال إلى دراسة التصوف ، وسلك على الشيخ خالد النقشبندى الكردى المشهور ، ودخل فى طريقته . وكان الشيخ المذكور من أساطين التصوف يومئذ فى العراق ، قدم بغداد وتوطنها ، فانقسم العلماء فى أمره قسمين : فخاصمه ناس وخرجوا فى خصومتهم له الى تأليف الرسائل فى ذمه والتشهير به ، ووقف بجانبه آخرون يعظمونه ويجلون قدره ويذبون عنه . فانضم ابن سند الى هذا الفريق ، ومدح الشيخ بالقصائد الطوال . وذب عنه . وألف كتاباً فى الثناء عليه سماه (أصفى الموارد ، من سلسال أحوال الامام خالد)

وإذا نحن استثنينا محمد بن فيروز النجدى من أساتذة ابن سند فى أول نشأته ، نجد علم ابن سند عراقىّ المعدن ، فان السويدى والبيتوشى وابن سميكة وخالداً النقشبندى وآخرين غيرهم كالصبغة الحيدرى ، كلهم من علماء العراق ، لقى بعضهم فى الأحساء ، ولقى آخرين فى البصرة وبغداد ونزل ابن سند البصرة سنة ١٢٢٠ ، ودرس بالجامع الكوازى مدة

---

(١) وقد ذكره ابن سند فى هذا التاريخ غير مرة ، من ذلك فى ص ١٠٧ من طبعتنا هذه ونوه بمكانته عند سليمان باشا ، وأنه كان يمنع بواسطته المظالم عن أهل البصرة من متسلمها ، وانظر ايضا ص ١١١

(٢) كالسيد زين العابدين جمل الليل المدنى ، وقد ذكر ابن سند ذلك فى ص ٩٠ و ٩٢ و ١٧٤ من تاريخه

أعوام ، وبالمدرسة المحمودية ، ثم جمع بين المحمودية والخليلية عام ١٢٢٧ فذاع صيته فى البصرة ونسب اليها وعُد من علمائها ، بل عد عالمها المقدم

وكان قوى الصلة بالحكام والوجوه (١) ، كثير التردد الى بغداد ، دخلها فى عهد حكومة الوزير سليمان باشا الكبير ، وداود باشا إذ ذاك مهر دار . ثم دخلها ثانية وهو خازندار ، فنشأت الصلة بينهما إذ كان داود حفياً بالعلم مكرماً لأهله ، وكان ابن سند حفياً كذلك بلقاء العلماء والاتصال بالوزراء ووجوه رجال الدولة ، فلما آلت الوزارة اليه (أى الى داود باشا) سنة ١٢٣٢ (٢) أنفذ اليه ابن سند من البصرة — وفاء لاكرامه السابق له ، وتوثيقاً للرابطة — قصيدة مطولة يهنئه بها ويمتدحه ويصف بلاءه فى قتال سعيد باشا ودخوله بغداد ظافراً معقوداً له بالوزارة ويستصلحه شئون البصرة إذ أصبح على ذلك قادراً

ثم انه كان قد وعده سنة ١٢٣٤ بتأليف تاريخ يتضمن ذكر أوصافه .. الخ فأقام زمنا يعد عدته ويرقم ما يتيسر له فلم يجتمع له ما يفى بالغرض من أخباره وأحواله ، لاقامته فى بلد ناء عن بغداد ، وتطاولت الأيام ، وظن الوزير به إخلاف الوعد ، فأنفذ بعض خاصته اليه كتاباً يستدعيه الى بغداد بأمر من الوزير ، فأتاها فى اليوم الثانى عشر من ذى الحجة

---

(١) وسترى من حديثه عن صبغة الله الكردى (فى ص ١٧٣ من هذا التاريخ) جنوحه الى أن العلماء لا ينجحون ان لم يكن لهم مساعدة من الأمراء فى أمر معاشهم . ونحن نستنكر هذا الرأى ونرى أن ضرر ذلك أعظم من نفعه مهما كان

(٢) انظر ص ١٢٧ من هذه الطبعة

سنة ١٢٤١ فأنزل فى دار خاصة به ، واستقبله الوزير فى دار الحكومة ، فلما فارقه أرسل اليه كسوة فاخرة ، ثم حباه بعد أيام بجائزة سنية ، وشرع العالم الكاتب يؤرخ العالم الوزير ابتداءً من اليوم الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٤١ للهجرة التى أرخها بقوله « داودُ يمتثلُ أمرَه »
١٥ ٩٨٠ ٢٤٦

وهل أكمل ابن سند هذا التاريخ أو لا ؟

لا نستطيع أن نجزم بشىء من ذلك ، لأن النسخة التى عرفت من هذا الكتاب — ونقل عنها من نقل — هى النسخة المخطوطة التى فى خزانة كتب العلامة نعمان خير الدين الألوسى ، وهى ناقصة ، فلا يصح أن تتخذ هذه النسخة وحدها دليلاً على عدم إكمال المؤلف للكتاب . ألا يجوز أن هنالك نسخة أخرى تامة تبطل بها هذه الدعوى ؟ ثم ألا يجوز أن يكون ناسخ هذه النسخة قد اعترضه من الأحوال ما حال بينه وبين إتمامها ؟

هذه مسألة . وأخرى أن وفاته قد اختلف فى تعيين مكانها وزمانها ، فقيل توفى فى البصرة ، وقيل توفى فى بغداد ودفن قرب المرقد المعروف خطأً باسم زبيدة زوج الرشيد ، وذلك سنة ١٢٤٠ أو ١٢٤٢ أو ١٢٤٦ أو ١٢٤٧ أو ١٢٤٨ أو ١٢٥٠ على ست روايات . ولعلكم تعلمون أن داود باشا حكم من سنة ١٢٣٢ الى أوائل سنة ١٢٤٦ ، فمن الترجيح بغير مرجح ما جزم به بعضهم فى تعيين سنة ١٢٤٢ لوفاة ابن سند ، ليستقيم له بتصحيح هذه الدعوى دعوى نقصان الكتاب ، وهى أبعد ما تكون عن الصواب ما لم يقم على توكيدها الدليل

يعرف هذا الكتاب باسم (مطالع السعود ، لشموس أخبار الوزير داود) ، والنسخة الموجودة منه فى أكثر من ٦٠٠ صفحة ، وهو أهم

ما كتب ابن سند ، وبه خلد ذكره وذاع صيته وإن لم يطبع بعد . رتبه على السنين بادئاً بتسجيل حوادث العراق من عام ولادة داود باشا ، فدوّن فيه أخباراً مهمة ووقائع خطيرة لا يصيبها الباحث فى سواه ، ووصف أحوال العراق السياسية والاجتماعية وشئون القبائل العربية فى أيام حكومة عمر باشا من سنة ١١٨٨ الى حكومة الوزير داود باشا حتى سنة ١٢٤٢ وذكر ما جدّ فى أيامهم من الحوادث ، وترجم لكثير من رؤساء القبائل والفرسان المشهورين ولطائفة من العلماء على حسب معرفته بهم

ونحو نصف الكتاب شعر للمؤلف فى الغزل والحماسة والمدح والرثاء والشكر والتهنئة أورده فى المناسبات (١) ، وفيه أيضاً نقد لشعر بعض معاصريه وفوائد شتى

وقد كتبه مسجعاً على نمط أبى نصر العتبى المتوفى سنة ٤٢٧ فى تاريخه (اليمينى) الذى أرخ فيه يمين الدولة السلطان محموداً الغزنوى ، ونزع باسلوبه الى الاطناب والترادف وجزالة الألفاظ

ومن مؤلفات ابن سند فى تاريخ الرجال (أصفى الموارد ، من سلسال أحوال الامام خالد) يعنى به الشيخ خالداً النقشبندى . وقد سلك فى تأليفه الطريقة التى سلكها فى (مطالع السعود) ، فترجم فيه لطائفة من أساتذة الشيخ المذكور وتلاميذه ومريديه حسب ما اتصل به من أحوالهم . ونحو نصف الكتاب قصائد من شعر المؤلف ، وهو فى ١١٨ صفحة ، وقد طبع بالمطبعة العلمية بالقاهرة سنة ١٣١٣ هـ

---

(١) وقد طواه الشيخ أمين الحلوانى مقتصراً على الحوادث التاريخية

وكتاب (الغرر) ذكره في (أصفى الموارد) في موضعين ، ويظهر من مورد كلامه أنه في تراجم الرجال

وكتاب (سبائك العسجد ، في أخبار أحمد ، نجل رزق الأسعد) من أعيان الكويت . وقد ضمنه زهاء خمسين ترجمة لناس من أعيان البصرة ومشايخ الزبارة والبحرين والكويت وبعض أعيان نجد والعراق في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ، وهو في ١١٦ صفحة ، طبع بمطبعة البيان في بمبي بنفقة الشيخ عبد الله عميد آل باش أعيان

وكان ابن سند معنياً بالنظم التعليمي عناية فائقة ، فنظم غالب المتون في العربية والفقه والحديث والعقائد والعروض والقوافي والحساب ، ثم شرحها شروحاً جيدة ، عرفنا منها :

(نظم مغني اللبيب) لابن هشام ، وهو من أهم كتب العربية

و (نظم قواعد الاعراب) لابن هشام أيضاً

و (نظم الأزهرية) للشيخ خالد بن عبد الله الازهري الجرجاوي

ومنظومة في فقه المالكية سماها (الدرة الثمينة ، والواضحة المبينة ، في مذهب عالم المدينة) منها نسخة في خزانة كتب العلامة نعمان الألوسي

ومنظومة في العقائد سماها (هادي السعيد) ضمنها (جوهرة التوحيد) للبرهان اللقاني وزاد عليها

ونظم (النخبة) في أصول الحديث للحافظ ابن حجر وشرحها

ومنظومة في علم العروض سماها (عقد الجيد) وشرحها وسماه (الجوهر الفريد على الجيد) ومنه نسخة خطية في خزانة كتب الألوسي

ومنظومة في علم القوافي شرحها بشرح سماه (السلسال الصافي) ومنه نسخة في خزانة كتب الألوسي أيضا . و (منظومة في علم الحساب)

وله رسائل أدبية منها (فكاهة السامر وقرة الناظر) و (نسمات السحر وروضة الفكر)

وله (الصارم القرضاب) وهو كتاب فى نحو ألنى بيت أو أكثر من الشعر الجزْل الرائع ، ناقض به دعبلاً الخزاعى الشاعر الهجّاء المشهور المتوفى سنة ٢٤٦ ﻫ ذاباً عن حرم سادات العرب ورجال الاسلام . ومثل ابن سند العربى القحّ الفحل والمسلم الكبير من ينهد لمناقضة دعبل الخزاعى ويكيل له الصاع صاعين فى الدفاع عن حياض سادات المسلمين

هذا ما عرفته من مؤلفات ابن سند

ونحن إذا ألقينا النظرة الى ما بسطناه من أحواله ومؤلفاته ، تتبين أن هذا الرجل كان من غزارة المادة وسعة الاطلاع أشبه بموسوعة من هذه الموسوعات التى تجمع أشتات العلوم والآداب ، ولكنه كان – إلى ذلك – مزهوّاً بنفسه ، مفتوناً بها فتنة لا تعرف حداً ، حتى كان لا يرى من الغضاضة أن يخلع على كتبه مطارف الثناء ، وعلى شعره حلل المدح والإطراء . ولقد كان يغنيه عن هذا التيه والعجب ما دان له به وجوه أهل زمانه من أمراء وأعيان من الاحترام والاكرام ، وما اعترف له به فحول العلماء والأدباء الذين عاصروه من الفضل والتقدم . ولست أحسبه فى استساغة هذا النوع من الزهو بالنفس إلا أنه نزع منازع الشعراء فى استباحة الفخر بأنفسهم ما وسعهم الافتخار ، والثناء على أدبهم ما وجدوا الى ذلك سبيلا

ولقد كان من إعجاب ابن سند بنفسه ، ومن عنجهية البداوة التى نشأ عليها هذه السطوة اللسانية التى كان ينقاد لها حتى فى أحاديثه الخاصة انقياداً فيسترسل مع طبعه البدوىّ الذى لم تستطع الحضارة أن تهذب منه .

وآيات ذلك كثيرة فى كتبه ، وإنما نقتصر منها هنا على حديث طريف وقع للألوسى الكبير (١) معه ، فيه شهادة بفضله ، وفيه نكتة حارة خليقة بأن تروى ، وفيه صورة من صور مزاج الرجل وأثر الطبع البدوىّ فى نفسه . وقد أورد الألوسى هذا الحديث فى كتابه (كشف الطرّة (٢)) عند نقد الوهم اللغوىّ الشائع على ألسنة الناس فى فتح الميم من كلمة « المروحة » قال : « واتفق لى أنه سبق على لسانى هذا الغلط لكثرته فى محاورات الناس ، وكنت زائراً الشيخ عثمان بن سند - رجل مشهور من أجلّ علماء البصرة ، له مؤلفات كثيرة فى العربية والفقه وغيرهما ، وشعر كثير جداً ، وقد كان جاء الى بغداد بطلب وزيرها وزير العلماء وعالم الوزراء داود باشا رحمة الله تعالى عليه ، وكان نجدىّ الأصل كثيراً ما يتكلم بلسان قومه الذى فيه عجمة اليوم ، ومع ذلك لا يسامح أحداً فى غلط وسهو - فقلت لرجل عنده : ناولنى المروحة (وفتحتُ الميم) فقال الشيخ بأعلى صوت ومزيد تهوّر : « ماچذا ماچذا ، قل مِروحة بكسر الميم » وعنى بقوله « ماچذا » : ما هكذا ، ولكن قومه يبدلون الكاف چيماً عجمية ككثير من الأعراب وعامة أهل الحضر (٣) ، فاتبعهم ساهياً عما تقتضيه الحال ، فقلت له : يا مولانا ، ماهكذا ، ماهكذا . ففطن لما قصدته من تغليطه فى اللفظ ومعاملته الزائر ، فخجل . فودعته وانصرفت »

---

(١) هو أبو الثناء السيد محمود الألوسى صاحب التفسير (١٢١٧-١٢٧٠)

(٢) هو مختصر (درة الغواص) للحريرى وشرحها ، ألفه فى القسطنطينية وطبع فى دمشق سنة ١٣٠١

(٣) أى فى العراق

هذه القصة وأمثالها تبين لنا أن ابن سند كان على جانب كبير من تغاليه بعلمه وأدبه تغالياً ما كان أجمله وأجله لو تحلل منه

أما شعره فهل جمع فى ديوان أو لم يجمعه؟ لا أعلم: ولكن ما أورده منه فى تواريخه (مطالع السعود) و (سبائك العسجد) و (أصفى الموارد) يؤلف ديواناً ضخماً يضعه فى طليعة شعراء عصره. وهو فى الغالب من هذا النوع الجزل الضخم الذى يملأ الفم ويقرع الأذن، ولكنه حبيب الى النفوس التى ألفت شدة الأسر، وتذوقت جمال الفصاحة عند مداره العرب وفصحاء البادية فى عصور عز العربية؛ صرفه فى أغراض كثيرة من الغزل والحماسة والفخر والمدح والرثاء والتهانىء والعتاب، فأتى بالمعجب المطرب. لاءم بين المعانى وبين الألفاظ، وأشاع فى أعاريضه وقوافيه هذه الموسيق الجميلة. استرسل مع الطبع حيناً، وتقيد بالمحسنات اللفظية حيناً آخر؛ ولكنكم -على ذلك- لا ترون عنده تكلفاً للبديع، ولا إسرافاً فى هذه المحسنات اللفظية، لأن سلطان الفطرة كان أكثر ما يكون سطوة على أسلوبه

محمد بهجة الأثرى



أمين بن حسن الحلوانى المدنى

مختصر تاريخ ابن سَنَد

عالم حجازى من أهل المدينة ، كان والده من أعيانها وأفاضلها ، حتى ان الشريف عبد الله بن عون أمير مكة أوفده فى سنة ١٢٧٩ إلى أمير نجد فيصل بن تركى لينصح له باعادة الخراج المرتب عليه للدولة العثمانية ، وكان فيصل قد منعه فى ذلك الحين ، فنجح الشيخ حسن الحلوانى فى مهمته وكان موضع التجلة والاكرام من أمير نجد (١). وقد نشأ الشيخ أمين فى رعاية هذا الوالد الفاضل ، فأمضى صدر حياته فى طلب العلم ، واقتناء المصنفات الجيدة ، ولا سيما المخطوطة ، وقام بالتدريس فى الحرم النبوى الشريف

وللشيخ أمين الحلوانى فى هذا المختصر (ص ١٠٧) عبارة تدل على أنه كان حوالى سنة ١٢٧٣ فى مصر ، ولعله كان يطلب العلم فى الأزهر ، فقد قال عن الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب : « أما الشيخ عبد الرحمن المذكور فقد أدركته فى الجامع الأزهر يدرس مذهب الحنابلة ، وكان شيخ رواق الحنابلة سنة ١٢٧٣ ، وتوفى سنة ١٢٧٤ ، وكان عالماً فقيها ذا سمت حسن يظهر عليه التقوى والصلاح ». وهى عبارة صريحة فى وجوده بمصر عامئذ ، ويحتمل أنه تلقى شيئا من علومه فى الأزهر

وفى سنة ١٢٩٠ اختصر كتاب (مطالع السعود بطيب أخبار الوالى

---

(١) انظر فى ص ١٠٥ – ١٠٦ من هذا الكتاب الفقرة التى كتبها ابنه الشيخ أمين عن هذا الحادث . ومما جاء فى تلك الفقرة أن لوالده كتاب رحلة فى نحو عشرة كراريس دون فيه ما رآه فى سفرته هذه من يوم خروجه من مكة الى أن عاد اليها

داود) للشيخ عثمان بن سند ، ولعل مما حمله على العناية بهذا الكتاب أن والده أدرك داود باشا مدة إقامته فى المدينة شيخاً للحرم الشريف وكان له اتصال به ، ولا يبعد أن يكون الأصل الذى اختصره فى جملة الكتب التى كان والده يقتنيها (١)

وفى سنة ١٢٩٢ قيل عن الشيخ أمين الحلوانى انه ألف رسالة ينكر فيها صحة المخلفات النبوية التى كانت الدولة العثمانية تتقرب الى العامة بدعوى الحيازة لها والاحتفال بها فى مواكب دورية أو غير دورية . وعلى أثر ذلك قام الحلوانى برحلة الى مصر وبعض بلاد الشرق العربى

وفى مصر اتصل بالعلامة الشيخ محمد محمود التركزى الشنقيطى وأخذ عنه واستفاد منه ، وخالط طبقة ذلك الوقت من علماء مصر وأعيانها

وفى ربيع الاول من سنة ١٣٠١ ألف رسالته الصغيرة (جنى النحلة فى كيفية غرس النخلة) وأكبر الظن أنه ألفها فى مصر ليرشد المشتغلين فيها بالزراعة الى تجارب أهل المدينة التى اقتبسوها من أهل القصيم فى نجد - مثل بريدة وعنيزة والرس - وهم أبرع مستثمرى هذه الشجرة القديمة الحبيبة الى العرب والقائمين على تربيتها ورعايتها

وفى تلك السنة (أى ١٣٠١) ذهب إلى ليدن وأمستردام بمجموعة من المخطوطات العربية كان اقتناها فى السنين السالفة ، فابتاعتها منه مكتبة

---

(١) لا شك أن داود باشا كان يملك أصلا جيداً من تاريخ ابن سند عندما كان شيخاً للحرم النبوى بالمدينة ، ومنه وصلت إلى الشيخ أمين الحلوانى الصورة التى قام باختصارها . وفى بغداد أصل آخر فى خزانة كتب السيد نعمان الألوسى نقل عنه من نقل ، ومن ذلك نسخة عند الأستاذ عباس العزاوى

ليدن الغنية بنفائس مخطوطاتها العربية [1] . ولمخطوطات الحلوانى هذه فهرس خاص وضعه المستشرقون ووصفوا فيه مفرداتها

ورأينا الحلوانى بعد ذلك فى الهند يسعى فى طبع بعض الكتب المهمة، وأهمها ديوان (لزوم مالا يلزم) لرهن المحبسين حكيم الشعراء أبى العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخىّ المعرّى، وقد طبعه على الحجر فى المطبعة الحسينية فى بمبى الهند سنة ١٣٠٣ بخط حسين البهائى الشيرازى عن أصل صحيح مضبوط بخط عبد الواحد بن عبد الرفيع، فرغ منه فى أواسط صفر سنة ٦٣٩، وكتبه لخزانة الأمير أبى زكريا ابن الشيخ المجاهد أبى محمد ابن الشيخ المجاهد أبى حفص . وطبعة الحلوانى هذه للزوم ما لا يلزم هى التى نقلت عنها طبعة عزيز زند وعن هذه نقلت طبعة المكتبة التجارية وكنت سمعت من الدكتور عبد الرحمن شهبندر أن والده رحمه الله ساهم ـعلى سبيل التجارةـ فى نفقات طبعة الحلوانى لهذا الديوان الشعرىّ العظيم

وكان الشيخ أمين الحلوانى فى مدة إقامته فى الهند وفياً لذلك الوطن الاسلامى العظيم كوفائه لآداب العرب وتراثها، وقد حمله ذلك على طبع

---

(١) وسبب امتياز مكتبة ليدن بهذه النفائس أن فرينر قنصل هولندة فى القسطنطينية في أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (أواخر السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلادى) كان يعرف العربية وأقدار علمائها، وكان يعلم أن أثمن مخطوطات مصر والشام والعراق نقلت من أيام السلطان سليم الى القسطنطينية؛ فصار يسعى للحصول ـ من ماله الخاص وبلا مساعدة من حكومته ـ على المخطوطات الأثرية، وبعضها بخطوط أمثال الحافظ النسائى والعلامة التبريزى والجواليقى والمقريزى والعماد الكاتب وعبد الله بن الخشاب النحوى، فلما اجتمع لديه مقدار كبير من هذه النفائس أهداها إلى مدينة ليدن لتكون منها نواة القسم العربى من مكتبتها العامة . وقد استفاد المستشرقون من هذه الأصول الصحيحة، وأنشىء القسم العربى من مطبعة بريل لنشر المختار من أمهاتها . لذلك كان بعض ما صدر عن مطبعة بريل من الكتب العربية أصح من بعض ما طبع فى غيرها من مطابع الشرق والغرب

كتاب (سبحة المرجان فى آثار هندستان) للعلامة غلام على آزاد الحسينى الواسطى البلگرامى المولود سنة ١١١٦ وهو من الاسرة العظيمة العربية الأصل التى منها السيد مرتضى الحسينى شارح القاموس وإحياء العلوم. وقد أتم غلام على آزاد تأليف السبحة فى سنة ١١٧٧ فتكون وفاته بعد ذلك. وكان طبع الحلوانى لهذا الكتاب على الحجر فى بومبى الهند سنة ١٣٠٣

وفى الهند أيضا طبع الحلوانى مختصره هذا لكتاب المؤرخ ابن سند عن حوادث العراق من سنة ١١٨٨ الى سنة ١٢٤٢ ، وتلك الطبعة فقدت نسخها من الأيدى وأصبحت فى ندرتها كالكتب المخطوطة ، وكان طبعها فى شوال سنة ١٣٠٤ بالمطبعة الحسينية أيضا بخط عبد الغنى ابن الشيخ محمد الخطيب وألحق بمختصر تاريخ ابن سند رسالته (جنى النحلة فى كيفية غرس النخلة) التى نظن أنه ألفها وهو فى مصر. أما اختصاره لتاريخ ابن سند فلا شك أنه كان وهو فى المدينة قبل قيامه منها لرحلاته فى الشرق وأوربا

وفى سنة ١٣٠٧ طبع الحلوانى فى بمبى الهند أيضاً ردّه على جرجى زيدان وسماه (نبش الهذيان ، من تاريخ جرجى زيدان) فهو أقدم من كل الذين انتبهوا بعد ذلك لنواحى الضعف فى كتب جرجى زيدان التاريخية ، وفى طليعتهم علامة الهند وأستاذ علمائها الشيخ شبلى النعمانى ، ومن علماء مصر أحمد تيمور باشا والشيخ أحمد الاسكندرى ، ومن غيرهم الأب لويس شيخو . وقد أجاب جرجى زيدان على رسالة الشيخ أمين برسالة سماها (ردّ رنّان ، على نبش الهذيان) وطبعها سنة ١٨٩١ (١٣٠٩هـ)

وظهر للحلوانى فى سنة ١٣١٢ كتاب (السيول المغرقة ، على الصواعق المحرقة) وهو رد على السيد أحمد أسعد المدنى من المنتمين الى طريقة الشيخ أبي الهدى الصيادي ، لكن الشيخ أميناً الحلوانى لم يصرح فى هذا

الرد باسمه وانتحل اسماً مستعاراً هو (عبد الباسط المنوفى) . ومن المحتمل أن يكون المردود عليه فى كتاب (السيول المغرقة) أحدَ الذين شنعوا على الشيخ أمين فى سنة ١٢٩٢ بدعوى أنه أنكر صحة المخلفات النبوية التى كانت الدولة العثمانية تزعم حيازتها ، وكان ذلك سبب رحلته عن وطنه الى مصر والهند وغيرهما

وبعد فان الشيخ أمين بن حسن الحلوانى من مفاخر أهل الفضل الذين أنجبتهم المدينة المنورة فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجرى . وقد أردت أن ألمّ من حياته بأكثر من هذا فسألت أديب المدينة المنوّرة الاستاذ عبد القدوس الأنصارى عن الموجودين الى الآن من أقارب الشيخ أمين والعارفين بترجمته ، فعلمت منه أن هذه الأسرة لم يبق منها أحد له صلة بهذه الأمور أو اشتغال بالمعارف الاسلامية ، فاكتفيت من التعريف به بما استعطت أن أعرفه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وأهل الحجاز ولا سيما المدينة المنورة أولى منى بالبحث عن حياة أفاضلهم وفى طليعتهم الشيخ أمين بن حسن الحلوانى الذى لا شك فى أنه توفى فى الهند ، وقد علمت من الشيخ عبد القدوس أن أحد أفاضل الهند كتب ترجمة له لمناسبة وفاته فى بلادهم ، وكنت على وعد منه بارسال صورة من هذه الترجمة لأستفيد مما فيها من زيادة على ما أعلم ، ولا سيما سنة وفاته وسنة ولادته إن كان ذلك معلوماً ، ولو وصلت الىّ هذه الترجمة لكان فيها ما لعله يزيد القراء علماً بهذا العالم الحجازى الذى كان فى زمنه ووطنه كلمعة البرق ، يعيش بين قومه فى عصر يسبق عصرهم ، ويعيشون معه فى عصر متأخر عن عصره . رحمه الله ، وطيب ذكراه

محب الدين الخطيب

دار الفتح
بجزيرة الروضة (تجاه الفسطاط)

مختصر

مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود

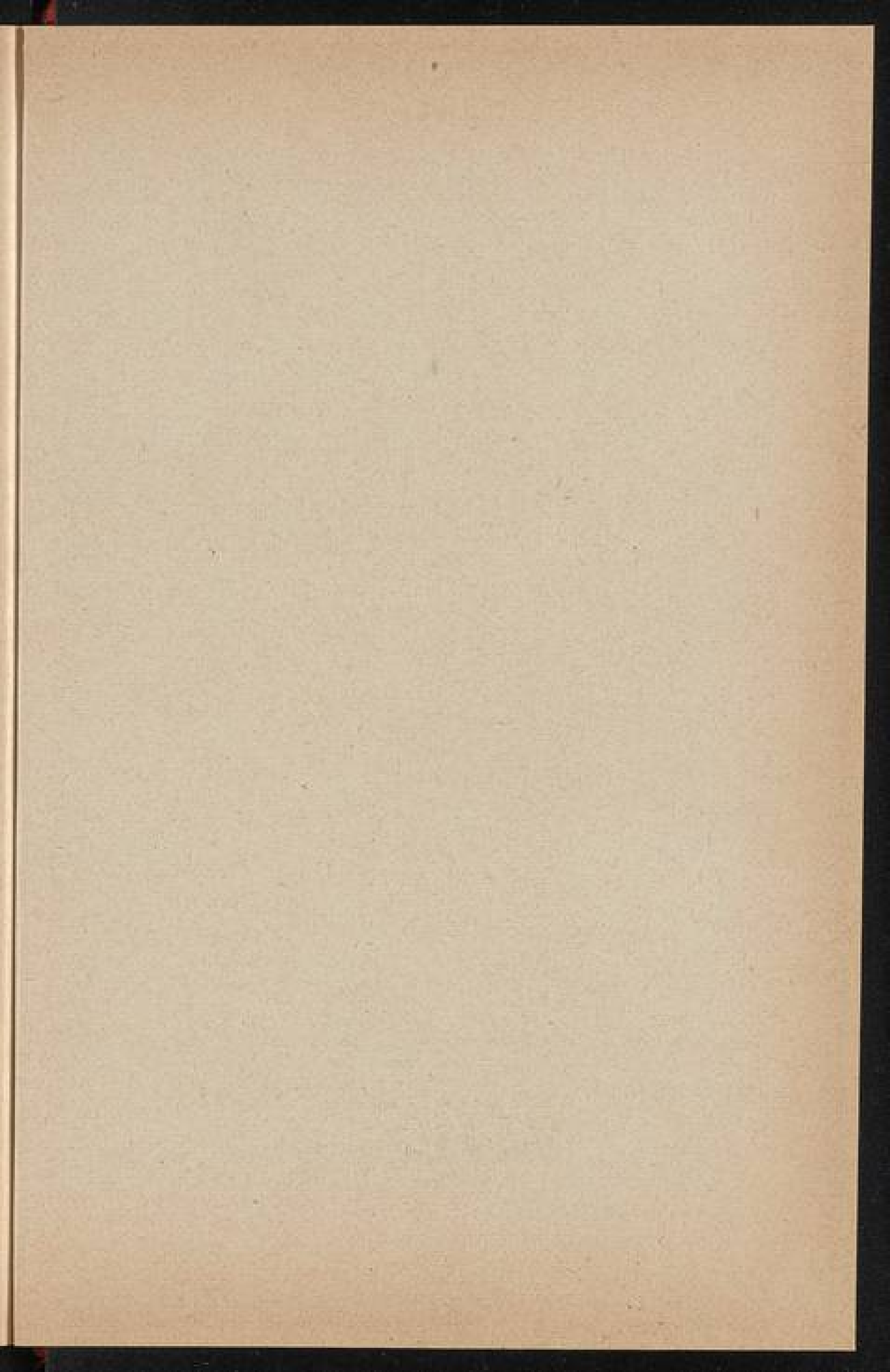
للشيخ عثمان بن سند البصري الوائلي

١١٨٠ — ١٢٥٠ هـ

اختصره

الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني

المدرس بالحرم النبوي الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ، وصلى اللهُ على النبيّ وصحبه وآله

سألتَ - أيّدكَ الله - أن أختصرَ لك تاريخ العلامة الرّحلة الفهامة الشيخ عثمان بن سَند البصرى الوائلى (نسبة الى قبيلة من عنزة وهى [من بنى] وائل بن قاسط بن أسد بن ربيعة بن نِزار بن مَعَدّ ابن عدنان) المتوفى سنة ١٢٥٠ من الهجرة . فتأملتُ فيه ، فألفيتُه كتاباً جمع - من تواريخ القرن الثانى عشر وبعضٍ من أخبار القرن الثالث عشر - غرائب وفرائد كانت أخذَتْ عليها يدُ الزمان ، ولولاه لما كانت هذه الوقائع إلا فى صندوق النسيان ، خصوصاً حيث أعرب وأطنب عن أخبار أعلم الوزراء وأفضل العلماء ، حضرة الوزير المشير ، شيخنا وشيخ المشايخ داود باشا والى بغداد سابقاً ، برّد اللهُ مضجعه .

ولكن الشيخ عثمان لم يكتب فى تاريخه إلا إلى سنة ١٢٤٢ ، مع أن الوزير داود باشا ظلّ فى ولاية بغداد الى سنة ١٢٤٧ ، والشيخ عثمان بن سند عاش فى الدنيا الى سنة ١٢٥٠ ، فيا عجباً له كيف أهمل هذه الخمس السنوات من تملك داود باشا على بغداد ، مع أنه - فيما أخبرنى به والدى رحمه الله (١) - أن داود باشا ماتمت سلطنته وتناهت

---

(١) لأنه عاصر داود باشا ، ولقيه فى المدينة مدة ولايته مشيخة الحرم النبوى فى آخر حياته ، وفي البلدة الطيبة (سنة ١٢٦٢) كانت وفاته

قوّته إلا فى هذه الخمس السنين الأخيرة التى أطاعه فيها جميع أرض العراق حاضره وباديه ، وكرده وعجمه ، وفيها ـ على مايقال ـ تاقت نفسه لأن يكون سلطاناً مستقلا ، وكان فيه الأهلية لذلك ، وفيهـا جلب الصنائع والصناع الى بغداد من أهل أوربا ، بل ومن سائر الأقطار ، وأخذ فى أسباب التمدّن والعمران ، وأمر بصنع المدافع والبنـادق على الطرز الجديد ، وفيهـا شكل جيوشاً عسكرية منظمة بتعليمات مخصوصة اخترعها لهم ، الى أن بلغت جيوشه أكثر من مائة ألف ، وبهذه الجيوش والاستعداد طمع فى أن يستولى عـلى جميع آسيـا الصغرى والكبرى . وكان دائماً مطمح أنظاره الاستيلاء على بلاد العجم ، وقد داخلهم الرعب والخوف منه ومن جيوشه ومن تعليماتهم الغريبة الأشكال والأوضاع ، ولـكنه لم تساعده المقادير كما ساعدت محمد على باشا والى مصر ، فان داود باشا بينما هو فى هـذه الأبهة والسلطنه والاستقلال والخروج عن طاعة الدولة العلية ،أرسل عليه السلطان محمود خان العثمانى جيشاً نحو العشرين ألفاً ورئيسهم على باشا اللاظ (١) ، فلما قرب من بغداد ضحك داود باشا واستهزأ بهـذا

---

(١) هو على رضا باشا الطربزونى من وزراء الدولة العثمانية وشعرائها ، كان يتنقل فى الدولة بوظائف (مهردار) و (متسلم) الى أن وجهت اليه فى سنة ١٢٤٤ رتبة مدير الاصطبل العامر وندب معها لأن يكون قائم مقام فى حلب ، ثم وجهت اليه فى السنة التالية (١٢٤٥) رتبة الوزارة وولاية حلب ؛ وفى سنة ١٢٤٦ جاهر داود باشا بنزوعه الى الاستقلال ، فكان =

الجيش الضعيف الذى يريد أن يستولى على بغداد ، فأخذه الغرور وقال «لو نرسل على هذا الجيش نساء بغداد لما كان يطيق مقاومتهن» إلا أن الوزير داود باشا لايعلم ماهو مخبوء له فى طيات القدَر ، فبينما هو يُعبىء فى جيوشه ويستعد لمحاربة على باشا اللاظ - وأمله أسر جميع الجيش ثم الاستيلاء على ماوراءه - دهمه الوباء الطاعونى داخل بغداد فأفنى أكثر أهل بغداد ، وقيل انه كان يموت فى كل يوم أكثر من عشرة آلاف نفس ، هذا داخل بغداد وأما جيش على باشا اللاظ فلم يصبه شئ من ذلك الطاعون ، وذلك تقدير العزيز العليم ، وانقلب الفرح حزنا وصار الصراخ فى كل بيت من بيوت بغداد ، وقيل ان الذى مات بهذا الطاعون من أولاد داود باشا لصلبه أكثر من عشرة أولاد يركبون الخيل ، فانكسرت نفس داود باشا وداخله الغم والهم والحزن ، وفتّ فى عضده وانفل جيشه بعضهم بالموت وبعضهم بالهرب والفرار الى البوادى والقفار . فلما طلب على

= على رضا باشا الطربزونى والى حلب أقرب المرضى عنهم فى القسطنطينية من رجال الدولة جواراً من بغداد ، فأمر بالزحف على العراق بمن استطاع جمعهم وقيادتهم من الجند ، ولما كتب الله له التوفيق فى هذه الحملة - بسبب الطاعون الذى وقع فى بغداد عاصمة داود باشا وفى جيشه وبيته - تولى على رضا باشا ولاية بغداد ، ثم نقل فى سنة ١٢٥٧ الى ولاية دمشق ، وفيها كانت وفاته عقب عزله عن ولايتها فى سنة ١٢٦١ . ومن شعره باللغة التركية :

آمدهٔ ورفتِ خيالِ وصلنك اى مرو قد
كورفزِ دَرْياً كبى سينه‌مده أيلر جزر ومد

باشا اللاظ المحاربة معه لم يسعه إلا المصالحة على أن يسلم الى على باشا بغداد بما فيها وداود باشا يسكن اسلامبول ، فسافر داود باشا الى اسلامبول وظل فيها الى سنة ١٢٦٠ وكان معظماً عند السلطان محمود ثم عند ابنه السلطان عبدالمجيد ورجال دولته لسن داود باشا وعلمه حتى أن كسوته الرسمية يوم العيد كان مكتوباً على صدرها (شيخ الوزراء) هكذا بالطراز المذهب ، لأن هذا كان لقبه خاصة . ثم ان السلطان عبد المجيد أرسله شيخاً على الحرم النبوى سنة ١٢٦٠ وبقى فى المدينة مشتغلاً بالعلوم والتدريس ، ونفع أهل المدينة من جهة العلوم نفعاً تاماً ، وكان أمله أن يفتح مدرسة حقيقية بأمر الدولة فى المدينة لتعليم أهلها جميع العلوم والفنون ، ولكن المنية اخترمته فى سنة ١٢٦٧ ولم يتم مراده ، ودفن بالبقيع الشريف تجاه قبة سيدنا عثمان بن عفان ، وأمر أن لا يبنى على قبره بناء ولا قبة اتباعاً للسنة ، انما جعلوا شباكاً من الحديد حول قبره ، وما أعلم هل كان ذلك بوصية منه أم لا . ولكن لو نظرنا الى أصل السبب فى منع البناء على القبور وهو خوف احتكار مقابر المسلمين خصوصاً هذه البقاع الشريفة نجد أن الشباك من الحديد أشد احتكاراً وأثبت وأبقى من البناء[1] . الا أن داود باشا

(١) أصل السبب فى منع الشريعة الاسلامية البناء على القبور أن يكون أهل الدنيا عندما يصيرون الى الآخرة مميزاً إلى أقدارهم بأعمالهم لا بتفخيم قبورهم ، وعمرو بن العاص الذى دخلت مصر على يده فى الاسلام وله نصيب من ثواب كل مسلم فيها لم يخطر على بال ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص أن يقيم له على قبره بناء لأن البناء على قبره مخالف لسنة الاسلام ولا يزيد صاحبه عظمة

رحمه الله كان مطلعاً على دقائق الشريعة ، وربما يكون له وجه فى وضع الحديد على قبره . ومن آثاره بالمدينة البستان المعروف بالداودية خارج المدينة بقرب ضريح سيدنا محمد الزكى عند منهل العين الزرقاء ، ولما أتم بناءه وغرسه أرّخه شاعر العراق بالاتفاق الشيخ صالح التميمى بقصيدة (١) وجعل آخرها تاريخا وهو قوله « تاريخه غرسه » فأعجب داود باشا وأعطاه جائزة ألف ريال ، وبموته ماتت العلوم والمعارف وراغبوها ، فرحمه الله رحمة الابرار

وأصل تاريخ الشيخ عثمان بن سند كبير نحو الاربعين كراساً (٢) ألفه فى أخبار العراق وتراجم رجاله وعلى الخصوص مناقب الوزير داود باشا ، وكان سماه (مطالع السعود ، بطيب أخبار الوالى داود) وهذا عند ابتداء تبييض التاريخ المذكور فكان مجموع اسم الكتاب تاريخا له (١٢٤٩)

---

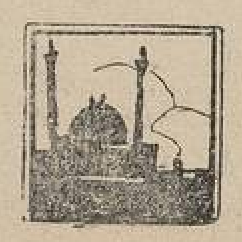
(١) هو الشيخ صالح ابن الشيخ درويش ابن الشيخ زينى من بنى تميم . وهو فوق كونه شاعراً له تاريخ اسمه (شرك العقول وغريب المنقول) ذكره السيد محمود شكرى الالوسى فى (المسك الازفر) ص ١٤٩ وقال : انه فى مجلدين مرتب على السنين من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٢٤٠ ذكر فيه أيام الوزير داود باشا . وله كتاب آخر عن شعراء زمن داود باشا اسمه (وشاح الورود ، والجواهر والعقود ، فى نظم الوزير داود)

(٢) ٨٠٠ صفحة (والكراس فى اصطلاح الثقافة الاسلامية ٢٠ صفحة)

والفقير قد اختصرته ، وذكرت الوقائع التاريخية فقط وحذفت الاشعار والمدائح والنثر الطوال ، ولم أخلّ بشئ من وقائعه التاريخية . وكلّ ما كان بين قوسين فهو من زياداتى ، إما لتوضيح كلام مبهم ، أو لتفصيل أمر مجمل

وقد وجدته يعبر ببعض عبارات ليست مألوفة عند المتأخرين ، ولكن لم يمكنى إلا مجاراته ، كى لا أخرج عن المعنى الاصلى الذى أراده هو . وقد جعل أوله سنة ١١٨٨ ، وهى السنة التى ولد فيهـــا المترجم داود باشا

وكان من الأسباب التى حثت الشيخ عثمان بن سند على تأليف هذا التاريخ ـ كما ذكره فى الأصل ـ هو الاديب عبد القادر بن عبيدالله الحيدرى قاضى البصرة والحـــاج محمد أسعد المشهور بابن النائب ، فسوّده وجمعه . ثم ان الوزير المترجم دعا الشيخ عثمان بن سند الى بغداد فى سنة ١٢٤٠ وأكرمه وأمره بتبييض تلك المسودة لأجل أن يتخلد ذكره وعدله بين الأمم



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ عثمان بن سند البصري برد الله مضجعه :

ولد الوزير داود باشا والي بغداد سنة ١١٨٨ ، وذلك بشهادة التخمين ، لأنه لما تولى الخازندارية لسليمان باشا كان عمره سبعاً وعشرين سنة (١) ، وأخبر هو بنفسه أنه لما أتى بغداد كان عمره احدى عشرة سنة والوزير سليمان باشا محاصر للحسكة من أرض الخزاعل (في بعض الاماكن يعبر عنها بخزاعة ، وكلاهما واحد) ثالث مرة ، وذلك في سنة ١١٩٩ . (وحكى لي غير واحد من ثقات بغداد أن أصل داود باشا مملوك كرجي (٢) جلبه بعض النخاسين الى

---

(١) الوزير سليمان باشا من ولاة بغداد ، ذكره السيد محمود شكري الالوسي في ترجمة السيد أحمد الطبقجلي بالمسك الاذفر ص ٩٠ وكان داود باشا في هذه السن من طفولته مملوكاً لسليمان باشا ، ونشأ في بيته ، وترقى في دولته . وولي بغداد بعد سليمان باشا ابنه سعيد باشا فبلغ داود باشا في زمن سعيد باشا وظيفة (الدفتردار) وهي أعلى الوظائف المالية في الولايات العثمانية ، ثم قتل سعيد باشا فعين داود باشا والياً على بغداد كما سترى تفصيل ذلك في هذا التاريخ.

(٢) وهكذا يقول شمس الدين سامي في قاموس الاعلام ص ٢١١١

بغداد ، فاشتراه مصطفى بك الربيعى ، ثم باعه لسليمان باشا والى بغداد فرباه سليمان باشا وعلمه القرآن وأدّبه فأحسن أدبه الى أن وصل الى ما وصل اليه من العلوم والمعارف والديانة التى يشهد بها عدوّه وصديقه ، الى أن انتهت اليه وزارة بغداد كما سيجيئك مفصلا)

فى ذكر وقائع سنة ١١٨٨

منها محاصرة كريم خان الزندى للبصرة بجنوده الروافض العجم [١] ومعاناة أهلها لشدّة الحروب معه ، الى أن أكلوا الكلاب والهِرَر والفئران ، وكان متسلم البصرة اذ ذاك سليمان بك الذى آل اليه أمر بغداد فيما بعد وصار يسمى سليمان باشا أبا سعيد ، وهو سيّد داود

---

(١) كان كريم خان هذا من رجال دولة نادرشاه ـ الذى حاول التقريب بين الشيعة وأهل السنة باجبار الشيعة على أن يعترفوا بفضل أصحاب رسول الله ﷺ وأن يجتنبوا كل ما يعده المسلمون كفراً ، كما ورد تفصيل ذلك فى كتاب (مؤتمر النجف) ـ فلما مات نادر شاه عن غير وارث يصلح لادارة المملكة الايرانية ، انتهز كريم خان هذه الفرصة وكون من قبيلة (زند) فرقة عسكرية منظمة واستولى بها على جهة فارس وعراق العجم من مملكة إيران واتخذ شيراز عاصمة له ، وبقيت جهة خراسان فى ايدى الضعفاء من ورثة نادر شاه ، وسواحل بحر الخزر تغلب عليها حسن خان جد الملوك من اسرة قاجار ، فحكم كريم خان مدة عشرين سنة (١١٧٣ — ١١٩٣) وفى خلال هذه المدة هاجم البصرة على ما يذكره مؤرخنا ابن سند

باشا ، وكان الوزير فى بغداد عمر باشا ، وكان سلطان الاسلام للسلطان عبد الحميد الأول (١) ، ولم يمدّ السلطانُ متسلمَ البصرة بشىء فى هذه الشدائد ، وقد حضر لمساعدة أهل البصرة ثامر بن سعدون وثوينى بن عبد الله أولَ المحاصرة ، فلما رأيا قوة عسكر العجم فرّا الى البادية بقومهما هاربين ، وعمر باشا يستمدّ من الدولة ويستغيث فلا تمدّه ولا تسمع نداءه لما هى فيه من أهوال الحروب مع الروس (٢).

وفى آخر الأمر أمدّت الدولة العلية والى بغداد بجيش جسيم ، لكن لعدم الضبط والربط كان أكثر الوزراء خونة ، وكان رؤساء ذلك الجيش ثلاثة : عبد الله باشا ، وعبدى باشا ، ومصطفى باشا (فلعلهم إما ارتشوا أو جبنوا) ، لأنهم أشاعوا أن السلطان عبد الحميد اصطلح مع ملك العجم كريم خان وأنه عن قريب تنفك المحاصرة عن البصرة وذلك ليثبطوا همة العسكر الينيجرية عن القتال والهجوم على العدو المغروز فى طباعهم ، وصوّروا فرمانا عن السلطان بالكذب مضمونه هذا الصلح وعزل عمر باشا وتولية مصطفى باشا بدله ، وكل هذا

---

(١) تولى السلطنة سنة ١١٨٧ عند وفاة أخيه السلطان مصطفى الثالث

(٢) التى انتهت سنة ١١٨٨ باذعان الدولة للتوقيع على معاهدة قاينارجة وتسليم بعض القلاع العثمانية للروس والاعتراف باستقلال القريم الذى كان توطئة لاستيلاء الروس عليها بعد ذلك بثلاث سنوات . وكان من الدناءة والغدر والاسفاف بغى الايرانيين على البصرة والدولة العثمانية فى مثل هذه الظروف

افتراء على السلطان ، ولبعد المسافة ما بين بغداد واسلامبول وعدم ارتباط البوسطات بينهما كان يتعذّر وصول الخبر الحقيق الى محله ، خصوصاً مع غلظ حِجاب ملوك آل عثمان ، فانه ما أوهن الدولة وأضعفها إلا هذان السببان

فأما ماكان من عمر باشا فانه لما بلغه عزله خرج عن البلد وخيم بالجانب الغربي منها وتجهز للسفر الى اسلامبول ، وبعد أيام هجم عليه رجال مصطفى باشا فى الليل وأخرجوا فرمانا كذبا ثانيا بقطع رأس عمر باشا لاهماله فى أمر البصرة وقطعوا رأسه علنا

ثم ان مصطفى باشا ظهر أنه محب للعجم فى الباطن ويظهر خلافه للعامة ، فكتب الى متسلم البصرة سليمان بك « ان المدد لكم بعيد من الدولة ، فاما أن تصطلح مع العجم ، وإما أن تسلم البلدة لهم » وكتب الى الدولة بأن صلحنا مع العجم انتظم وان جيوشهم تفرّقت عن البصرة ورجعت الى ممالكهم . فلما ورد على سليمان بك ما أرسله مصطفى باشا سُقط فى يده وأحضر أعيان البصرة وقرأه عليهم ، فحينئذ أيقنوا بالهلاك ، فخرج جماعة من الأعيان طالبين من صادق خان رئيس عسكر العجم الأمان للنفوس والأعراض [١] وأباحوا له

---

(١) صادق خان أخو كريم خان ملك شيراز . ولما مات كريم خان سنة ١١٩٣ خلفه زكى خان وتوفى سنة ١١٩٤ فتولى صادق خان هذا حكومة شيراز مدة سنتين وكان غير أهل لامانة الحكم وأساء السيرة فى وطنه كما =

ما سواهما ، فدخل البصرة بعسكره وهتكها وفضحها ولم يبق مأثماً إلا ارتكبه هو وقومه ولم يفِ بشئ مما وعد به من العهود ، وما ترك نوعاً من الظلم إلا تجشمه : أفعال ولا أفعال التتار ، وأمر الناسَ بسبّ الصحابة جهراً علناً على المنابر والمنائر ، خصوصاً أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة ، ونودى بحىّ على خير العمل (١) وهرب كل من لهم قدرة من أهل البصرة الى البرارى والقفار ، وبعضهم ركب البحر الى ما يشاء الله لا يعلم أين يتوجه ، فخربت البلاد وخلت ، وتعطلت تلك المساجد والمشاعر والمدارس (٢) وجميع أعيان البلد ومن يظن فيه الغنى فى الأغلال والحديد يعذّبون لاخراج المال المدفون على زعم العجم ، والعصا والسياط تشتغل ليلا ونهاراً على الأمراء وعلى حريمهم المخدّرات ، وأمثال هذه الفظائع التى تقشعرّ من سماعها الجلود

وأما سليمان بك متسلم البصرة ومعه جملة من أعيانها فنقلوهم الى شيراز لأجل أن يصير تعذيبهم هناك بحضرة الشاه

= فعل فى البصرة فقتل سنة ١١٩٦ وتولى بعده على مراد خان ، وانتقل الامر بعدهم الى وزيرهم لطف على خان وانقرضت به الدولة الزندية سنة ١٢٠٨ باستيلاء الملوك من آل قاجار على إيران كلها

(١) وأىّ خير عمل ينادى به مرتكبو شرّ الاعمال !

(٢) هذا مع أن كريم خان يعدونه فى الايرانيين من أنصار العلم والاصلاح ، فاذا كان هذا شأنه فما هو حال قادة الجهل والفساد من قومه ؟!

ولما سمع الأديب الشيخ عبد الله البيتوشي الكردي بما أصاب البصرة وأهلها من هذه الفئة الطاغية المتوحشة كتب كتابا وقصيدة وضمنها من البلاغة ما يلين الصخر وأرسله الى صاحب النخوة والانسانية سليمان بن شاوى الحميرى لأنه كان من المعدودين إذ ذاك فى بغداد يستصرخه ويستنجد منه نصرة أهل البصرة ، فلما وصل الكتاب الى ابن شاوى ضاقت الدنيا فى عينه ، ولم يمكنه لا المساعدة ولا المجاوبة ، لأن ظروف الاحوال تقضى بذلك

ثم ان عسكر العجم لما ملكوا البصرة وفعلوا فيها ما فعلوا استخفوا بقبائل العرب ، وازدروا بالدولة العلية كل الازدراء ، فطمحت نفوسهم لغزو بلاد المنتفق [١] ، فجهز صادق خان جيشاً عرمرماً من كل محلوق اللحية وله شاربان نحو شبر وله عينان تتقاذف منها الشرر ، ومن كل فظ غليظ له لحية الى عانته ، وما كأنهم الا مرازبة كسرى غاطسين فى الحديد والزرد ، فتهيأ عرب المنتفق لهم فى محل يسمى بالفُضَيلة قريبا من الفرات غربيه ، والتقى الجمعان ، فما كان إلا برهة وقد اختلط العرب بذلك الجيش ولعبت فيهم سيوف العرب كأنها مخاريق المشعوذين ، فما استتم نصف النهار إلا والهزيمة على

---

(١) بلاد المنتفق — أو المنتفك — مقاطعة من أربع مقاطعات كانت تتألف منها ولاية البصرة ، وهى فى شمالها الغربى ، وفى شمالها الشرقى مقاطعة العمارة وهما بين البصرة وبغداد

عسكر العجم وولوا الفرار والتزمت العرب منهم الأدبار ، وأكثر هلاك العجم كان بالغرق ، وسببه أنه اقتضى رأى رئيسهم أن يجعل الفرات خلفهم حتى لا يهجم عليهم العرب من خلفهم فانهم تعوّدوا بأن خيل العرب لها خفة شديدة فى الالتفاف خلف العدو ، فكان هذا هو السبب فى هلاك عسكر العجم ، لأنهم لما بدت فيهم الهزيمة لم يجدوا مفرّاً إلا النزول فى الفرات لأجل أن يعوموا الى البر الآخر ، فلحقتهم العرب بخيلهم التى تسبق الرياح وصاروا يطعنونهم وهم فى الماء . فانظر كيف أن اجتهاد رئيس العجم هو الذى أورث قومه الهلاك والدمار . وما أظن هذه الهزيمة والفشل والقتل الذى أصاب العجم إلا مجازاة لما فعلوه فى أهل البصرة ، ومكافأة للغدر بالعهود

ثم ان باقى عسكر العجم دخلوا البصرة منكسين الرءوس رافعين ألوية الخزى ، فحنق صادق خان وعزم على محاربة العرب مرة ثانية لأخذ الثار وغسل العار ، فجمع الجموع ، وجدّد آلات غير التى تركوها عند العرب من الأسلحة والخيول والعدد ، وأرسل واستنجد بعسكر جديد من أخيه كريم خان سلطان العجم بشيراز ، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، وما درى أن الدوائر على الباغى تدور ، فخرج عسكر العجم من البصرة مرة ثانية بجيش جرّار غاطس فى الحديد والسيوف المجوهرة أضخم من الجيش الأول ورئيسهم محمد على خان المشهور بينهم بالبسالة والظفر وادارة الجيوش . وكان مع

عسكر العجم عربُ بنى كعب الروافض ، والذى جرّأهم على ذلك علة الدين والملة ـ وكان رؤساء المنتفق ثوينى وثامر الشبيبين ، فالتقى الجيشان فى (أبى حلاّنة) ، فعندما شاهد العرب كثرة جيش العجم وقوة استعداده جنحوا للصلح وأرسلوا الى محمد على خان فى ذلك ، فشرط عليهم شروطا تأباها شيم العرب وتودّ الموت والفناء والجلاء دونها ، منها الإتاوة ، ومنها سبّ الصحابة علناً على المنابر والمنائر ؛ فما قبل منهم ثوينى وثامر هذه الشروط ، واستعدّوا للموت

ثم ان محمد على خان استشار شيخ الكثير علوان ، فأخبره بمكيدة فى تعبئة الجيش تضرّ بالعرب ، ولكن ثوينى وثامر فهماها وتحذّرا منها ، فلما التقى الجمعان ودار الضرب والطعان وتطايرت الرءوس عن الاجساد وصاحت الأبطال صيحات يذوب منها قلب الجبان ، فما كان إلا خمس ساعات حتى انفل جيش العجم وانهزم وقتل محمد على خان رئيس جيش العجم وتشتت جيش العجم شذر مذر وفرّوا وتركوا الأرض مصبوغة بالدماء ، وجيف العجم ظلت مطروحة أشهراً أنتن منها الجو وشبعت منها الطيور والسباع ، وغنمت العرب من هذه الوقعة غنائم من أسلحة ومناطق مرصعة بالجواهر لم يعرفوها ولا سمعوا بها ، خصوصا والعجم متمولون من أموال البصرة . وهذه الهزيمة الثانية على العجم المسماة (واقعة أبى حلانة) كانت هى السبب فى تقصير همة العجم عن أخذ جميع العراق

فلما استقر عرب المنتفق فى ديارهم وأوطانهم آمنين منصورين غانمين وفدت عليهم الشعراء ، فصاروا يجيزونهم بالعلب المجوهـــرة والسيوف المرصعة

وممن حضر فى ذلك اليوم وأبلى فيه بلاء حسنا (حمود بن ثامر) وكان شاباً ماطرء شاربه ، و (محمد بن عبد العزيز بن مغامس) . وهذه الواقعة كانت سنة ١١٩٧ (١)

ولنرجع الى أخبار الوزير عمر باشا والى بغداد ، فانهم بعد مـا قطعوا رأسه وأفضت ولاية بغداد الى مصطفى باشا - كما تقدم ذلك - تحقق عند الخاص والعام أن مصطفى باشا جبان خائن غدّار ، أوّلا لعدم إنجاده لأهل البصرة ، وثانيا لكذبه وافترائه عـــلى السلطان بالفرمانات المزوّرة ، فبناء على هذا خرج عليه عبد الله باشا ونابذه واستولى على قرى شرق بغداد وشرع فى محاربة مصطفى باشا الوالى ، فضاق الخناق على الوالى ، فأرسل الى الدولة الشكاية والسعاية فى عبد الله باشا وما فعله من المخالفة ، فصادف ذلك غضب الدولة على مصطفى باشا لعدم مساعدته أهل البصرة ، فانقلبت السعاية عليه ، فما مضت أيام إلا وقد ورد فرمان من الدولة بعـــزل مصطفى باشا عن ولاية بغداد وتولية عبدى باشا بدله . وأما عبد الله باشا فتمادى على عصيانه وخروجه

---

(١) هكذا بالاصل ، وكتب بالارقام لا بالحروف ، ولعله سنة ١١٩٢

ثم فى هذه الايام بلغ السلطان استيلاء العجم على البصرة وما فعلوه فيها وقتل عمر باشا (انظر لهذا السلطان الذى تؤخذ ممالكه ولا يبلغه خبرها الا بعد أربع سنين !) فحالا جاء فرمان من السلطان بقتل مصطفى باشا علنا ، ولام الوزراء على كتمانهم هذه الأمور عنه ، وتأسف على قتل عمر باشا لأنه كان رجلا صالحا [1]

ولما بلغ السلطانَ خروج عبد الله باشا واستيلاؤه على جانب من العراق بالسيف أرسل فرمانا بعزل عبدى باشا وتولية عبد الله باشا بدله وأمره أن يتوجه الى البصرة . فأما ما كان من عبد الله باشا فانه لما استقرّ على كرسى ولاية بغداد أخذه الغرور والكبر ، واشتغل باللذات والشهوات النفسانية البهيمية بجميع أنواعها ولم يلتفت الى أمر السلطان بمحاربة البصرة وفتحها بل صار يعد ويسوّف ولم يهمّه أمر البصرة أصلا وظن أن وزارة بغداد هى عبارة عن الاتكاء فى صدر المجلس ودخول الناس عليه والتسليم بالوزارة ، وارتكابه من الفسوق والفجور والظلم كلّ ما يريده لا يعارضه فيه معارض ولا ينازعه منازع ، بل أغلب المنافقين يحسّنون له جميع أفعاله ، فاختلت الأمور وثارت عليه العصبيات من كل وجهة

---

(١) وكيف يكون صالحاً وهو من رجال دولة متخومة بالفساد . وسترى قريباً أن رسن عمر باشا كان فى يد مخنث ايرانى يسمى عجم محمد

ومما ينبغي أن يتنبه له أن بطانة الملك هي المُصْلحة المُفْسدة ، وأن أدعية المظلومين كالسهام المسدَّدة . فمما أوجب في حكم عبد الله باشا الاختلال تقليده جميع أموره لعجم محمد العجمي الايراني الذي هو أدنى أوصافه القيادة ويفتخر بها ويقول « ما وصلت الى ما وصلت اليه الا بهذه الصنعة الشريفة » .

وأما مناقبه فهو : عجم محمد العجمي الايراني الرافضي ، ورد من بلاد العجم وهو أمرد جميل الصورة ومعه أختاه وأمه فصار يغنّي وأختاه ترقصان عند أكابر الدولة والأمراء ، فنفقت سوقه في بغداد وأقبل عليه أهل الفجور والفساد من أمراء بغداد وأعيانها ، وتَبَّة وعظم ، وصار يتوسط للناس في قضاياهم ، ويرتشي وتهدى اليه الهدايا ، وداهنه أرباب الحاجات ، ونفع وضرّ ، الى أن صار يعدُّ من رجال الدولة وعظمائها ، وتقرّب من الوزراء وجرى فيهم مجرى الدم من اللحم ونادمهم – وكان فصيحاً منطيقا – وقبل عبد الله باشا صار دُويداراً عند عمر باشا ، ففتح له أبواباً من الظلم ، ووشى اليه على ناس وأخرب بيوتهم وهرب أكثر تجار بغداد من خوفهم من شر عجم محمد ، وشاب وظلمه وفجوره شباب ، وكلما طال عمره زاد شرُّه ، وعلمته التجارب طرقاً يضارُّ بها أعداءه يغفل عنها إبليس ، حتى انه لما قتل الوزير عمر باشا فرح الناس لظنهم أنهم خلصوا من شر عجم محمد وأن ناره قد خمدت ، مع أن عمر باشا كان للخير أقرب وله مآثر

حسنة ، ولكن لما قرّب عجم محمد حلّ على الوزير شؤمه وكان من عاقبة أمره أن عزل وقتل ، فما فرح الناس بموت عمر باشا إلا لزعمهم أن نار عجم محمد خمدت وأن نجمه قد أفل . ولكن حلم الله طويل ، فما يشعرون إلا ومصطفى باشا قرّبه اليه أكثر من قرب عمر باشا ، وصار هو مستشاره وأول داخل عليه وآخر خارج عنه ، وولاه خازنداريته ، وعكف الكل على الخمور والزنا واللواطة وجميع أنواع الفجور والمظالم ، حتى أنه لما أرسل السلطان خزينة لصرفها على محاربة العجم واخراجهم من البصرة استحوذ عليها ذلك اللعين عجم محمد ودار عليها من خلفها ومن بين يديها وسرقها لنفسه واحتوى على غالبها وأبان للوزير عبد الله باشا حسابات ودفاتر مسدّدة بأنه صرفها فيها ، ومن غفلة الوزير عبد الله باشا صدّقه وائتمنه ، لأن هذا الوزير كان أبلهَ ومغفلا وألكنَ ، ولكن سبحان من أعطاه الوزارة ، ومنه يعلم أن الارزاق ليست بالعقول والمعارف بل بالجدود والحظوظ ، ولو لم يكن دليل على غفلة الوزير إلا أنه لما أرسل السلطان عبد الحميد جيشاً لمحاربة العجم وإخراجهم من البصرة ، ووصل الجيش الى بغداد فقام عجم محمد وفرّق الجيش وأرسل الى الدولة مكتوباً على لسان الوزير عبد الله باشا بأن العجم خرجوا من البصرة فلا حاجة الى العساكر ولا الى المصاريف ، ومهر ذلك المكتوب بمهر الوالى وهو لا يدرى ولا يفقه ، وأظهر للوزير نصحاً مع أنه كان لوزيره وولى

نعمته غادرا ، وللدولة والاسلام خائنا ، وهو مباطن للعجم ، والمراسلة والهدايا جارية بينهم سراً ، وكل هذا والوزير غارق في الخمور ومفوض زمام الامور لعجم محمد ، وحين فوض لعجم محمد تفريق العساكر ضجر والي كركوك (١) حسن باشا ـ وكان مأموراً بقتال العجم ومعه عسكر جرّار من الدولة لحرب العجم واخراجهم من البصرة ـ فأرسل حسن باشا الى نواحي بلاد العجم فرقة من العسكر فهجمت عليهم وغنمت ورجعت ومعها أموال وغنائم وخيل وأسارى من العجم . ثم ان حسن باشا أيضا أرسل سرية ثانية ، ولكنها انهزمت تجاه عسكر العجم ، فأرسل حسن باشا يطلب المدد من عبد الله باشا فما أمدّه ، لما أوقعه بينهما من العداوة عجم محمد . ولما رأى حسن باشا من عبد الله باشا عدم المساعدة كفّ عن مناوشة العجم ومقاتلتهم ، لأنه مأمور من الدولة بعدم الخروج عن رأي الوزير عبد الله باشا . ولما أبطأ خبر فتح البصرة على السلطان قال : ان عبد الله باشا إما جُبن وإما خان ، ولام على من مدحه عنده حتى ولاه الوزارة ـ وهو أحد رجال الدولة المسمى بسليم باشا ـ فدبر سليم حيلة وتخلص

---

(١) كركوك مدينة تبعد عن الموصل ١٦٠ كيلو مترا في جنوبها الشرقي ، وهي قائمة على (وادي أدهم) وكانت في زمن الدولة العثمانية قاعدة لمقاطعة (شهر زور) وفيها قبرا (دانيال) و (العزير) وكانت تسمى في التاريخ القديم (كركورة)

بها من انتقام السلطان منه بأن قال للسلطان : لو ترسلنى الى بغداد بصفة كونى مساعداً لعبد الله باشا فعلىّ الضمان أن لا أرجع الا بمفاتيح البصرة أو يحول الموت بينى وبينها . فأرسله السلطان الى بغداد ، فلما سمع الناس بقدومه فرحوا برجوع البصرة وإخراج العجم منها . فلما وصل سليم باشا الى بغداد ما كان من عجم محمد إلا أنه التفّ عليه التفاف السير بالقبقاب ، ونفث عليه بسحره وكهانته ، وأرسل له من الغلمان والنساء والخمور ما خامر به عقله ، وبين له أوجه جمع الصفراء والبيضاء ، فاتفق معهم على اللذات والشهوات وجمع الذهب والفضة ، وتركوا أمر السلطان نسياً منسيا

فلما سبر عجم محمد من سليم باشا غوره وعرف سوء نيته وخبث طويته وحبّه للذات والشهوات وجمع الدنيا ـ وكان قبـــلا عرف حقيقة الوزير عبد الله باشا وما هو عليه من البلاهة والغفلة ـ طمحت نفسه لوزارة بغداد (لأن الوزارة كانت فى ذلك الزمن هى : لمن تميل معه أكثر الأهالى ، ويكون غنياً ذا مال ، وظالما غشوما ، و ه يعرض ، فى شأنه أكثر الأهالى الى الدولة [1] فترسل الدولة فرماناً بذلك طبق مراد الاهالى) ، فشرع عجم محمد يفتل فى حبل هذه المسألة المهمة ،

---

(١) أى يكتبون الى الدولة (عريضة) بطلبه مذيلة بألوف الاختام والأسماء ، وقليل منها لمنافقين مشهورين ، والأكثر لمجاهيل وقد لا يكون لهم وجود

ويدبر لاتمام هذه المدلهمة ، كل هذا والوزير عبد الله باشا وسليم باشا لم يشعرا بمراده ، وهو ساحرهما بسبك عباراته وإغداقه عليهما مما ينهبه من العالم من الأموال ، وما قوّى عزم عجم محمد على هـــذا الأمر الخطير إلا مواعيد كريم خان الزندى صاحب العجم له بأن يساعده حتى يبلغ هذه الامنية ، الى أن غرّه وتخلى عنه كما سيجيئك بيانه

ثم ان كريم خـان الزندى سلطان العجم المقيم بشيراز طمع فى الاستيلاء على بغداد - كما استولى على البصرة - فجهز جيشا لفتح بغداد ، وحينئذ تنبه سليم باشا الذى جاء من طرف الدولة وعلم سوء طوية عجم محمد وأن هذه الفتن والمفاسد جميعها منه ، ولـكن بعد ما بلغ السيل الزُبىٰ لا ينفع الدواء

وكان كتخدا بغداد رجلا نبيهاً نبيلا يسمى اسماعيل بك ، ولـكن ليس بيده من الأمر شىء ، بل كان عاميه وعامى جميع الامراء (١) ، فتحرّك كتخدا بغداد اسماعيـل بك وجهز عسكراً لمصادمة عسكر كريم خان . ثم اتفق جميع أعيان بغداد وعقدوا مجلساً واتفق رأيهم فيه على أن يطلبوا من كريم خان الصلح ، وعينوا لهذه السفارة الامير محمد بن عبد الله بن شاوى الحميرى لدهائه وعقله وفصاحته . فتوجه الى شيراز للمكالمة مـــع سلطانها كريم خان ، فلما وصل الى شيراز

---

(١) هذه الفقرة غير مفهومة ، ولعل المراد منها أن عجم محمد جعل اسماعيل بك أعمى كما جعل جميع أمراء الحكم فى بغداد يومئذ كالعميان

فاوض كريم خان فى الصلح وعدم سفك الدماء بين المسلمين ، وترجاه فى فك أسارى البصرة . فأولا قال له : ان أسارى البصرة وسليمان بك لا يمكن فكهم ولو نزلت السماء على الأرض ، ولكن من جملة الأسارى أمراء من الأكراد فنحن نطلقهم لأجل خاطرك لأنك عزيز القدر عندنا ، وأما تسيير العساكر الى بغداد من طرف شيراز فقد أرسلنا فِرَقاً لتأديب بعض قبائل الأعراب التى فى حكم الدولة العلية المحاددين لنـــا ، فانهم لإهمال الدولة أطراف ممالكها صاروا يتعدّون علينا وعلى ممالكنا بالنهب والسلب والخطف ، فاذا طلبناهم يكرّون راجعين وفارّين ويحتمون فى داخل ممالك الدولة العلية ، فما قصدنا الا تأديبهم فقط ، فلما سمع منه هذا الخطاب أيقن بعدم النجاح فى سفارته هذه ورجع الى بغداد . فلما وصل قرب بغداد بيومين بلغه وفاة عبد الله باشا الوزير فحزن لأجله حزناً شديداً لأنه كان صديقه وله أيادٍ على محمد بن شاوى هذا . ثم انه دخل بغداد والفتنة مشتعلة بين عجم محمد وحسن باشا والى كركوك ، وسليم باشا معاضد لعجم محمد ، والبلدة مفروقة فرقتين : فرقة تريد أن عجم محمد يكون هو وزير بغداد ، وفرقة تريد أن حسن باشا والى كركوك يكون هو الوالى ، فتحارب الفريقان وعظم الضرب والطعان وانشقت العصا بين المسلمين . فلما رأى الأمير محمد بن عبد الله بن شاوى الفتنة مضطرمة التزم الحيادة ولم يدخل مع أحد الفريقين ، وأبقى رسالة سلطان العجم الى عبد الله باشا مكتومة ولم يبينها لأحد ما . وكان مع ابن شاوى

رسول من طرف كريم خان يسمى حيدر خان - وهو كذلك لم يدخل مع إحدى الفئتين - ثم أن أكثر المتحاربين لما رأوا عدم تدخل ابن شاوى فى هذه المفاسد وأنه نزّه عرضه ودينه عن التدخل مع احدى الفئتين ارتضوه أن يكون هو الحكم بينهما ، فاختار أن يرسلوا كتخدا بغداد اسماعيل بك الى حسن باشا والى كركوك لأجل أن يسكن الفتنة الى أن يجئ أمر الدولة وتنفصل هذه المشكلة . فالكل رضى بذلك إلا عجم محمد لأن طبعه الخلاف وزرع الفساد ونشر الفتن كما قيل :

لا يُحكم الصيّاد أشباكه إلا إذا عكر بطنَ الغدير

فذهب اسماعيل بك الى حسن باشا والى كركوك فأكرمه وقبل رأيه ورأى ابن شاوى ، ولكون عجم محمد لم يوافقه هذا الرأى دامت منه الحرب داخل بغداد وخارجها وجرت فتن تشيب الأطفال

ولما عظم الأمر ، والبلدة محاصرة من طرف عجم محمد ، والفقراء هلكوا من طول الفتن واستمرار الحروب ، راسل محمدُ بن عبد الله بن شاوى الوزير حسن باشا وطلب منه أن يرحل الى بغداد بعسكره لتسكين الفتنة ودرء الفساد . فلما وصلت ورقة محمد بن شاوى الى حسن باشا قبلها واستحسن هذا الرأى وعزم على التوجه الى بغداد . ولكن لأجل الفتنة التى كانت بين قبائل الأكراد تأخر حتى يصلح بينهم ، فلما تأخر الجواب عن ابن شاوى من طرف حسن باشا

ـ والشرُّ يزداد يوما فيوما ، والقتل والنهب واللصوص والهجوم على الدور ليلاً ونهاراً مستمر ـ قامت فئة عرب نجد المعبر عنها بعُقَيل ودخلوا بين الفئتين المتحاربتين وحجزوا بينهما على الهدنة وقالوا : ان الفرقة المخالفة فنحن عليها . فحينئذ سكنت الفتنة بين الفئتين مقدار شهر الى أن ورد أمر وفرمان من الدولة بتولية حسن باشا وزارة بغداد ، فاستتر عجم محمد وأفل نجمه وانكسرت شوكته وداخله الرعبُ والذلّ والهوان ، وجاء الزمن الذى يمكن أن ينتقم منه كل انسان ، وأراد الهروب ولم يمكنه

ولما تبين لمحمد بن شاوى أن السلطان أمر بمحاسبة عجم محمد أرسل اليه ناساً وحجزه خوفاً من الهرب ، فتكفله أهل الميدان الى أن يدخل الوزير الجديد بغداد فيسلمونه له ، ووضعوه فى القلعة التى بجهتهم وحرسوه . وكان الأمير ابن شاوى وكيلا عن حسن باشا اذ ذاك ، فأكد على أهل الميدان بالتحفظ على عجم محمد الى أن يحضر الوزير ، وأهل الميدان مضمرون الغدر لأن أكثر كبرائهم غرسُ نعمة عجم محمد . فبعد أيام وصل حسن باشا والى بغداد فانهزم عجم محمد خفية ولحق بأحمد بن محمد خليل شيخ قبيلة اللاوند العاصى القاطع للطرق من مدة مديدة ، فتعاهدا على الافساد وقطع الطرق وهتك الحرمات وصار فى كل يوم تسمع لهم غارة على جهة ، كان شيطانا واحدا فصارا شيطانين ، الى أن عجزت الحكومة عن ردعهما ، وكان أكثر نهبهما وسلبهما فى الجهة الشرقية من بغداد . فلما ضاق الخناق من حسن باشا

أرسل محمد بن شاوى الى أحمد باشا رئيس الأكراد على أن يؤدب قبيلة اللاوند [١] ، فحينئذ انخزل بعض اللاونديين عن عجم محمـد وأرسلوا الى الوالى حسن باشا وطلبوا منه الأمان والعفو ، فأمنهم وصفح عنهم وأكرمهم وطلبهم الى بغداد وصير رئيسهم خالد باشا ، وكل هذا ولم تنفك عزيمة العصاة عن الفساد الى أن حاصروا بغداد ونهبوا ضواحيها ، فحينئذ أرسل الوالى محمد بن شاوى الحميرى الى قبيلة آل عبيد الحميريين يستصرخهم فى محاربة عجم محمد وابن خليل ، فلما وصلهم مرسول الوالى لبّوا دعوته وقصدوا محاربة العصاة ، فلما قاربوا بغداد وسمع بهم الوالى أخرج من طرفه كتخداه عثمان بك ومعه عسكر لأجل أن يساعد آل عبيد فى الحرب . فلما خرج من بغداد بلغ الخبر ابن خليل فأخذ عسكره وفصل بين الكتخدا وبين آل عبيد وهم لا يشعرون ، وانعطف على الكتخدا وعسكره ـ وكانوا قليلا ـ فانتشبت بينهم الحرب ، وانهزم الكتخدا ومن معه ودخلوا بغداد مهزومين ، وقيل إن عسكر الكتخدا خانوه ومالوا مع عجم محمد ، والكل جائز

ثم إن الوزير حسن باشا لما عرف أن آل عبيد لا يفرجون عنه أرسل إلى أحمد باشا الكردى يستنجده ، وأيضاً تباطأ [هذا] عنه ، فأرسل رسلاً إلى أخيه محمود باشا أن يمده بعسكره ، فوصل محمود

---

(١) قبيلة كردية فى جنوب الموصل

باشا إلى بغداد ومعه عسكر الأكراد ، فقوى عضد الوزير فجهز الوزير جيشاً مؤلفاً من محمود باشا وعسكره ومن الكتخدا عثمان بك وعسكره ومن عرب نجد المعبر [عنهم] بعُقيل ومن آل عبيد ورئيسهم الامير محمد بن شاوى الحميرى . فلما خرج الجميع من بغداد تلاقوا مع شرذمة نحو الألف من عساكر العصاة فهزموهم ، وولى العصاةُ الفرار . فلما بلغ عجم محمد وابن خليل ما جرى لعسكرهما ارتحلا بمن معهما الى البَنْدَنيج (١) وداخلهما الرعب والخوف ، فقفاهم عسكر والى بغداد والتقوا مرة ثانية بالبندنيج ، وأيضاً انهزم العصاة وفرّوا ، وقد أسر عسكر الوزير من العصاة نحو المائتين ، وهكذا على الباغى تدور الدوائر

وأما سليم باشا فانه لبس ثوب الخزى والعار ، ورجع على قصد التوجه إلى اسلامبول ، فلما بلغ السلطانَ خيانته وما انطوى عليه وأن حركته إلى بغداد ما زادت إلا خراباً وفساداً ، أرسل فرماناً إلى والى ديار بكر أن يستصفى ماله ويحبسه فى قلعة إلى الممات . وقد كان ،

---

(١) تسمى الآن (مندلى) ، وكانت تسمى فى التاريخ الاسلامى (البندنيجين) تعريباً لاسمها القديم (وند نيكان) ، وهى فى طرف (النهروان) من ناحية الجبل من أعمال بغداد . وانظر عن حالها الآن مجلة (لغة العرب) ٧ : ٦٢٠ - ٦٢٦ و ٨ : ٤٠ - ٤١ ، وقد خرج منها خلق من أهل الفضل : محدثون وشعراء وفقهاء وكتاب

فسلبه ، وحبسه ، وكذلك السلطان أخذ داره التي في اسلامبول بما فيها وأعطاها لشيخ الاسلام . ثم بعد أيام جاء الخبر من السلطان بقطع رأس سليم باشا فقطعوا رأسه ، وهذا جزاء من يخون سيده وولىّ نعمته

ولنرجع إلى أخبار الوزير عمر باشا ، فانه أقام والياً في بغداد ثلاث عشرة سنة ، ثم قتل في حدود ١١٩٠

وممن توفي في سنة ١١٩٠ العالم العلامة السيد صبغة الله بن إبراهيم الحيدري الحسيني . فممن أخذ عنه العلومَ العلامة زين الدين الهكاري ، والعلامة محمد بن شروين ، والفاضل أحمد المجلي ، والجهبذي المنلاشيخ الكردي الاشنوني ثم المدني ، والعلامة الشيخ عبد الملك العصامي في الحديث النبوي ، وهو أخذ عنه أيضاً بحق سماع عبد الملك من والده عن العلامة ابن حجر المكي

وفي سنة وفاته (١١٩٠) تولى الوزارة عبد الله باشا وجلس في ولاية بغداد سنتين لا غير ، ثم توفي سنة ١١٩٧

وبعده انتقلت الوزارة الى حسن باشا فملك سبعة عشر شهراً ، ثم أخرجه أهل بغداد منها قهراً ، وذلك أنه بعدما هزم الخوارجَ العصاة بعساكره المجمعة كما تقدّم لك ـ وكان ابن خليل وعجم محمد

متحصنين فى جبال اللورستان(١) وهى من ممالك أحد سلاطين العجم المسمى بزكى خان الذى آلت إليه سلطنة شيراز العجم بعد كريم خان الزندى فى سنة ١١٩٣ . وكان كريم خان أرسل قبل موته أخاه صادق خان إلى البصرة والياً عليها ، فلما نُعى إلى صادق خان أخوه [كريم خان] كاد أن يخرس من الحزن والغم ، خصوصاً لما بلغه أن العجم سلطنوا عليهم زكى خان ، فعزم صادق خان على الهروب إلى ما شاء الله من الخوف من زكى خان ومن والى بغداد ، فخرج من البصرة بمن معه من العساكر متوجها الى شيراز ، فلما بلغ خروجُ صادق خان من البصرة إلى والى بغداد وجّه متسلماً على البصرة نعمان بك ، فسار إليها وملكها وحكمها لعدم وجود من يعارضه ، لأن عسكر العجم أخلوها من لدُن أنفسهم . ورمّ أسوارها وأصاب أهلها من الفرح ما عدّوه من أعظم الفتوح

ولما مات كريم خان وتولى زكى خان أطلق أسرى البصرة وسليمان بك متسلمها الأول . ولما فكه أنعم عليه بولاية البصرة ،

---

(١) وكان أسلافنا يكتبونها بلا واو (لرستان) بضم اللام ، وتقع بين خوزستان وأصفهان ، وأهلها من الكرد السنيين ، وهى على تخوم بلاد الكرد شمالا ، وعاصمتها (بروجرد) . و (لورستان) هذه المتاخمة لبلاد الكرد غير (لارستان) التى يسكنها سنيون أيضاً على ساحل الخليج الفارسى ، والساحليون من أهلها أكثرهم عرب

فخرج سليمان بك من شيراز ، ولما وصل إلى الحويزة كاتب أهلَ البصرة بأنه هو والى البصرة من قديم ، وأنه هو الذى قاسى الشدائد فيها وفى حصارها ، وانه لم يعزله أحد . على أن العجمى الذى كان مالكها هو أيضا ولاه عليها . فلم يقبل منه نعمان بك ولا ثامر هذا الكلام ، فبقى فى الحويزة منتظراً الفرج ، فلم يلبث إلا أياماً قلائل حتى جاءه الفرج ، وذلك أن ثامراً غزا عرب الخزاعل فأصابه سهم ومات به . وكان سليمان بك بعد ما منعه ثامر ونعمان بك من دخول البصرة كاتب والىَ بغداد واستعطفه فى أن يردّه على البصرة فلم يسعفه ، فكتب الى الدولة العلية وهو فى الحويزة يسترحم منها ردّ البصرة اليه لما قاساه من الشدائد فى حصارها ، وما قاساه من الضرب بالسياط والكىّ بالنار وهو مأسور فى شيراز عند كريم خان . ولما لسليمان بك فى البصرة من المآثر والمشاهد والعدل والانصاف أجابه ثوينى ابن عبد الله إلى ما طلبه من دخوله إلى البصرة والياً عليها وإن خالف رأى والى بغداد ، وراسله بالقدوم عليه وهو يساعده على مطلبه ، فبينما هو شارع فى السفر إلى البصرة إلا وقد جاءه الفرمان من السلطان بولاية البصرة وأنه أحقّ بها دون غيره . فبعد ما استقرّ فيها وأراح العباد ببثّ الأمنية فيهم راسل الدولةَ العلية وطلب ولاية بغداد وأنه يؤمنها ويقطع دابر الفساد منها . وصادف ذلك أن أهل بغداد نقموا على وزيرهم حسن باشا لضعفه عن مقاومة عجم محمد وابن خليل . وذلك أن عجم محمد وابن خليل لما رجعا من اللورستان

قرباً من بغداد وأخافا السبيل وقطعا الطرق وشنا الغارة على بغداد مساء وصباحاً ، فلما ضاق أهل بغداد ذرعاً أخرجوا الوالى حسن باشا قهراً من بغداد ، فخرج من بغداد ليلا ونزل بالجانب الغربى وبقى أياماً ، وبعده سافر قاصداً ديار بكر بن وائل (١) ، فلما وصلها وأمن على نفسه من القتل أتاه داعى المنون فرض ومات هناك . ومن حين خرج من بغداد بقيت الولاية شاغرة ، فاتفق أهل بغداد على أن يجعلوا اسماعيل بك قائمَ مقام الوالى إلى أن يحضر أمر الدولة العلية ، فما يشعرون بعد أيام قلائل إلا وقد ورد الفرمان من الدولة بأن وزارة بغداد لسليمان باشا متسلم البصرة ، ولا يعلمون بالمكاتبات التى كانت تدور بين سليمان باشا وبين السلطان ، ووافق توجه إيالة بغداد

---

(١) هى المقاطعة التى كانت عاصمتها تسمى (آمد) ، وهى واقعة فى شمال الجزيرة التى يحتضنها النهران دجلة والفرات . ويجاورها (ديار ربيعة) وهى بين الموصل إلى رأس العين . وفى السهل من شرقى الفرات (ديار مضر) . قال ياقوت : وربما جمع بين (ديار بكر) و(ديار ربيعة) وسميت كلها (ديار ربيعة) لأنهم كلهم ربيعة . قال : وهذا الاسم لهذه البلاد قديم كانت العرب تحله قبل الاسلام فى بواديه . وقال شمس الدين سامى بك فى (قاموس الاعلام) ص ٢٢٠٢ إن العرب توطنوا هذه البقاع قبل الاسلام وأقاموا فيها حكومات صغيرة . قلت : وديار بكر الآن إحدى الولايات التركية وأطفالها لا يلقنون إلا اللغة الرسمية للحكومة

والبصرة وشهر زور[١] لسليمان باشا فى ١٥ شوال سنة ١١٩٤ ، وورد أمر آخر لسليمان باشا ابن أمين باشا الموصلى أن يحافظ أمور بغداد ويؤمن طرقها إلى أن يأتيها وزيرها سليمان باشا والى البصرة . فتوجه سليمان باشا والى البصرة الى بغداد ومعه ثوينى بن عبد الله بعشائره وجملة من عسكر الزبير أهل نجد ، فلما وصل الى (العرجاء) من أرض المنتفق لاقاه اسماعيل بك الكتخدا ومعه عسكر أيضاً يشد عضدهم ، فما كان من الوالى إلا أن أمر بقطع رأسه وقيد من كان معه لأمور ينقمها عليه قديماً ، وولى على البصرة متسلماً رجلا اسمه سليمان افندى وأرسل معه مهر داره أحمد الزكى ثم ارتحل . ولما وصل إلى (كربلاء) التمس منه ثوينى الرجوع فاذن له . ولما وصل الوزير إلى (الحلة) لقيه الامير سليمان بن عبد الله بن شاوى الحميرى لما بينهما من المودة القديمة ، فأكرمه الوالى وأجله . ولما وصل إلى (المسعودى) استقبله قائم مقامه والى الموصل المار ذكره والعلماء وأعيان بغداد ، وعزل نعمان افندى عن الكتخدائية ونصب عبد الله افندى وكيلا فيها وأذن لوالى الموصل برجوعه الى بلده . ولما نزل (ديالة) ورد عليه من حاكم (بابان) أكبر أبنائه الأمير عثمان بك ومعه خمسمائة خيال من

---

(١) إحدى مقاطعات ولاية الموصل ، وتقع فى شرق دجلة . وكان هذا الاسم يطلق على المقاطعة وعلى مدينة هى قاعدتها . ثم خربت المدينة فبقى الاسم علماً على المقاطعة ، واتخذت مدينة (كركوك) قاعدة لها

الأكراد الموصوفين بالشجاعة والهجوم لمساعدة الوالى ، فحينئذ عزم الوالى على محاربة عجم محمد وابن خليل قبل دخوله بغداد ، فقصدهما الوالى بعسكره الجرار وانتشبت الحرب بينهم ، فما كان إلا ساعة وقطع رأس ابن خليل وحمل رأسه الى الوزير وانهزم عسكر العصاة وتفرقوا شذر مذر ولم تقم لهم راية بعدها وبقى عجم محمد مخذولا مطروداً وحيداً منفرداً لا ناصر له ، وشرع الوزير فى الصلات والعوائد لمن بانت شجاعته من المحاربين فى ذلك اليوم . وأقام الوزير فى ذلك المحل شهراً يأمر وينهى ويدبر فى سياسة لارهاب المفسدين

وبعده دخل بغداد ، فحصل هناء كبير وسرور لأهل بغداد ولما جاورها من القرى — بعدما ذاقوا النكال والوبال من السرّاق واللصوص وقطاع الطريق — وذلك فى رمضان سنة ١١٩٤ . وبعدما استقر فى بغداد أظهر بعض الأعراب العصيان والخروج على الوالى ، وهو حمد بن حمود أمير خزاعة ، فحذّره الوالى عاقبة الطغيان وهدده فلم يرجع عن غيه وطغيانه ، ولما لم ينفع فيه التحذير خرج اليه الوزير وحاربه فى أعزّ الأماكن لديه وهزمه وفلّ جموعه وعزله وولى على تلك القبيلة محسن بن محمد بدله ، فلما نزل الوالى بعسكره غربيّ الفرات مقابلا للديوانية خافت منه قبائل خزاعة بأجمعهم فكسروا الجسور حتى يغرق بلادهم الماء لأنهم يعيشون فى الأهوار ويجعلونها معقلا لهم (والاهوار هى الغدُر التى تتكون من ماء الفرات) وحينئذ لا يمكن

لعسكر الوالى الوصول اليهم إلا بعسر . فلما بلغ الوالىَ مكيدتهم أمر بالاقامة على تلك الجسور وهمّ بسدّها كما كانت وشغل فيها كلٌ من يمضى عليه أمره ، فسدّها فى أقرب مدة بسد كأنه سد اسكندر ذى القرنين وقوة تبهر العقول ، فحينئذ تيقن عرب خزاعة أن المياه التى هى حصونهم لا بد أنها تنشف عن قريب ويغير عليهم الوالى بخيله ويهلكهم عن آخرهم ، فما كان منهم إلا أن أذعنوا للطاعة وأرسلوا حريمهم يترجون لهم عند الباشا (وكان هذا عند أهل العراق من علامات الذلّ والخضوع والطاعة) فعفا عنهم الوزير سليمان باشا ورقّ قلبه عليهم ، وكانت شيمته العفو عن المجرم إذا اعترف بذنبه . ولما عفا الوالى عن قبيلة خزاعة وعن شيخهم حمد بن حمود استوفى منه الخراج المنكسر عليه وردّه شيخاً على قبيلته كما كان وألبسه خلعة وخرج من عند الوالى معزّزاً مكرّماً . وهذه الغزوة كانت سنة ١١٩٥

وبعدما دخلت سنة ١١٩٦ بدا من متصرف (بابان) محمود باشا بعض مخالفة للوزير ، فبدا للوزير محاربته وتأديبه . فبينما هو مصمم على النهود للحرب إذ ورد عليه من ديار بكر كتخدا حسن باشا والى بغداد سابقاً - وهو عثمان بك - وافداً يشتكى من ضعف الحال وهو من ذوى البيوت القديمة ، فأعطاه قصبة البندنيج [١] يستغلها وأكرمه ليضعف به همة متصرّف بابان لأنه كان عضده ، فلما أقام بالبندنيج

---

(١) القصبة : البلدة . وتقدم الكلام على البندنيج فى هامش ص ٢٦

مدةً استقلها وأعرض للوزير بأنها لاتنى بمصاريفه ، فولاه متسلمية كركوك ، فمــذ دخلها لا زال عثمان بك متصرف (سنجاغ) [١] يراسله ويوسوس له فى العصيان على الوالى ، فتحسن لديه العصيان والخروج عن طاعة الوزير وكفران نعمة المنعم ، فتحالف مع عثمان بك المذكور على الغدر والافساد . فلما سمع بذلك محمود باشا متصرف (بابان) انضم اليهما وكان عنده عيد من الأعياد . وحين علم الوزير سليمان باشا تجمعهم وعصيانهم وما أضمروا عليه خرج عليهم بعسكر جرار وقصد معاقلهم وهى بلاد الأكراد ، فلما وصل (كركوك) كاتب بعض أمراء الأكراد غير العصاة على أن يوليهم بدلهم ، فوفد عليه كل طماع فى الرياسة . وأول من ورد عليه حسن بك ابن خالد ابن سليمان شيخ بعض قبائل الأكراد فرحب به الوزير وأكرمه وعزل عمه محمود باشا عن متصرفية (بابان) ونصب حسن بك بدله ، فلما سمع عمــه محمود باشا بذلك استشاط غضباً وانشقت العصا بين قبيلته . ونصب أيضا محمود بك ابن تمر بك على (كَوْى) و (حَرِيرا [٢]) فخضع متصرف بابان للوزير وأرسل له جملة من العلماء

---

(١) لعله (كوى سنجق) من مقاطعات (كركوك) و (شهر زور)

(٢) هذان الموضعان سيتكرر ذكرهما بهذا الرسم ، وفى مقاطعـــة (راوندوز) من أعمال (كركوك) ناحية اسمها (ديرة حرير) ولا ندرى إن كان لها علاقة بهذا الاسم أم لا

والسادة يتشفعون له عند الوزير فى ردّ منصبه إليه ، بل أرسل نساءه وأطفاله أيضا للرجاء والشفاعة (كما هى عادة عشائر العراقيين) فقبل منه الوزير ذلك بشروط : منها دفع الخراج المنكسر عليه ، وأن يرسل بعض ولده وحريمه إلى بغداد رهينة عند الوالى بأن لا يعود للفساد ولا يؤوى المفسدين ، وأن يبعد الكتخدا عثمان بك عن دياره وممالكه . فقبل الشروط أجمع ، وعزم على أن لا يعود إلى المخالفة . فلما تحقق الوزير طاعته أعاده إلى متصرفية بابان ، إلا كوى وحريرا . والذى كان سفيراً بين الوزير وبين محمود باشا هو الامير سليمان بن عبد الله بن شاوى الحميرى ، فوفى محمود باشا بما التزم ، وبعث سليمانَ ابنه مع بعض نسائه إلى بغداد رهناً ، وأبعد عثمان بك عن ممالكه ، فأرسل الوالى اليه خلعة الحكم . وبعدما رجع الوزير بعسكره إلى بغداد نقض محمود باشا العهود ولم يفِ بما التزم به ، وجهز جيشاً لمحاربة كوى وحريرا ، وحاصر ابن تمر أميرها ، فلما بلغ الوزيرَ هذا الخبر أرسل مدداً لوالى كوى وحريرا خالد بك ومصطفى بك بعسكرهما ، فلما وصل كركوك خاف محمود باشا ورجع عن كوى وحريرا ، وأرسل واستشفع إلى الوزير مرة ثانية وطلب منه العفو وتاب ، فقبل الوزير خضوعه بشرط أن يعطى اللواءين لابراهيم بن أحمد باشا ، لا لابنهِ عثمان بك ، فامتثل محمود باشا خوفا من الوزير ، وأقبل ابن تمر الى بغداد

وفى سنة ١١٩٧ عاد متصرف بابان محمود باشا إلى ما جُبل عليه من العصيان والعسف والظلم والفجور ، وأخـــذ فى قطع الطرق والهجوم على قرى الدولة وإلزامهم بالمغارم الباهظة ، وما جرّأه على ذلك إلا شدة حلم الوزير كما قيل :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضرٌ كوضع السيف فى موضع الندى

وبعدما بلغ الوزيرَ غدره هذه المرة عزم على غزوه وأن لا يقبل فيه شفاعة أبداً ، وأرسل الى والى كوى وحريرا ابراهيم بك أن يستعد للمساعدة ، وسافر الوزير بجيشه ، ولما وصل كركوك طلب أمير كوى وحريرا فقدم اليه بأتباعه وعشائره ، فألبسه خلعة بابان ، فتفرق عن محمود باشا أكثر عساكره وانضموا الى المتصرف الجديد ، ولم يبق عند محمود باشا إلا شرذمة قليلة لا تجديه شيئا ، وكان محمود باشا متحصناً بجبال الدربند ، فقصده الوزير بجنوده ، فلما سمع بقرب الوزير من معاقله وعلم أنه لا طاقة له بمقابلة عسكر الوزير فرّ هاربًا إلى ممالك العجم هو وعياله وأتباعـه ، وانضم اليـه عثمان بك ضيفه القـــديم ، فرجع الوزير وابراهيم باشا إلى بابان وبقى عثمان باشا فى بابان ، ووصل الوزير إلى بغداد مقرّ ملكه ومنبع عزه

وفى سنة ١١٩٨ قتل محمود باشا . وسببه أنه صارت بينـه وبين العجم محاربة ، وذلك لأن طبعه الشرّ والفساد حيثما حل ، فقتل فى

تلك الواقعة ، وفرّ عثمان بك من بلاد العجم ودخل بغداد والتجأ إلى الوزير وقبّل يده وطلب منه العفو والسماح ، فعفا عنه وأعطاه بعض قرى خارج بغداد يستغلها ويتعيش منها

وفي تلك السنة ارتكب محسن الخزاعي العصيان ، فلما بلغ الوزيرَ عصيانه وأنه بنى قلعة وتحصن فيها قصده الوزير بعساكره وهدم عليه قلعته بالأطواب (١) وشتت جموعه وعزل محسناً وولى بدله حمداً بن حمود إمارة خزاعة وأضاف إليه إمارة الشامية علاوة، ورجع الوزير الى بغداد

ودخلت سنة ١١٩٩ ، وفيها ارتكب حمد بن حمود العصيان وكفر نعمة الوزير وإلباسه بالأمس خلعتين في يوم واحد ، وما أغراه على ذلك إلا حلم الوزير وكرمه ، وما غرّه إلا أهواره داخل المياه ظناً منه أنها تحميه وتحفظ قومه من عساكر الدولة ، فهجم عسكر الوزير على قبائل خزاعة داخل الأهوار والمياه وشتتوهم ، وهرب حمد بن حمود الى الحسكة

ثم إن عجم محمد - العاصي القديم المتقدم الذكر - لما بلغه عصيان حمد بن حمود التحق به ليساعده على المفاسد والتخريب

ودخلت سنة ١٢٠٠ وفيها سعى بعض المنافقين الحساد — وهو

---

(١) قذائف المدافع

أحمد بك المهردار — بين الوزير وبين سليمان بك ابن عبد الله بن شاوى الحميرى حتى مــلأوا قلب الوزير منه نخاف من الوزير وفرّ هارباً خارجاً عن الطاعة . ويا عجباً لهذا الأمير الأصيل بعد أن مضى عمره فى الاصلاح وفى السفارات بين الملوك لوفور عقله وشدة ذكائه وفطنته وفصاحته وحسن نيتــه وطويته وشهرة صدقه وأمانته أصبح من المفسدين قطاع الطريق المنضمين الى عجم محمد وأمثاله [١] . فلما تحقق انضمامه إلى المفسدين أرسل الوزير إليه عسكراً يقوده أحمد بك المهردار [٢] وابراهيم باشا ومعهم عسكر الأكراد ، فلما علم بقرب العسكر منه انتقل الى تكريت فلم يطق الاطمئنان ففرّ الى الخــابور وترك أمواله وأثقاله غنيمة للعسكر ورجع العسكر الى بغداد

---

(١) المؤلف معترف بأن سعاية نفاق وحسد وقعت من أحمد بك المهر دار لافساد قلب الوزير على هذا العربى الحصيف . وكان ينبغى للوزير أن يحفظ بأمثال ابن شاوى وأن لا يخسر صداقتهم ، والشيطان اذا تمكن من الميل بالناس عن طريق الصواب ذهب بهم أبعد المذاهب . والمؤلف من دأبه فى هذا الكتاب أن يكون رفيقاً بالوزير سليمان باشا لأنه ألف كتابه لتلميذه وصنيعته الوزير داود باشا . ومثل ابن شاوى لا ينضم إلى من هو دونه ، ولكن عجم محمد هو الذى يسارع الى كل ناحية يشم منها ريح الشيطان

(٢) وهو الرجل الدساس الذى أفسد قلب الوزير سليمان باشا على ابن شاوى وأوجد هذه الفتنة بعد أن لم تكن . بل الواقع أن ابن شاوى اكتفى بالانسحاب فاستمدوا هم للبغى عليه

وفى ذلك العام منّ الله على المهردار بأن ولاه الوزير كتخدائية بغداد لما فيه من الكياسة والدهاء

وفى ذلك العام وقع قحط شديد على بغداد وما حولها ، فصار الفقراء يصرخون عند سراية الوالى ويبكون ويتضرعون ويستغيثون من الجوع ، فرحمهم الوالى وأخرج جميع ما عنده من الشعير الذى كان معداً لخيله وفرقه على الفقراء ورضى بتلف خيله وبهائمه ولا النوع الانسانى ، فلم يجدِ ذلك ، وتمادى الغلاء ، ولم يرسل الله مطراً فى ذلك العام على جميع البوادى حتى هلك أكثر العربان جوعاً ، وبعضهم هاجر إلى أن أوغل فى بلاد الروم لطلب الكلأ ، وأكل الدماء والجيف والكلاب والهرر ، فقام بعض السفهاء من الغوغاء وتجمع عليه خلق كثير من أضرابه وأخذوا عَلم الشيخ عبد القادر وصاحوا فى بغداد : « أخرجوا هذا الوالى ، فانه بسبب ظلمه وإهماله للرعية وعدم الأمنية فى الطرقات رفع الله القَطر عن البلاد » فانضم إليهم أهل القهاوى والأراذل وأكثر العوام وأثاروا فتنة شديدة فى البلدة سفكت فيها الدماء ، فأرسل الوزير عسكراً لصدمهم وكفهم ، فانهزموا وتفرقوا ، وحبس من رؤسائهم أشخاصاً وصلب بعضهم وغرّب البعض فانطفأت الفتنة

ودخلت سنة ١٢٠١ ، وفيها رجع سليمان بن شاوى الى الخابور ، وانضم اليه كل مفسد ومغرور ، وصاروا يغيرون ويغزون حول

بغداد ، ويلتجئون الى الغابات . فلما بلغ الوزير ذلك أرسل اليهم عسكراً يقوده محمود بك ابن تمر بك وخالد أغا كتخدا البوابين ، فالتقوا مع عرب ابن شاوى ، وكان رئيسهم أحمد بن سليمان بن شاوى ، فنشب العسكران فى القتال ، فما كان إلا برهة حتى انهزم عسكر الوزير وأسر محمود بك وخالد أغا وأرسلا الى رئيس الجيش سليمان بن شاوى ، فأما محمود بك فأعطاه سلبه وأذن له بالانصراف ، وأما خالد أغا فاستصحبه فى الحديد معه . وقد طمع ابن شاوى فى محاصرة بغداد ، فكرَّ عليها بكله وكليله ، وهجم على شريعة الكاظم وغنم أموالا وخيلا إلى أن وصل إلى الحلاج ، فقامت عرب نجد المعروفون بعُقيل وصدّوه عن بغداد وحفظوا الجانب الغربي منها ، فشكرهم الوزير على ذلك وكافأ أكابرهم على غيرتهم وهمتهم . ولما انكسر ابن شاوى من عسكر عقيل رجع متقهقراً مخذولا لا يعرف له مأوىً ، ونصحه إخوانه على أنه يطلب الأمان والعفو من الوزير لأنه أهل للعفو ، فلم تساعده نفسه الأمارة على الذل والخضوع لولى نعمته (١) . فأما إخوته فانهم فارقوه والتجأوا إلى الوزير وتشفعوا اليه وتذللوا وخضعوا لديه فقبلهم الوزير وعفا

---

(١) لا يعرف التاريخ فى سيرة ابن شاوى نعمة كان وزير بغداد وليها ، بل ابن شاوى هو الذى كان يخرج الدولة ورجالها من المآزق بشهامته ونبله ، والله هو ولى النعمة لعباده جميعا

عنهم وأذن لهم بالاقامة فى بغداد . وأما سليمان بن شاوى فانه فرّ إلى الدجيل ثم منه إلى الشاميـة من العراق ثم نزل الأبيرة وشرع فى الافساد والغارات وقطع السبل ، فلما بلغ الوزيرَ أحواله أرسل خلفه الكتخدا بجيش عرمرم وقصده ، فلما علـم أنه لا طاقة له بجيش الكتخدا نهد فاراً إلى شيخ المنتفق ثوينى بن عبد الله وأغراه على الفساد وعلى خلع هذا الوزير ، فانخدع ثوينى من كلامه ووافقه على الضلال والباطل وسفك دماء المسلمين الذى لا سبب له إلا البطر والأشر ، وأرسلوا إلى حمد بن حمود شيخ خزاعة يساعدهم على مشروعهم ، فوافقهم ، ووفد عليهم ، فاجتمع الكل وغزوا البصرة وملكوها بدون طعن ولا ضرب ، فان متسلمها إبراهيم بك فتيقن أنه لا طاقة له بهذه الجموع فسلمها لهم فملكوها واستولوا على خارجها وداخلها وأراضيها ومزارعها وجبوا الأموال وأخذوا غرامات من التجار وأهل الأموال وأضرّوا بكل من يشتم منه رائحة الغنى ، وأسروا متسلمها ابراهيم بك ونهبوا جميع ما تحت يده وحبسوه مدة ثم نفوه إلى مسقط . وكان [1] — قبل استيلاء ثوينى عليه — أقام للفسوق سوقاً بالبصرة ، خصوصاً ترقيص الأولاد والفواحش من كل نوع علناً ، إلى أن اقتدى به جميع أعيان البلد وصاروا يتفاخرون بذلك ، فكأن الله عاقبه على سوء فعله . فلما بلغ الوزيرَ ما فعله ثوينى

---

(١) أى المتسلم التركى ابراهيم بك

وابن شاوى وقطعهم خراج الدولة ، بل تحقق عند الوزير أنهم كتبوا إلى الدولة محضراً مضمونه أنه لا يصلح لولاية العراق عموماً ولوزارة بغداد وتأمين الطرق إلا ثوينى بن عبد الله ، فانه هو الأسد الذى يحميها من كلاب العجم (١) . فحينئذ استعد الوزير لمحاربتهم وقطع دابرهم ، فأرسل إلى متصرف بابان من بلاد الأكراد وكوى وحريرا ابراهيم باشا ومتصرف باجلان (٢) عبد الفتاح بك ، فأقبلا عليه بعساكر من فرسان الأكراد وشجعانها بمايهد الجبال (وذلك أن الدولة العلية ورجالها من عاداتهم أنهم لا يغضبون ولا تأخذهم الحمية الجنسية إلا إذا علموا أنه ستتشكل دولة عربية ، فحينئذ يجتهدون باخماد شرارتها من أول الأمر ، لما يعلمونه من عاقبة أمرها (٣)) . إلا أنه

---

(١) معنى هذا أن ثورة ابن شاوى وثوينى واستيلاءهما على البصرة لم يكن فساداً وبطراً وأشراً كما كان يصفه المؤلف ، وإنما كان البطر والأشر من الوزير سليمان باشا الذى كان ألعوبة فى يد الكتخدا عندما حمله على مقابلة إحسان آل شاوى بالاساءة ، وكانت حالة الحكام الاتراك كما ذكره المؤلف عن متسلم البصرة . ومع ذلك فان الثورة لم تكن على الدولة نفسها ، بل على ممثليها وعمالها فى هذه الديار

(٢) لعلها مقاطعة (بازيان) من أعمال لواء (السليمانية)

(٣) هذه الفقرة وكل ما هو بين القوسين من قلم مختصر (مطالع السعود) العلامة الشيخ أمين بن حسن الحلوانى المدنى الذى كان مدرساً بالروضة النبوية الشريفة أيام سلطنة السلطان عبد الحميد

لما أبطأ عن مدده عزلها عندما وردا ، ونصب مكان ابراهيم باشا عثمان باشا ابن محمود باشا ومكان عبد الفتاح بك عبد القادر بك ، فأتياه بجيش فيه ألفا دارع ما عدا الحاسر . فلما تمت للوزير كامل العساكر والآلات الحربية توجه أولا على قبيلة خزاعة وسقاها كأس الردى وطحنها وفرق شملها بسبب أن أكثرهم وشيخهم مع العصاة . وكان الوزير قبل خروجه من بغداد راسل حمود بن ثامر بن سعدون ، فوفد على الوزير مخالفاً لعمه ثويني ومنابذاً له . ثم إن الوزير قصد المنتفق ، فلما وصل الى (أم عباس) خيم فيها وأقام ثلاثة أيام ، وذلك فى غرّة المحرّم سنة ١٢٠٢ ، وقد ظهر عسكر المنتفق صفوفاً خيالة ومعهم الأطواب ، وانشبك الحرب بين الفريقين ، فما مضت إلا ساعات وانكسر عسكر ثويني وولوا الأدبار ولزمت خيالة الأكراد ظهورهم ، ونادى منادى الوزير : ان كل من أتى برأس فله كذا . . . فتساقطت عليه الرءوس كالمطر ، إلى أن بنى من رءوس عرب المنتفق ثلاث منارات ، وأذّن عليها طائر النصر بحى على خير العمل ، وولى على المنتفق حمود بن ثامر وعلى البصرة مصطفى أغا الكردى خازنداره ، وبعد ذلك رجع إلى بغداد دار الخلافة ، وجعل عسكر اللاوند [1] فى البصرة لحمايتها ورأس عليهم اسماعيل بك . وكان خروج الوزير من بغداد فى الثانى عشر من جمادى الاولى سنة ١٢٠١

---

(١) أى الأكراد

ورجوعه اليها فى ربيع الأول سنة ١٢٠٢

ثم دخلت سنة ١٢٠٣ وفيهـــا طلب سليمان بن شاوى العفو والمسامحة من الوزير فعفا عنه وردّ عليه أملاكه وشرط عليه أن لا يدخل بغداد ولا يسعى بعدها فى الفساد ولا يختلط بالمفسدين

وفى ذلك العام عصى متسلم البصرة مصطفى أغا الكردى ومنع الخراج وراسل عثمان باشا الكردى متصرف بابان وأغراه ووسوس له فى أنه يساعده على هذا الأمر المهم وأن كلاً منهما يكون سلطاناً مستقلا فى جهته ، ووافق المتسلمَ أيضاً عسكرُ اللاوند المقيمون فى البصرة لكونهم أكراداً من جنسه ، وراسل المتسلمُ ثوينى بن عبد الله وضمه اليه ، وكتب محضراً للوزير بأن حموداً (١) لا يليق بالامارة ، وأنه لا يليق لها إلا ثوينى ، ففهم الوزير باطن مراد المتسلم ووافقه على مراده وعزل حموداً وولى ثوينى بدله وأرسل له خلعة الامارة ، وهذا كله تغافل من الوزير يستدرج به المتسلم إلى أن يأخـــذه بلا حرب . هذا ومصطفى أغا الكردى مجتهد فى تتميم مراده ويراسل عثمان باشا ويجدد معه العهود ، وراسل أيضاً كبير اللاوند المقيم فى زنكباد وضمه إليه ، وكل هذا ومصطفى أغا الكردى يظن أن الوزير لا يعلم بدسائسه . ثم إن الوزير أرسل محمد بن شاوى ظاهـــراً إلى

---

(١) هو حمود بن ثامر الذى ولاه الوزير إمارة المنتفق بدلا من عمه ثوينى

متسلم البصرة ينصحه ويحذّره عاقبة العصيان ، وأرسل باطناً مكاتيب معه إلى رئيس المراكب الحربية للدولة العلية المقيمة بالبصرة - وهو مصطفى أغا ابن حجازى - وأمره فيه بأن يتحايل على مصطفى أغا الكردى ويقتله ، فكأن الكردى استشعر بهذا المكتوب وتحذر من ناظر البحرية وأضمر قتل ناظر البحرية مصطفى أغا ابن حجازى . فيوماً ركب المتسلم للتنزّه على حافة الشط وتقرب من المراكب بخيله ونزل هناك ونصب خيامه ، فاشتاقت نفس مصطفى أغا ابن حجازى على أنه ينزل من المراكب ليزور المتسلم ، فلما وصل إليه قطع المتسلمُ رأسه فى الحال وركب خيله ورجع ، فكأن ناظر البحرية جاء يصيد فاصطيد . فلما بلغ الوزيرَ أفعالُ المتسلم وقتله لناظر البحرية عزم على غزوه جهاراً

ثم إن الأمير سليمان بن شاوى أرسل رسولاً إلى الوزير يقول له : قبل أن ترسل العسكر إلى البصرة أريد أن ترسل إلىّ رجلا أميناً من طرفك لأخبره عن الكلام شفاهاً . فأرسل الوالى له سليمان أغا معتمد الكتخدا . فلما وصل إلى ابن شاوى أخبره أن عثمان باشا متعاهد هو والمتسلم ، وأراه كتاب عثمان باشا اليه يطلبه فيه أن يرجع إلى ما كان عليه من الفساد ويَعِدُه ويمنيه ، ومقصده أن عثمان باشا نيته يطلب وزارة بغداد بالسيف ، فلربما لو خرج الوزير بنفسه من بغداد يعقبه فيها عثمان باشا ثم يكون إخراجه منها عسراً جـــداً .

فرجع الرسول بكتاب عثمان باشا إلى الوزير ، فمذ علم ما فيه أخر السفر وقال : إن الأناة خير من العجلة . فدخل الوزير على عثمان باشا من باب الاحتيال ووجده أنفع من القتال ، وأبدى لعثمان باشا كمال المودّة ولاطفه وهاداه وأرسل اليه كتخداه عبد الله بك وقال له : أريد أن أستشيرك فى أمر مهم ، ولكن أريده مشافهة . فاغترّ من كلام الوزير . فلما وصل إلى بغداد بالغ الوزير فى إكرامه وإنزاله والإحسان اليه ، وتكلم معه فى أنه يزوّجه أخت الكتخدا ، فقبل ذلك وأمره بالرجوع إلى وطنه وأن يعود فى فصل الربيع للدخول على مخطوبته ، فرجع إلى وطنه فرحاً مسروراً ، وما يدرى أن كل هذه المداهنة لأسباب خفية . فلما أقبل الربيع قدم عثمان باشا بعشيرته وبنى عمه وأكراده وفاء بالوعد ، فلما وصل إلى بغداد انحلت عرى كل من عاهد المتسلم ، فأما الوزير فجمع عساكره واستصحب معه عثمان باشا وقصد البصرة لمحاربة مصطفى آغا الكردى ، فلما وصل إلى العرجاء فرّ ثوينى وعشائره إلى البادية والصحراء ، وأما المتسلم مصطفى أغا الكردى فانه فرّ إلى الكويت . فلما بلغ الوزيرَ فرارُ أعدائه أسرع فى السير الى البصرة ونزل خارجها ثم جعل عليها متسلماً الأمير عيسى الماردينى ، ونصب شيخاً فى باديتها حمود بن ثامر ، ثم رجع الى بغداد فى رمضان ومذ دخلها عزل عثمان باشا عن إمارة بابان وأقام مقامه ابراهيم باشا وفى كوى وحريرا محمود باشا . ولما قيد عثمان فى الخزانة

أراه كتاب خيانته إلى ابن شاوى فعراه من الخجل ما أدنى أجله[١].
ولما زاد مرضه أخرج الى دار محمد سعيد الدفتردار فمات ، ومشى فى جنازته الأكابر حتى الكتخدا أحمد بك . وقيل انه هو الذى سمّه

وفى هذه السنة ورد خبر وفاة السلطان عبد الحميـــد الأول ابن السلطان أحمد خان [الثالث] العثمانى[٢] ، وهو من السلاطين الذين قام بهم قسطاس العدل والدين ، إلا أنه لغلظ حجابه ـ كعادة أسلافه ـ صار أكثر رجاله خونة ، بل صارت الخيانة والكذب على الملوك عادة لهم يفتخر بها رجال دولته فى مجالسهم الخاصة

---

(١) سيأتى أن وفاته كانت بالسم

(٢) ولد سنة ١١٣٧ . وتولى السلطنة عقب وفاة أخيه مصطفى الثالث سنة ١١٨٧ . والسلطان مصطفى هو السلطان السادس والعشرون من سلاطين آل عثمان ، وعبد الحميد الاول هو السابع والعشرون . وكانت الدولة العثمانية فى حالة حرب خاسرة مع الروس فى آخر سلطنة مصطفى وبداية سلطنة عبد الحميد الأول وانتهت باضطرار الدولة الى التوقيع على معاهده قاينارجة التى تقدمت الاشارة اليها فى ص ٩ . ومما يلفت النظر فى هذه الفقرة من الكتاب قوله : وفى هذه السنة ورد خبر وفاة السلطان ، وهى تشعر بوهن الصلة أو انقطاعها بين العراق والقسطنطينية ، وقد كانت الصلة بين الدولة وممالكها فى زمن الراشدين والامويين ومن بعدهم تطوى فيها شواسع الزمان والمكان فتصل الاخبار عن الحوادث فى أوقاتها

وفى أيامه أخذت (القرم) من يد الدولة [١] ، وكان فيها من النفوس تسعة ملايين

وفى زمانه وما قبله تسلطنت شوكة الدره بيكات[٢] يعنى العائلات القديمة فى ممالك العثمانلى مثل باشاوات الأكراد والموصل وبغداد وعكة والشام والوهابى بنجد وأشراف اليمن وأشراف مكة وشيوخ المنتفق والغُزّ فى مصر [٣] وبكوات القرم ، فاختلت داخلية الدولة العلية وصاروا دائمـاً مشتغلين بالحروب الداخلية مع رعاياهم ، ولم يمكنهم أن ينتفعوا من هذه الدره بيكات التى فى ممالكها لا بمال ولا برجال ، بل وياليتهم لم يشقّوا عصا الاسلام ، فاختلت الدولة وانحطت بعد أن كانت منذ مائتى سنة هى أول دولة قوية على وجه

---

(١) واعتبرت بلاداً مستقلة عن العثمانيين والروس معاً . إلا أن روسيا واصلت السعى حتى أقامت أحد أنصارها ـ المدعو شاهين كراى ـ أميراً على القرم ، ثم أخذت تمده بجنود من جيشها ، إلى أن انتهى الامر باستيلائها على هذه المقاطعة .

(٢) أى أمراء الأقطاع أمثال أبى الذهب فى مصر ، وأحمد الجزار فى بعض الديار الشامية ، ومن هذا القبيل الوضع الادارى فى العراق والمقاطعات الكردية على ما يراه القارئ فى هذا الكتاب

(٣) الغز : جنس من الترك كما فى الصحاح والقاموس المحيط والتاج . ولعل الكلمة معربة عن (أوغوز) ، وهو من شخصيات الأساطير فى تاريخ الترك مثل جمشيد الايرانى وهركل اليونانى

الكرة الأرضية وتخشى بأسها جميع الدول الافرنجية . وأنت تعلم أن الدولة وضخامتها ماهى إلا بكثرة عسكرها ، والعسكر لا يكونون إلا بالمال ، وقد فقد المال وتعطلت أسباب منابعه فى سائر ممالك الدولة العلية لعدم الامنية العمومية ، فنسأل الله أن يلهم هذه الدولة العثمانية الرشد ، وأن يوفقها للصواب ولما فيه صلاح العموم ، وأن يقيّض لها سلطاناً يبطل لها العادات القديمة ويمحو جميع الدره بيكات من بلاد الاسلام لتتوحد كلمة الملة . (وانظر الآن فى زماننا لما شرعت الدولة فى محو بعض الدره بيكات كيف صلح ملكها وانتفعت من ممالكها بالمال والرجال وتجددت لها قوتها — نوعاً ما — بالنسبة لحالة محوها واندراسها فى القرن الثانى عشر وفى أوائل الثالث عشر (١))

ثم لما انتقل السلطان عبد الحميد [الأول] إلى جوار الكريم تولى بعده السلطان سليم خان [الثالث (٢)] ، وكان من حسن السيرة

---

(١) الفقرات التى بين قوسين من كلام مختصر الكتاب الشيخ أمين ابن حسن الحلوانى المدنى ، وقد كتبها فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى

(٢) هو ابن السلطان مصطفى الثالث ، ولد سنة ١١٧٥ ، وتولى عقب وفاة عمه عبد الحميد الاول ، وفى زمنه احتل بونابرت مصر ، واتسعت الحركة السلفية فى نجد ، وقد حاول سليم الثالث اصلاح الجيش إلا أن ذلك لم يتيسر له وتنحى عن العرش سنة ١٢٢٢ وقتل سنة ١٢٢٣ وتولى بعده سنة ١٢٢٢ مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الاول ومات بعد ١٤ شهراً وهو فى الحادية والثلاثين من عمره فتولى السلطنة أخوه محمود الثانى سنة ١٢٢٣

ومحبة العلم والعلماء على جانب عظيم ، إلا أن أيامه كانت كلها كدورات بالحروب الداخلية وبفتن عسكر الينيشرية ، فانه فى زمانه أخذ الفرنسيس مصر القاهرة ، وظل السلطان يعالجهم بالحروب مُمَدّاً هو ودولة الانكليز تساعده لا حباً فيه ولا رغبة فى الاسلام ولكن لخوفها على بلاد الهند ، وأن الفرنسيس لو تم له ملك مصر لكان يأخذ الهند من يد الانكليز قطعاً إلى أن أخرجوه منها لهذه العلة ، أو ليسمّنوا الكبش ثم يأكلونه فى يوم ما . وقد ثارت على السلطان سليم حروب الوهابى من نجد إلى الحرمين إلى اليمن ، ومات ولم يصفُ تلك الممالك إلى أن صفّاها مجدّد القرن الثالث عشر فحل بنى عثمان بلا منازع السلطان محمود [الثانى] ابن عبد الحميد [الأول] كما سيجيئك بيانه مفصلا

ودخلت سنة ١٢٠٤ ، وخرج الوزير سليمان باشا أبو سعيد إلى البندنيج للتنزّه والصيد ظاهراً ، وأما باطنا فمقصده أن يرهب الأعراب والأكراد ويطلعهم على قوّته وعَدده وعُدده

وفى تلك الأيام ورد عليه كتاب من عبد الرحمن باشا أخى عثمان باشا متصرف بابان يطلب فيه العفو والسماح من الوزير إياه (١) ، ودعاه الى بغداد وولاه متصرفية بابان وكوى وحريرا بدل أخيه عثمان باشا ، فسافر من بغداد وقبل وصوله إلى محل إمارته أرسل

(١) كذا بالاصل ، ولعله سقط كلمة أو كلمات بين كلمتى «الوزير» و«اياه»

أخاه سليماً من قبله ، فلما سمع ابراهيم باشا بذلك أرسل أخاه عبد العزيز ليصدّ سليما عن دخوله إلى بابان إلى أن يوصل أهله المأمن حذراً عليهم من سليم (ليت شعرى ما الذى كان يصنعه سليم مع أهل ابراهيم باشا ، ولكن العادات القديمة فى تستر الحريم كانت إفراطا) وما أحسن فى هذا الرأى ، فان عبد العزيز وسليماً التقيا على غير ميعاد ، ووقعت بينهما مقاتلة أفضت إلى أن عبد العزيز جرح وأسر ، فهرب ابراهيم باشا بأهله إلى بلاد العجم وأرسل أخوه مكبلا بالحديد إلى بغداد

وفى سنة ١٢٠٥ أطلق عبد العزيز بك أخو إبراهيم باشا الكردى من أسره عندما أرسل ابراهيم باشا يطلب لنفسه الأمان من الوزير ، فقبل الوزير أعذاره وأرسل له مكتوب الأمان صحبة الأمير محمد بن شاوى إلى بلاد العجم ورده معه الى بغداد ، ودخل على الوزير فقابله وأكرمه بالضياع والقرى وبقى آمناً فى ظل وزير بغداد

وفى هذه السنة كذلك طلب العفو والسماح ثوينى بن عبد الله وطاح فى رحاب الوزير فقبله وأمنه بأن يسكن حيث شاء

وهذه السنة حقها أن تسمى (سنة العفو)

ومن الاتفاقيات أن الوزير لما عفا عن سليمان بن شاوى وأمنه ورد عليه أملاكه على أن يسكن خارج بغداد . وقد كان كما مرّ ذكره . إلا أنه فى هذه السنة وفد على سليمان بن شاوى من بلاد العجم (عجم

محمد) العاصى القديم والتجأ إلى جوار سليمان بن شاوى ، فطلب الوزيرُ من سليمان بن شاوى أن يرسله اليه فى السلاسل والأغلال ، فامتنع سليمان بن شاوى من ذلك وقال : إن تسليم الضيف للهلاك أكبرُ عار عند العرب ، بل لو فعلها ابن شاوى لكانت العرب يعدّونه من قبيلة هتيم وصليب (١) هو وذريته إلى أبد الآبدين . فلما علم الوزير أن ابن شاوى أبى أن يسلم ضيفه أمره أن يبعده عنه . وما فعل

---

(١) الصليب أو الصلبة من (القبائل المتحيرة) كما سماها صديقنا العالم المحقق الاستاذ عباس العزاوى فى كتابه (عشائر العراق) ١ : ٣١١ ، ويرى أن أصلهم بدو قضت عليهم الحروب فى أبعد الأزمان فانقرضوا وبقوا متفرقين ، فهم بقاياهم المنتشرة . ونرى العرب يعدون من أظلم الظلم الاعتداء عليهم . ولا يتصور أن يغدروا بتاته ضل الطريق . والعرب لا تعترف بسمو نسبهم ، لكنهم أنفسهم يعتقدون أنهم (صبّة ، صليبة) أى من العريقين فى النسب ، ولكنهم نسى أصلهم أو أخفوه لأمر سياسى أو حربى لحقهم وكتموا نسبهم حتى عن أولادهم فبقى مجهولا . وما قاله بعض الكتاب من أنهم من الصليبيين فهذا من أبعد الأمور وأغربها . . . فلا علاقة لهم بالصليبيين ولا باليونان أو الرومان . أما ديانتهم فلا يسع المرء إنكار أنهم مسلمون . وإن التقولات عن أصلهم عبارة عن إذاعات من النصارى (وانظر لأحوالهم وبيان عشائرهم كتاب « عشائر العراق » للاستاذ العزاوى و « قلب جزيرة العرب » للاستاذ فؤاد حمزة)

و (هتيم) التى ضرب ابن شاوى المثل بها هى من عشائر الصلبة

أيضاً . فعزم الوزير على غزو ابن شاوى ونقض عهده فأرسل له عسكراً ورئيسهم الكتخذا أحمد بك ليأتى به مقتولاً لا مقيداً . فلما سمع بقرب عسكر الوزير منه ركب متن الفرار هو وعجم محمد وتركا أموالهما وأثقالهما ونجوا ، فغنم الكتخدا جميع أموالهم

ولما عصى تيمور الملى على الدولة العلية وأخذ يفسد ويقطع الطرق فى ممالكها أرسلت اليه عسكراً وعليهم باشا من اسلامبول فلم يجدوا معه شيئاً وعجزوا عن مسكه وتأديبه ، فحينئذ أمر السلطان سليمان باشا وزير بغداد بمحاربة تيمور الملى وإرجاعه إلى الطاعة ، فغزاه الوالى بعسكر جرّار وشتت شمله ونهبه وسلب عشائره ، وفرّ تيمور إلى الفيافى والقفار

ثم دخلت سنة ١٢٠٦ ، وفيها أرسل الوزير عسكراً مع لطف الله أفندى ليقطع دابر الأكراد الملية ، فوصل إلى جبالهم وحاربهم ونهبهم وأتى بجملة رءوس إلى الوزير ، ثم ألبس الوزيرُ إبراهيم باشا أخا تيمور الملى وولاه مكانه ، وتوجه الوزير الى (ماردين) فصلب من أتباع تيمور رجلين أحدهما يسمى حسن أغا والثانى حسين أغا . وقتل من اليزيديين جملة ، ثم رجع إلى بغداد فى ٢٧ من ربيع الأول ، وكان خروجه فى شوال من السنة التى قبلها

قال فى القاموس « الكَرْد : العُنق ، وطرد العدوّ . وبالضم : جيل معروف ، جمعه أكراد ، وجدُّهم كرد بن عمرو مزيقيا بن عامر

ابن ماء السماء ، انتهى . فدل ما فى القاموس صريحاً على أن الكرد من عرب قحطان

ثم دخلت سنة ٢٠٧ ، ولما لم يجد (عجم محمد) ملجأ ولا عفواً من الوزير توجه إلى مصر القاهرة ومات فيها غريبا فريداً طريدا

وأما سليمان بن عبد الله بن شاوى رفيقه فانه بقى فى الخابور [1] على تلك المشاكسة والمعاكسة ، فأرسل اليه الوزير عسكراً ورئيسهم أحمد بك الكتخدا ، فلما سمع بقرب عسكر الكتخدا فرّ الى البادية . وأما الوزير فانه طلع إلى (الفلوجة) ونصب خيامه هناك لأجل التنزه والاصطياد فى الظاهر ، وأما فى الباطن فلإرهاب الأعداء

ثم دخلت سنة ١٢٠٨ . [وفيها] عصى أمير خزاعة محسن بن محمد فأرسل اليه الوزير عسكراً ورئيسهم الكتخدا أحمد بك ، فلما قرب من ديار خزاعة جنحوا الى الطاعة وطلب أميرهم العفو من الباشا فقبله بشرط أن يؤدوا جميع الخراج المنكسر والحالّ وأن يعطوا

---

(١) الخابور نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ، ويطلق هذا الاسم على ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت اليه من بلاد قرقيسياء وماكسين والمجدل وعرَبان . وقد ذكرته أخت الوليد بن طريف الشيبانى الشارى (الخارج فى خلافة هارون) وهى ترثيه يوم قتله الأمير يزيد بن مزيد الشيبانى عشية أول خميس فى رمضان سنة ١٧٩ :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً　　كأنك لم تجزع على ابن طريف

رهائن من كبارهم بعدم الاعوجاج فيما بعد ، ورجع الكتخدا الى بغداد ، ولكن بعد ما رجع الكتخدا نقض محسن بن محمد العهد ، فلما بلغ الوزيرَ مماكسته ومشاكسته ونقضه للعهود عزله عن مشيخة خزاعة ونصب بدله حمد بن حمود

ثم دخلت سنة ١٢٠٩ . وفيها قُتل سليمان بن شاوى الحميرى ، قتله محمد بن يوسف الحربى من عشيرته ، وهو جدير بالرثاء على ما كان من سيرته ، لأنه كان من أفراد الدهر عقلاً وحلماً وكرماً وشجاعة وقد رثاه المؤرخ الشيخ عثمان بن سند بمرثية بليغة متضمنة أكثر من قتل أو خلع من الأمراء والملوك على نسق قصيدة ابن عبدون الاندلسى فى رثاء بنى الأفطس [١] . وتلك شرحها ابن بدرون الاندلسى [٢] وهذه حقها أن تشرح ، فلا شك أنها تكون أبلغَ وأبدعَ وأشملَ من شرح قصيدة ابن بدرون ، وعسى الله أن يوفقنى لشرحها ، لأن وقائعها وأسماء رجالها إلى زمان المؤلف . وأما قصيدة

---

(١) ابتدأ الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون اليابرى الفهرى المتوفى سنة ٥٢٩ قصيدته العظمى (البسامة) من زمن دارا الفارسى وأنهاها إلى زمن المقتدر بالله العباسى (سنة ٣٢٣) . ومطلعها :

الدهرُ يفجع بعد العين بالأثرِ ... فما البكاء على الأشباح والصورِ

(٢) هو الوزير أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله بن بدرون من أدباء شلب بالاندلس وكان موجوداً فى صدر القرن السابع الهجرى

ابن عبدون فقاصرة الى سنة ٤٢٠ (١)

ثم دخلت سنة ١٢١٠، وفيها عصى شيخ خزاعة حمد بن حمود، فأرسل الوزيرُ اليه عسكراً ورئيسهم الكتخدا أحمد بك

وفيها قتل على بك الخازندار أحمد بك الكتخدا، وهذا باشارة من الوزير، ولذلك زوج الوزيرُ علياً الخازندار المذكور على ابنة أحمد بك المقتول، ثم ولى الخازندار الكتخدائية (٢)

ودخلت سنة ١٢١١، [وفيها] نصب [الوزيرُ] شيخا على المنتفق ثوينى بن عبد الله وعزل حموداً

وتوفى شاه العجم محمد خان ونصب مكانه فتح على خان

ودخلت سنة ١٢١٢، وفيها غزا الكتخدا على بك حمد بن

---

(١) تقدم أن (البسامة) للوزير ابن عبدون تناولت تاريخ العبر فى سقوط الممالك ومصارع الملوك الى زمن المقتدر بالله سنة ٣٢٣. أما عام ٤٢٠ هذا الرقم الذى ذكره الشيخ أمين الحلوانى المدنى فلعله أراد به تاريخ بنى الافطس الذين أسس دولتهم جدهم أبو محمد عبد الله بن مسلمة فى أوائل القرن الخامس وانتهت بثالثهم المتوكل أبى حفص بن المظفر أبى بكر بن عبد الله بن مسلمة فى سنة ٤٨٣

(٢) الكتخدا هو (المعتمد) الذى يوجهه الرئيس أو الوزير مهام شئونه. وقد يطلق على هذا المنصب عنوان (كهيا) أو (كيخيا). وتختلف سلطته وواجباته باختلاف العصور والاقطار والمهام التى تناط به

حمود شيخ خزاعة ، فمذ أناخ بساحته انهزم المؤمأ اليه ، فأحضر على بك الكتخدا محسناً آل قائم ونصبه شيخ الشامية ، وسبتى بن محسن شيخ الجزيرة وألزمهما الخراج ، ورجع الى بغداد

وفيها عزل الوزيرُ عبدَ الرحمن باشا عن إمارة بابان ونصب مكانه ابراهيم بك ابن عمه إلا كوى وحريرا فما زالتا تحت حكم عبد الرحمن ، وبقى بعد عزله فى دار السلام معاملا من الوزير بالانعام والاكرام

وفيها غزا على بك الكتخدا آل سعيد من زُبَيد (١) لعصيانهم . وفى غزوه ذلك وصل الى (الجواز) من ديار ربيعة فولى عليهم شيخاً يأمر وينهى تبعاً للوزير ، ورجع من آل سعيد بغنائم جمة ، ثم رجع الى بغداد

وفى تلك السنة قتل مُطعَينس (٢) الشقىُّ ثوينياً ابن عبد الله فمات غريباً شهيدا . وذلك أن ثوينى حشد بجموعه وعرب المنتفق وقصد محاربة الوهابيين فى نجد بعد ما استأذن الوزير فى ذلك ، فان الوهابيين لما ملكوا الاحساء وانتزعوها من شيخ بنى خالد اشرأبّوا الى غيرها من البلدان ليملكوها ويظهروا بدعتهم فيها (٣) ويذبحوا أمراءها

(١) هم من قضاعة ، ينتمون الى عشائر كلب
(٢) هو عبد أسود من عبيد آل سعود فى نجد
(٣) مثل هذا التعبير لم يكن منه بد فى البلاد العثمانية زمن تأليف الكتاب

وعلماءها كما فعلوا فى الحسا على أنهم مشركون فى زعمهم ، ثار اليهم ثوينى بجنوده وانقاد له أكثر العرب الذين أعطوا الطاعة لابن سعود لأنهم ضجروا لكثرة ما يكلفهم به من المشاق ويجبرهم على محاربات المسلمين ، فما زال ثوينى يسير فى تلك الفيافى إلى أن نزل ماء يسمى (الشباك) ، وأول ما نزل به نصبت له خيمة صغيرة هناك ، فجاءه طعيس والناس فى أشغال النزول وطعنه بحربة كان بها انتهاء أجله ، ففزع الناس وقتلوا طعيساً ، ولكن هل يسدّ الكلب فى الاسد ، فحمل ودفن فى (جزيرة العمائر) ، وعند ذلك سقط فى أيدى الجيوش التى معه وانفلوا راجعين ، فتبعهم جيش ابن سعود وما زالوا معه فى مكابدة الشدائد حتى نزلوا ماء يسمى (سفوان) فأمل إخوان ثوينى أن يلموا الجيش مرة ثانية ويعودوا لغزو الوهابيين كما كان فى نية ثوينى ، إلا أن الباشا صرف نظرهم من هذا الفكر وولى شيخاً على المنتفق حمود بن ثامر

وأما ترجمة ثوينى المذكور فهو : ثوينى بن عبد الله بن محمد بن مانع القرشى الهاشمى العلوى الشبيبى . تولى مشيخة المنتفق كما تولاها أبوه وجده ، وكان أحد أجواد العرب المشهورين ، وكان له فى حكومته الأولى أيام تعدّ غرراً فى وجه الدهر ، منها (يوم دُبَيْ) الموضع القريب من البصرة ، كرُبَيْ ، وذلك أن كعباً غزوا أخاه صقراً بجيش عرمرم فصدمهم وكسرهم تجاهه ، وكان هو الآمر الناهى فى ذلك اليوم إلى أن ملأ الفضاء بجثث القتلى من قبائل كعب الروافض

ومن ذلك اليوم وهم فى ذلّ تحت المنتفق إلى الآن

ومن أيام ثوينى الشاهدة له بالشجاعة والإقدام (يوم ضَجْضَعة) ويحرّفه العوام ويقولون «جضعة» . وسببه أن عبد المحسن بن سرداح لما اشتاقت نفسه لغزو بنى خالد شيوخ الحسا فرّ إلى ثوينى ليتجده ويساعده على مرامه ، فساعده ثوينى بالرمح والسيف والمال والجسم والجاه ، وشيخ بنى خالد إذ ذاك سعدون بن عَرْعَر أحد من يذكر بمحاسن الشيم ، فلما تحقق ذلك من ثوينى أمر شجعانه أن يشنوا الغارات على عرب ثوينى بعدما ألقى إليهم الانذارات ، فثار بين القبيلين الشر ، وتواعدوا المقاطعة والمقاتلة ، فلما ذهب الصيف وجاء الشتاء حشد كل منهما بعسكره فالتقيا فى أرض بنى خالد ، فبقيا أياماً والفرسانُ فى جلاد وطعان من الصباح إلى الليل ، إلى أن امتطى الخيانة بعض قبائل سعدون فهرب هو وأتباعه وتولى بيوته ثوينى ، فأما سعدون بن عرعر [فانه] لما رأى أموره فى إدبار وجيوشه ستئول للبوار فانه فر ولحق بعبد العزيز بن سعود وعاهده على نصره فصار يوم وروده عند ابن سعود يعدُّ عيداً من الأعياد ، وأيقن ابن سعود أنه سيملك الأحساء بهذا السبب . ولما رجع ثوينى إلى داره ومقرّ حكومته أجمع عشائر بنى خالد على أن يؤمروا فيهم داحسَ بن عرعر لأنه هو أكبر إخوته

ومن أيام ثوينى المشهورة (يوم التَّنُّومة) القرية المعلومة

بالقصيم ، وذلك أنه لما انتصر على بنى خالد تطاولت نفسه إلى أن يغزو العارض ، وأمّ القصيم ، ولكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكان أول ما وصل إليه من أرض القصيم (التنومة) فحاصرها بعسكره وفتحها عنوة وأهلك أكثر أهلها ، ثم لما كاد أن يطيعه جميع قبائل نجد بل وقراها ومدنها ودخلهم الرعب والخوف منه رجع إلى البصرة بلا سبب ، وحاصرها وفتحها وملكها ، وكان ماكان من الأمور المشئومة العاقبة كما مرّ ذكره (١)

واعلم أن أتباع ابن سعود لما قتل طعيس العبدُ الاسود ثوينياً مدحوه وحمدوه بقتل ثوينى لكونهم يعتقدون كفر ثوينى بل وكفر جميع من على وجه الأرض من المسلمين الذين لم يعتقدوا معتقدهم (٢) وأكثروا من الأشعار فى مدح تلك الواقعة وجعلوها من الفتوحات الاسلامية المعدودة عندهم

---

(١) فى ص ٤١ - ٤٣

(٢) هم لم يدعوا العلم بما يعتقده كل واحد من المسلمين على وجه الأرض حتى يحكموا على معتقده بالصحة أو الفساد ، وفى كتبهم المعاصرة لهذه الحوادث تحديد للعقائد الاسلامية كما وردت فى النصوص ، ويرون أن الايمان بها هو الايمان السليم ، وأن مخالفة النصوص القطعية فيما هو من صلب الدين وجوهره وأصوله يعد كفراً بتلك النصوص ، ولم يأتوا بشئ من عند أنفسهم

وبعـــده - كما ذكرنا - أفضت إمارة المنتفق لحمود بن ثامر بن سعدون بن محمد بن مانع الشبيبي - ابن أخي ثويني لأمه ، لكون ثامر أخا ثويني من أمه ، وهو ابن عم له كما هو معلوم . وحمود هذا من فرسان العرب المعدودين ، ومن أهل الذكاء والدهاء ، وله وقائع وأيام مشهودة أقر له فيها أخصامه ، وله أحوال لم تكن فى سواه . فمنها أنه غاية فى الأناة ، وربما أنه أقام فى كتب المكتوب الموجز أياماً بل شهوراً (١) . ومن أناته الخارقة للعادة أن من شكا إليـــه ظلامة من أحد عماله أقام شهوراً ينتظر قضاءها ولربما أكل من طعامه تلك المدة أكثر مما يطلبه أضعافاً مضاعفة . ومن نوادره ما ابتلاه الله به من الوسواس إلى أن يقيم فى قضاء حاجته ووضوئه سبع ساعات أو أقل- بقليل حتى أدى به ذلك إلى تأخير الصلاة عن أوقاتها ، بل ربما صلى صلوات الماضى فى اليوم الذى بعده . ومن مثالبه أنه لا يرضى إلا برأيه . ومنها أن كاتبه رافضىٌّ غالٍ فى رفضه ، فمن رشاه قضى شغله وإلا يعطل شغله ، وحمود لا يسمع فيه شكوى أحد ما . ومنها تعظيمه لكل من عرف بالظلم . ومنها رضاه بظلم قومه لرعيته . ومنها رضاه بكل مفسدة من كل باغ على ولاة الأمور (يعنى الدولة العلية) . ومنها أنه لا يولى على كل قرية إلا أظلم أهلهـــا

---

(١) هذا وأمثاله داخل فى مرض الوسواس الذى سيقول المؤلف إن حمود بن ثامر كان مبتلى به

وأفسدهم وأفسقهم . ومنها أنه على غاية من الحقد . ومن محاسنه الشجاعة التى لا توجد فى أمثاله . وله أيام ومشاهد ، فمن أيامه وهو شابٌ فى حياة والده (يوم الرُّضيمة) وهو يوم لسعدون بن عرعر على ثامر ، فانه فى ذلك اليوم طاعنَ طعان الأسود . ومن أيامه (يوم أبي حَلاّنة) وذلك يوم للمنتفق على محمد على خان الزندى ، فانه ما عرف حمود وذكر اسمه بين الشجعان إلا فى ذلك اليوم كما ذكرناه سابقا (١) . ومن أيامه (يومُ سفوان) له على ثوينى عمه ومصطفى أغا الكردى متسلم البصرة ، فانه فى ذلك اليوم عشيرته . ومن أيامه (يوم عَلوىّ) ماء قريب من البصرة القديمة (٢) فانه فيه فارس الكتيبة . وله أيام سوى ذلك . ومن محاسنه إطعام الطعام ، حتى أن من ضيوفه من يقيم أعواماً . ومنها ذكاؤه المفرط (٣) ، حتى انه إذا لقى الرجلَ مرة وغاب عنه سنين ثم لقيه عرفه . ومن دَيدَنه سؤاله عن الاخبار الجليلة والحقيرة . ومن ذكائه أنه لما عمى بصره يعرف من لقيه ولو مرة بصوته . ومن محاسنه الحلم الذى لم يسمع

---

(١) فى ص ١٤

(٢) البصرة القديمة بعيدة عن مصب شط العرب ومجراه ، وكانت فى الجهة التى فيها ضاحية (الزبير) الآن

(٣) الذكاء غير العقل ، وإذا لم يكن للذكاء من العقل مهيمن يكبح جماحه ويعصم صاحبه من مزالق العاطفة والهوى كان وبالا على صاحبه وعلى الناس

بمثاله . ومن محاسنه [أنه] يحب الآكلين معه ويلاطفهم بالحكايات المناسبة للحال ، وأنه يشتد غضبه على خدامه إذا قصروا فى حق ضيفه ولما ابتلاه الله بالعمى ازدادت أبهته ووقاره وعظم ملكه وسطوته فى تلك الأيام واستمرت حكومته الثانية من سنة ١٢١٢ الى سنة ١٢٣٢ لما عزله الوزير داود باشا ونصب مكانه ابنَ أخيه عَقيلا كما سيأتى ذلك

ومن وقائع سنة ١٢١٢ أن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود غزا فى تلك السنة أطراف بنى المنتفِق ، فصبح القرية المعروفة بأم العباس وقتل منها ومما حولها خلقاً كثيراً ونهب وحرّق ثم كرَّ راجعا وحمودٌ فى البادية ، فلما بلغه الخبر جدَّ فى السير ليدركه فما أدركه ، وبعد ما كرَّ سعود راجعا ووصل إلى أطراف نجد عطف وأغار فى سنته تلك على بادية العراق ، وكان مطلقُ بن محمد الجربا الشمَّرى نازلا فى بادية العراق مع عربه شمر ، فلما صبحهم سعود فرَّ من فر منهم وثبت من ثبت ، فممن ثبت وقاتل جيشَ سعود مطلق الجربا ، فكرَّ على الفرس مرة ، فكلما كر على كتيبة هزمها ، فحاد عن مطاعنته الشجعان ، وكان من قدر الله تعالى الذى لا يردُّ أنه كر عليهم فى بعض كرَّاته فعثرت به فرسه فى شاة فسقط فى ظهر فرسه وقتل ، وكان قتله عند سعود من أعظم الفتوح ، إلا أنه ودَّ أسره دون قتله

هذا ومطلق من كرماء العرب عريق النجار شريف النسب .

ومن أيامه المشهورة يوم العُدوة لسعود بن عبد العزيز عليه . وفى ذلك اليوم قتل ابنه مِسْلط ، كان شجاعاً مقداماً ، قاتل فى ذلك اليوم قتال الأسود فلما ضاق الخناق على سعود خان ابنُ هذّال وتنحى عن مطلق فانكسر مطلق وقومه

ثم إن مطلقاً لا زال يرتع فى بادية العراق ويتمنى من يساعده على ابن سعود إلى أن سار من العراق إلى الشام وتوجه مع أحمد باشا الجزّار الى الحج ، فلما رجع من الحج ورأى ذلك الضلال المبين الذى عليه الوهابيون من تكفير الأمة المحمدية بأسرها رجع وقد عاهد الله على أنه لا يرجع عن الجهاد والقتال مع الوهابيين إلى أن يموت . وقد برّ الله قسمه رحمه الله

ثم دخلت سنة ١٢١٣ ، [وفيها] غزا الكتخدا على بك بأمر الوزير سليمان باشا (الحسا) من البحرين بعد ما تولاها سعود بن عبد العزيز وبنى فيها القلاع المحكمة وسام أهلها الخسف وأظهر بدعته فيها وهو تكفير من لم يدخل فى طاعته من المسلمين ، ووافقه من أهلها من طبع الله على قلبه وسمعه وبصره . وغزا معه من جانب الوزير شيخُ بنى المنتفق حمود بن ثامر بن سعدون بن مانع بعربه وبادية العراق وعرب عقيل وأميرهم إذ ذاك ناصر بن محمد الشبلى وفارس ابن محمد الجربا الشمرى بعربه ، وأصحب الوزيرُ مع على بك الكتخدا محمدَ بن عبد الله بن شاوى الحميرى أحد دهاة العرب فى أيامه ومعه

من أهل الزبير جمٌّ غفير وأميرهم ابراهيم بن ثابت بن وطبان ، فسار العسكر قاصدين الأحساء إلى أن نزلوا (المبرَّز) وحاصروا القلاع ولم يقاتل أحد من عسكر الكتخدا ولا من العرب سوى النجديين وعقيل حتى أطاع الكتخدا غالبُ سكان المبرَّز . وفى أثناء الحصار غزا حمود نجداً فأغار على (سُبيع) قبيلة معروفة ، والظاهر أنها فى مضر ، فقتل منهم وغنم إبلا وشاءً جماً ، ومعه فى تلك الغزاة فارسُ الجرباء وابنُ أخيه بُنيَّة الجرباء بن قرينس - تصغير قرناس : شبه الأنف يتقدم الجبل - وبنية هذا أحد من اشتهر بين العرب بالكرم والشجاعة والنخوة (١) . ولما رجع حمود من تلك الغزاة وورد على الكتخدا بالغنيمة قويت همة الكتخدا وحاول فتحَ القلاع ، لكن كما ذكرنا لم يكن فى عسكره من يباشر القتالَ سوى من ذكرناهم أولا ، وهمُّ باقى العسكر التحفظ خوفاً ممن يخرج عليهم من القلاع . وأما الأطواب فانها لم تعمل شيئا فى أسوار الأحساء وذلك لمتانة أسوارها وقد ذاع بين العسكر أن تثبُّط العساكر خيانة ، فلما طالت مدة الحصار ولم يمكن الكتخدا الفتح وهدم القلاع واشتدَّ القحط على العسكر فرَّ الكتخدا هارباً مع عسكره قاصداً العراق وترك أهل الاحساء يبكون دماً لرحيل الكتخدا عنهم (٢) ، وفر أكثر أهل

(١) وسيأتى كلام عليه فى حوادث سنة ١٢٣١ بمناسبة مقتله

(٢) فى الاحساء عنصر شيعى كان نخامراً على حكومته السعودية ، ولا يبعد أن يكون هو المقصود بهذه الاشارة

الاحساء مع جيش الكتخدا خوفاً على أرواحهم وأعراضهم من الوهابيين (١) ، وفرّوا فى أسوأ حال من تشتيت الحال وعدم وجود رواحل ، فكانوا مشاةً حفاة جائعين عطاشاً يجدّون فى السير خوفاً من أن ابن سعود يدركهم ، تاركين الأموال والديار ، سالكين المهامه والقفار ، خصوصاً من تداخل مع عسكر الدولة فى تلك الأيام

ولما قفل الكتخدا هارباً جدّ فى طلبه سعود بن عبد العزيز بجيشه فأدركه فى محل يسمى (تاج) ، ونزل سعود (الحنّاءة) وانشبك القتال بين الفريقين ، وقتل خالد بن ثامر أخو حمود ، فبينما الفرسان تتطارد إلا وقد جنح الكتخدا للصلح ، وذلك أن بعض كبراء عساكر الكتخدا من أقارب سعود وعلى مذهبه فصاروا يهوّلون أمر سعود للكتخدا فداخله الخوف كما فعلوا به لما كان فى الحسا . والسبب الثانى أن متولى مصاريف جيش الكتخدا اختلس أموالاً جمة وقيدها فى الدفاتر كذباً وزوراً ، فاقتضى رأيه أن العسكر إذا رجع مهزوماً ومصالحاً على المغلوبية فلا يصير عليه شدّة المحاسبة على المال التالف ، لأن جميع الأموال والذخائر التى كانت معه تعد من جملة الهالك ويقطع النظر عنها . وأما المتهوم بهذه الخيانة وأنه هو الذى كان يشير على الكتخدا بالهزيمة ويهوّل أمر سعود والوهابيين

---

(١) النجديون لا شك أنهم أهل دين ، ولم يجرؤ حتى الكذابون على اتهامهم بالاعتداء على الأعراض

فهو ابراهيم بن ثاقب بن وطبان لأنه كان رجلا فصيحاً منطيقاً من دهاة العرب ويظن فيه مثل هذا الكلام ومتهم ببعض من عقائدهم يعنى أنه يكبر أمر الوهابيين عند بعض أمناء الكتخدا فينقلون له ذلك الخبر إلى أن دخله الخوف وكان ما كان ، خصوصاً أن ساعده بمثل هذه الأفكار متولى الخزينة بناء عـلى خيانته المالية ، ولذلك أكثر الناصحين للكتخدا مثل حمود بن ثامر وأمثاله ما كانوا راضين بالصلح .

وأما قول المؤرخ التركى « ان سبب انهزام الكتخدا فى هذه الواقعة وطلب الصلح هو نفاد الزاد من العسكر » فهو غلط محض مبنى على إشاعة الخائنين ، بل الخبر الصحيح أن الذين نفد زادهم هم الوهابيون ، ولو تأنى عنهم الكتخدا يومين لفروا من أمامه طلباً للقوت (والذى أراه من فحوى الكلام أن سبب انهزام عسكر الكتخدا من الأحساء — مع مساعدة الأهالى لهم — وطلب الصلح فى البادية هو من سوء الضبط والربط ، ومن كثرة تعدد الرؤساء فى ذلك الجيش . وقوله « المؤرخ التركى » هكذا وجدته فى أصل النسخة ، ولم أدر أى تركى عناه المصنف وما اسم هذا التركى وما اسم تاريخه وإلى أى بلد ينسب) .

ولنرجع إلى أخبار الصلح الذى من رضى به فقد لبس ثوب الخزى والعار إلى آخر الدهر : ثم ورد على الكتخدا كتاب من سعود يقول فيه :

« من سعود بن عبد العزيز الى على . أما بعد فـما عرفنا سبب

بجيشكم إلى الحسا . أما أهل الحسا فانهم روافض ، ونحن جعلناهم بالسيف مسلمين (١) . وهى قرية ليست بداخلة تحت حكمكم ، والذى يحصل منها قليل بالنسبة إلى تعبكم والى مصاريفكم . ولو أن جميع أهل الاحساء وما يليها تؤدى اليكم دراهم لم تعادل مصاريفكم فى هذه السفرة فقط ، وما كان بيننا وبينكم من المضاغنة إلا ثوينى ، وقد لق جزاءه ، فالآن مأمولنا المصالحة ، وهو خير لنا ولكم ، والصلح سيد الاحكام » انتهى

فكتب الكتخدا جوابا لكتابه :

« من على باشا الى سعود بن عبد العزيز . أما بعد فقد أتانا كتابك ، وكل ما ذكرته من أمر المصالحة صار معلومنا ، لكن على شروط نذكرها لك ، فان قبلتها وعملت بها فحسن ، وإلا فما نحن عاجزون عنك ، حيث لنا مدة أربعة أشهر نجوب بلادك وما قدرت تظهر من مكانك غير هذه الدفعة . وأيضاً اغتررت بقول ابن عفيصان (وابن عفيصان هذا كان أمير الحسا من طرف ابن سعود زمن الوهابيين) . فأما الشرط الأول فهو أن لا تقرب الحسا بعد الآن . وأما الثانى فهو أن ترجع الأطواب التى أخذتها من ثوينى .

---

(١) أى انهم صاروا مسلمين تقية عندما صاروا فى مواجهة قوة الحق . وهذه عادتهم ، كما تظاهروا بموالاة أبى بكر وعمر وأعلنوا ذلك على منبر الكوفة يوم الجمعة ٢٦ شوال سنة ١١٥٦ لما تبين الحق لنادر شاه وجنح اليه

وأما الثالث فهو أن تعطينا جميع ما صرفناه على هذا السفر . وأما الرابع أن لا تتعرض للحجاج الذين يأتون اليك من طرف العراق مع الامنية العمومية فى جميع الطرق . فهذه الشروط التى أخبرناك عنها ، والسلام على من اتبع الهدى »

فكتب اليه سعود ما نصه :

« جاءنا كتابكم وفهمنا معناه . فأما الحسا فهى قرية خارجة عن حكم الروم [١] ، ولا تساوى التعبَ ، وما فيها شئٌ يوجب الشقاق . وأما الأطواب فهى عند والدى بالدرعية اذا صدرتُ إليه أعرض الحال بين يديه ، والوزير سليمان باشا أيضاً يكتب له ، فان صحت المصالحة وارتفع الشقاق من الطرفين فهى لكم وأنا الكفيل بها حتى أوصلها الى البصرة . وأما مصاريفكم فانى لم أملك من هذا الأمر شيئاً والشور فى [يد] والدى . وأما ما زدتم من عدم التعرض للحجاج ، فحباً وكرامـــة . وأما الأمنية فهى التى لا زلنا نقاتل الناس عليها حتى جعلنا الأرض كلها لله وجميع المسلمين مشتركين فيها وصار الذئب لا يقدر يضر الشاة فى أحكامنا » انتهى

(انظر الى هذا الكتخدا المغفل الذى يشترط شروطاً مع كونه مغلوباً مهزوما ، ما هذا إلا نوع من الوقاحة . وانظر الى هذا الشيطان

---

(١) الروم عنوان للترك العثمانيين كان يستعمله العرب والترك جميعا فى رسائلهم ومؤلفاتهم وأشعارهم

ابن سعود كيف أجابه بأجوبة وترك بيت القصيد محولاً أعنى أخذ مصاريف الحرب وردّ الاطواب . وألعن من ذلك كله لما قال له فى جوابه الأول ، من سعود بن عبد العزيز الى على ، ولم يذكر لعلىّ أباً إشارة الى كونه لا يُعلم له أب)

ولما تم الصلح على هذه الكيفية رجع الكتخدا الى بغداد ولم يف سعود بواحد من الشروط(١) بل طغى وتمرّد وتلاطمت أمواج بدعته (٢)

ثم دخلت سنة ١٢١٤ ، وفى هذه السنة أقبل عبد الله أغا متسلم البصرة السابق ـ الذى كان عصى ثم فر منها ـ الى بغداد ، فأكرمه الوزير سليمان باشا وأرجعه متسلماً إلى البصرة

وفيها تولى قضاء البصرة الشيخ عبد الله الرحبى ثم البغدادى الحنفى ، وستأتيك ترجمته

وفيها أغارت (عنزة) على الدليم ، قيل إنهم ينسبون إلى حمير ، وقيل إنهم من كهلان . ولما غنم العنزيون منهم ومن غيرهم من عرب العراق أمر الوزيرُ شيخ العنزيين فاضلاً أن يؤدى ما غنمته قبيلته من

---

(١) لأنه لم يتقيد بشىء منها إلا الذى هو حاصل بالفعل وهو أمن الطرق للحجاج وللناس

(٢) الظاهر أن المؤلف مضطر إلى استعمال مثل هذه التعبيرات الجوفاء بسبب حالة الحرب القائمة بين الترك وآل سعود

أموال الدليم وغيرهم ، فلما أراد فاضل الأداء عنهم لم يطيعوه ، فخرج عليهم الكتخدا على بك بعسكر وأحاط بهم على غرة ، فالتجأ العنزيون بآل قشعم ومن معهم من عرب العراق فتشفعوا لهم عند الكتخدا فقبل شفاعة القشعميين لهم على أن يعطوا الكتخدا ثلاثة آلاف بعير وخمسين فرساً . هكذا نقله المؤرخ ، والذى أحفظه أنهم - أعنى العنزيين - خدعوا فجرى عليهم ما جرى مما ذكره

وفيها غزا الكتخدا على بك آل قشعم والدليم ، فأغار أولاً على آل قشعم فلم يظفر بهم لانهزامهم ، فلما انهزموا جدَّ فى طلبهم حتى وصل إلى شثاثة ، ثم عطف على الدليم فانهزموا فغنم من أغنامهم ، وعاد إلى الفلوجة فراسل آل قشعم ثم الدليم وأمَّنَ كلا منهم فرجعوا إلى ديارهم وعاد هو إلى بغداد . قال فى القاموس : قشعم - كجعفر - المسنُّ من الرجال والنسور والأسد ، ولقب ربيعة بن نزار . انتهى . لكن المشهور بين العرب أنهم من بنى ماء السماء ، يعنى من قحطان

ثم دخلت سنة ١٢١٥ ، فيها تمرَّد آل سليمان من خزاعة وعصوا على الوالى ، فأمر الكتخدا أن يخرج اليهم بعسكر ، فخرج ، ولما وصل اليهم تحصنوا فى قلعتهم ، فرمى عليهم بالأطواب ففرُّوا منها إلى الأهوار ، وكانت الأهوار معقل العصاة ، فما زال العسكر فى آثارهم حتى أخرجوهم من أهوارهم وغنموا من أموالهم شيئاً كثيراً وأرسلوها إلى الوزير ، فلما ضاقت بهم الأرض بما رحبت سألوا

الوزيرَ العفوَ عما مضى واعترف كل بذنبه وأدّوا المطلوبات المنكسرة عليهم ورجعوا الى أوطانهم

وفيها توجه عبد العزيز بن عبد الله بن شاوى الحميرى إلى حج بيت الله الحرام ، وأمره الوزير بأن يمرّ على الدرعية فى عودته ويلاقى سعود بن عبد العزيز ويكلمه فى ديات من قتل من خزاعة وسكان النجف ، أى الذين قتلهم الوهابيون ظلماً وعدوانا . فلما أتمّ حجه قصد الدرعية وتلاقى مع سعود بن عبد العزيز وكلمه فى هذا الشأن ، فضحك وقال له : أما كفى الوزيرَ أننا تاركوه يحكم فى بغداد ؟ والله عن قريب ترى جميع غربى الفرات لنا وشرقيه له . فانقلب ابن شاوى بغير ما أمله ، إلا أنه لما شرب من مائهم وجلس بين دعاتهم مازجه من بدعتهم شُبه ونزغات ضلّ وأضلّ بها بعض العوام . ولما وصل ابن شاوى إلى بغداد وأعلم الوزير بمراد سعود بن عبد العزيز وبمنتهى أمنيته ، استعدّ الوزير لمحاربة الوهابيين إن وفقه الله كما سيجيئك

وفى هذه السنة الماضية ـ أعنى الخامسة عشرة بعد المائتين والألف ـ تشفع الوزير عند السلطان سليم أن يُرجع تمر بك الملى إلى أوطانه وأملاكه فأرجعها اليه

ودخلت سنة ١٢١٦ ، فيها أغار سعود بأهل نجد الوهابيين على العراق سرايا وركبانا فنهبوا وسلبوا وحرّقوا بعض القرى وسبوا وأسروا ، فأرسل الكتخدا على بك لمقاتلتهم ومحمد بن عبد الله بن

شاوى الحميرى وفارس بن محمد الجربا الشمرى ومعهم عسكر ، فلما التقوا معهم ووجدوهم قد تحصنوا بالرواحل - أى انهم قرنوا الابل ودخلوا وسطها وجعلوها متاريس - وصاروا يرمون عليهم بالبنادق والرصاص من وسط الإبل ، فجبن العسكر وخافوا من الهجوم عليهم ورجعوا إلى شفاثى - كبالى - وما بهم من عطش ولكن ادعوه كذباً ، إنما هم كرهوا النزال فى الحروب خوفاً على أرواحهم ، وكان يمكنهم أن يقرنوا الابل ويدخلوا وسطها كما فعل الوهابيون ، ويهجمون مع الابل سوية ، ولكن ما أكثر أعذار الجبان

وفى تلك السنة عصت قبائل عَفَك وجُليحة ومنعوا الخراج ، فخرج عليهم الكتخدا على بك بعسكر جرّار ، فسار إلى أن نزل نهر اليوسفية فأعطاه شيوخها الخراج وأذعنوا للطاعة وأعطوا رهائن بأن لا يعودوا لمثلها

وفيها عزل [الوزيرُ] عبدَ الرحمن باشا الكردى وأخاه سليماً عن كوى وحريرا (قوله « كوى » و « حريرا » هكذا وجدته فى الأصل بهذا الضبط [1] . وكذلك وجدته يعبر ببعض عبارات ليست مألوفة

---

(١) هذه الجملة المعترضة التى بين قوسين من كلام الشيخ أمين الحلوانى مختصر الكتاب . وتقدم لنا فى هامش ص ٣٤ أن فى مقاطعة (راوندوز) من أعمال (كركوك) ناحية اسمها (ديرة حرير) . ومن مقاطعات كركوك أيضاً (كوى سنجق) فلعل « كوى » و « حريرا » فى تلك الجهة

عند المتأخرين ، ولكن لم يمكن إلا مجاراته كي أتحرى الصدق ما أمكنني) لمخالفتهما لأوامر الوزير ، وأتى بهما الى بغداد ، ثم غرّبا الى الحلة وحبسا فى القيود . وولى الوزير محمود بك ابن تمر بك كوى وحريرا

وفيها غزا سعودُ بن عبد العزيز الوهابى العراقَ وحاصر كربلاء وأخذها بالسيف عنوةً وغنم جميع ما كان فى مشهد الحسين من الذهب والجواهر التى أهدتها الملوكُ والشيعة إلى ذلك المقام المقدس وقتل أهلها قتلا ذريعاً واستباحها ونهب من المال والذهب والفضة مالا يتصوره العقل ، وبه تقوّى واستعدّ لتملك الحرمين ، ثم رجع الى عارضه متبجحاً بما صدر من عسكره ويقول : لو لم نكن على الحق لما انتصرنا ، وما علم أن ذلك استدراج ، وأنه على الباغى ستدور الدوائر ، وأن من قال « لا إله إلا الله » فقد حقن دمه وماله [1] ، ولكن الهوى اذا استولى أعمى البصائر . وبأموال كربلاء استفحل أمر ابن سعود وطمع فى ملك الحرمين وشرع فى محاصرة المدينة المنورة ، فصار من أمره ما سيأتيك بيانه

---

(١) وهل كان الغورى وطومانباى لا يقولان « لا إله إلا الله » لما وجه السلطان سليم جيوشه للاستيلاء على مصر والشام والحجاز ومحاربة من يعارضه من أهلها والحاكمين عليها . والسلطان سليم لم يكن صاحب دعوة الى سنة ، أو استنكار لبدعة

ولنذكر نبذة من أخبار جيف الشيعة المعبر عنها عندهم بالتوابيت التى يدفنونها بكربلاء ، وهى أنه إذا مات الشيعى فى أقصى المشرق أو المغرب فيوصى بأنهم يدفنونه فى كربلاء وينذر على ذلك النذور ، فيتحمّل أهله بجيفته وينقلونه إلى كربلاء ، وهناك تأخذ عليهم الحكومة شيئاً معلوماً من الدراهم فى مقابلة دفن الميت فى كربلاء ، وهناك صهاريج كبار لبعض أهل البلدة من الشيعة معدّة لطرح تلك الجيف فيها ، ولهم شئ معلوم أيضاً على كل جيفة ، فيطرحون الميت داخل الصهريج ويسدّون عليه ، وكلما وردت جيف أيضاً يطرحونها داخل تلك الصهاريج ، وربما تتكلف الجيفة الواحدة من حيدر أباد الدكن إلى كربلاء مثلا نحو ألف روبية ، هذا مع الأواسط ، وأما مع أغنياء الشيعة فربما تتكلف الجيفة ألوفاً . ثم إنه إذا امتلأ ذلك الصهريج من الجيف والتوابيت تجد لتلك الاماكن وما جاورها عفونة ونتانة تشم من مسافة لا يطيقها إلا أهل تلك الجهات الذين ألفوها ، ولذلك كلما امتلأت الصهاريج فصاحب الصهريج يبيع ما فيه من تلك الجيف المعبر عنها بالتوابيت على صاحب الحمام بثمن معلوم ، فيحضر صاحب الحمام آلات الحمل وينقل جميع تلك الجيف ويقد بها حمامه . فانظر لحماقة هؤلاء الشيعة كيف يصرفون الذهب والفضة لأجل حرق آبائهم . وياليت شعرى ما الفرق بينهم وبين مجوس الهند الذين يحرقون موتاهم

ومن عجائب كربلاء أن هناك حفرة على صورة قبر وعليها غطاء من حجر الرخام ، ويزعم شيعة أهل تلك البلدة أنه إذا أهلّ شهر المحرّم يفيض الدم من تلك الحفرة وبه يعرفون ظهور الهلال ، مع أنها بطول السنة ناشفة ، يعنى أنهم ليلة الشك يذهبون إلى تلك الحفرة ويمدون فيها عصاً فان ظهر رأس العصا وفيه صورة دم ممسّك فيعرفون أن هذه الليلة هى أول شهر المحرم ، فتضجّ البلدة بالصراخ ، ولا يحتاجون إلى النظر فى الافق لرؤية الهلال ، بل يكتفون بمد العصا فى تلك الحفرة . وهذا أيضا من دكيّاتهم وحيلهم لنصرة مذهبهم

فلما بلغ الوزيرَ ما صُنع فى كربلاء أمر الكتخدا على بك أن يخرج بعسكره ويتبعه إلى مقرّ ملكه العارض ، فلما وصل الهندية حتى نجا سعود على المهرية القود والتحق بالقفار والصحارى ، فجبن الكتخدا ، ولم يمكنه أن يلحقه

وفى هذه السنة عزل الوزير سليم بك صهره عن متسلمية البصرة

ثم دخلت سنة ١٢١٧ ، وفيها توفى الوزير سليمان باشا أبو سعيد ذو الآثار التى من أعظمها هـذا البطل المجهول له هذا التاريخ (يعنى داود باشا) . وذكر المؤرخ التركى أنه قبل وفاته جعل ولىّ عهده على بك الكتخدا ، وأنه أوصى داود بك بالمصافاة معه ، وكذلك أوصى بذلك نصيف بك وسليم بك ، ودفن رحمه الله بجوار الامام أبى حنيفة

ومن آثاره الجليلة أنه عمر سور دار السلام ، وأنشأ سور غربيها ،

وهدم دار الامارة وعمرها عمارة لائقة بالوزارة ، وأنشأ المدرسة المعروفة بالسليمانية وشحنها بالكتب الحديثية والفقهية والأدبية ، وعمر جامع القبلانية ، وجامع محمد الفضل ، وجامع الخلفاء ونقصه عما كان فى الأصل ، وزوّق منارة جامع الامام الأعظم ، وعمر وأنشأ سوق السراجين والخان الذى فيه قرب دار الامارة ، وقنطرتى دَلّى عباس على نمط اختاره ، وأنشأ على نهر نارين قنطرة ، وعمر كوت العمارة وسوره (١) ، وعمر سور البصرة ، وقرية سيدنا الزبير ، وسور الحلة ، وسور ماردين ، وأنشأ قرب الموصل قلعة حصينة ، وأحيا فى طريق ماردين موضعا معروفا بجلاغة عند الصادرين والواردين

وبعد دفنه أجمع أهل الحل والعقد فى بغداد بأن الكتخدا على باشا هو الأليق بوزارة بغداد وكتبوا محضراً وأرسلوه إلى الدولة بذلك ، إلا أن أحمد اغا آغة الينيشرية داخله الحسد وأراد أن يفسد هذا الامر ، فاجتمع بسليم بك ووسوس له وقال له : انك أنت أولى من على بك ، خصوصاً وأنت صهر الوزير الأسبق ، فأماله إليه ، ثم ذهب إلى على بك الكتخدا المذكور وقال له : إن أهل بغداد أهل نفاق وإثارة فتن من قديم الأزل ، وأخشى أن يهيّجوا عليك الغوغاء والأوباش ، فالأولى أن تأذن لى فى أن أضبط القلعة بالينيشرية لتكون

---

(١) الكوت : القصر . والكويت تصغير له . وكوت العمارة ، ويقال لها كوت الامارة أيضا بلدة ومقاطعة فى العراق

آمنين من أهل بغداد ، فوافقه علـــى ذلك وما يدرى أنه مضمر له الخيانة. فبعد أن استقرّ في القلعة شرع فى المحاربة مع على بك وطلب الوزارة لنفسه ، فبينما اشتد الأمر على على بك إلا وجاء الفرج والمبشر بقتل على أغا المذكور ، ففرح واطمأن وملك القلعة وعفا عن أكثر من فيها وهدأت الفتنة . ثم وصل الفرمان من الدولة العلية بتوجيه إيالة بغداد لعلى باشا المذكور

وبعده غزا على باشا الوزير البلباص من بلاد الأكراد فأطاعوه بعد العصيان والفساد ودفعوا الخراج المنكسر الذى عليهم ، وانقلب عنهم وعبر دجلة من الموصل لمقاتلة أهل سنجار الجبـــل الشاهق المعلوم وأكثر أهله كفار (١) ، فقاتلهم وطوّعهم . وممن أظهر الشجاعة والبسالة فى ذلك اليوم وبذل الهمة تجاه الوزير محمد باشا والى كوى وانتصر ، وأما ابراهيم باشا فانه قاتلهم فى يوم وهزم فيه ، ومن شدة قهره مرض ونقل الى الموصل ومات هناك . ولما بلغ الوزيرَ وفاته نصب مكانه عبد الرحمن باشا .

وقد وفدتُ عــلى الوزير على باشا وهو محاصر جبل سنجار ومدحته بقصيدة فأكرمنى وأجلّنى ، والتمستُ تولية المدرسة المغامسية فتفضل بها على

---

(١) لعـله يريد (اليزيدية) ، وانظر لنحلتهم وتاريخها كتاب (اليزيدية) لاحمد تيمور باشا الصادر من مطبعتنا

وبعد رجوعه من سنجار غضب على محمد وعبد العزيز ابنى عبد الله بن شاوى وأمر بخنقهما، فخنقا رحمهما الله ودفنا بقرب الموصل.

وأما مناقبهما: فأما محمد فكان فى أيامه من ملوك العرب وأهل النجابة والمروءة والنخوة، ومضى عمره وهو جليس الملوك ونديمهم وسفيرهم وأمينهم ومستشارهم بحيث يضرب به المثل فى اللطافة والأدب والمحاضرات فى المجالس وطلاقة اللسان وبديهة الجواب إلى غير ذلك من الصفات التى لا توجد فى أقرانه، وكان يشارك العلماء فى كل فن، وخدمه الدهر مدة ثم غدر به كما هى عادته، وكان رحمه الله كلما زاد رفعة وقبولا عند الامراء ازداد تواضعاً. ورث الرياسة عن أبيه وجده، وكان له شغف بقضاء حوائج الناس ولو لم يعرفهم

وأخوه [عبد العزيز] ما هو بعيد منه، إلا أنه لما أرسله الوزير سليمان باشا إلى الدرعية سفيراً إلى الوهابيين فكأنهم أغووه [1]، وسرى بعض عقائدهم فيه، إلا أنه كان كرمه وشمائله مغطية على جميع ذلك



---

(١) أى أزالوا عن عينيه الغشاوة التى أسدلها عليه وعلى أمثاله هؤلاء الحكام الطغاة الذين لا يخافون الله فى خنق النجباء الكملة من أمثال ابنى شاوى

فصل فى بعض أخبار الوهابيين

فمن اعتقادهم تكفير عموم المسلمين الذين على الكرة الأرضية إلا من اعتقد اعتقادهم [١] ، وسموا أنفسهم بالسلفيين وبالمحمديين ، ويبغضون ويلعنون جملة من علماء السنة مثل أبي الحسن الأشعرى [٢] ، ويقولون إنهم [٣] هم الذين أسسوا قواعد الأدلة والبراهين فى علم التوحيد ومنه نشأت الفرق والخلاف بين الأمة المحمدية ، وإلا فقبله كانت الأدلة هى القرآن والحديث لا غير . وأيضا يكفرون الامام ابن السبكى الشافعى ، ولكن ما أعلم السبب فى تكفيره دون سائر المصريين ، ويا ليت شعرى ماذنبه معهم ، وأظنه لكونه كان يغرى الملوك على ابن تيمية وجماعته الحنابلة حتى حبسهم الناصر بن قلاون فى اسكندرية كما هو مذكور فى الدرر الكامنة لابن حجر . والحاصل أن الوهابيين آذوا الأحياء والأموات

ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتوا البدع ومحوها

ومن محاسنهم أنهم أمنوا البلاد التى ملكوها ، وصار كل ما كان تحت حكمهم من هذه البرارى والقفار يسلكها الرجل وحده على حمار

---

(١) انظر تعليقنا فى الصفحة ٦٠

(٢) لا يعرف فى كتبهم لعن لأحد من العلماء ، ولكنهم يحكمون على كل قول بما توجبه النصوص

(٣) أى الأشعرية

بلا خفر ، خصوصاً بين الحرمين الشريفين

ومنعوا غزوَ الأعراب بعضهم على بعض ، وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم -من حضرموت إلى الشام- كأنهم إخوان أولاد رجل واحد ، وهـــذا بسبب قسوتهم فى تأديب القاتل والسارق والناهب إلى أن عُدم هذا الشر فى زمان ابن سعود ، وانتقلت أخلاق الأعراب من التوحش إلى الانسانية ، وتجـــد فى بعض الأراضى المخصبة هذا بيت عنزى ، وبجنبه بيت عتيبى ، وبقربه بيت حربى ، وكلهم يرتعون كأنهم إخوان (ولا تجد أحداً يقول : هذه ديرتى ولا يطأها الغريب مثلا كما هو مشاهد الآن)

وبهاتين الدسيستين (١) خدعوا جميع العوام - يعنى بمحو البدعة ، وتأمين الطرقات والسبل ، خصوصاً بين الحرمين - وأحبهم سائر الأمم وغفلوا عن باقى عقائدهم . ورأيت لهم عقيدة منظومة يحفظها حتى رعاة غنمهم ومنها :

وما الدين إلى أن تقام شعائرٌ

وتأمنَ سبلٌ بيننا وشعابُ

(١) المؤلف يعرف الحقائق ، ويريد أن ينوه بها ؛ لكنه يخشى نظام البغى والجبروت الذى يعيش فى ظله ، فيضطر الى أن يقول غير ما يريد . وإلا كيف تكون إزالة البدع دسيسة ، وكيف يكون بسط جنـــاح الأمن والأخوة والمحبة دسيسة ؟!

فكأنهم جعلوا تأمين الطرقات ركناً من أركان الدين . ويفهم عقلاً من سياستهم أنه إذا فقد القاتل والسارق والناهب فأى سبب يمنع عموم الناس من الاشتغال بالزراعة أو التجارة أو اقتناء المواشى فى البادية المخصبة للتكسب من ألبانها وأصوافها وجلودها ، وإذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون ، فكأن المسألة شبيهة بالدورية - أى انه متى وجد الامان ارتفع السارق والقاتل لاشتغالهم بمعاشهم الحلال ومتى اشتغلوا بالمعاش الحلال وجد الامان ، ولكن هذا الدور منفك الجهة ، ولولا مافى الوهابيين من هذه النزعة أعنى تكفير من عداهم لملكوا جميع بلاد الاسلام وأدخلوهم تحت حكمهم بطوعهم واختيارهم ، ولكن بسبب هذه النزعة أبغضتهم الأمم وتسلطت عليهم الدول وغزاهم أسد الديار المصرية ابراهيم باشا ابن محمد على باشا بأمر السلطان محمود سنة ١٢٢٨ وملك بلادهم ومحا آثارهم وأبادهم وأسكن عائلة السُّعُود - أى بيت الملك - وعائلة عبد الوهاب الديار المصرية (وما رجعوا إلى بلادهم إلا بعد أن عاد الحجاز إلى الدولة العلية)

وهذه الفرقة المعبر عنها بالوهابيين هم أتباع محمد بن عبد الوهاب النجدى ، ولكنهم فى الحقيقة يسمون « أهل الحديث » لأنه كان نظيرُهم موجوداً فى زمن الدولة العباسية ، وينكرون المناكير بالشدة والغلظة مثل الوهابيين ، ويثورون على الخلفاء بسبب أن الجهاد فى اعتقادهم ركن من أركان الدين . انظر تاريخ النجوم الزاهرة فى ملوك

مصر والقاهرة من سنة ٣٠٠ هجرية ، وكانوا يسمونهم « الحنابلة » و « أهل الحديث » فى ذلك الزمن ويقولون « قام الحنابلة » و « ثار الحنابلة » و « كسر الحنابلة حانات الخمور وأدبوا من شربها » وكان بينهم وبين العباسيين مقاتلات وحروب ، ثم ثارت فرق منهم بالمشرق وبجزيرة الأندلس ويسمون « الظاهرية » وهم « أهل الحديث » وكانوا ينكرون المناكير مع الغلاظة ويثورون على الملوك وأكثرهم يموت بين قتيل وطريد . ثم فى دولة يوسف صلاح الدين ظهر لهم فرق وكانوا يسمون « أهل الحديث » ، ولهم ثورات وعداوات مع الملوك أيضا ، وينكرون المنكر مع الغلاظة والفظاظة ، وتسلسلوا إلى زمن ابن تيمية الحرانى وتلاميذه ابن مفلح وابن القيم وابن عبد الهادى ، ثم ظهرت هذه الفرقة التى عمت وطمت فى القرن الثانى عشر ويسمون بالوهابيين نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب النجدى ، وإلا ففى الحقيقة فأفعالهم وآثارهم هى أفعال الحنابلة الأقدمين وهى أفعال أهل الحديث فى القرون المتوسطة وأفعال الظاهرية ، فالمعنى واحد ، إنما فى كل عصر يسمون باسم على اصطلاح أهل ذلك العصر [١] ، وكان

(١) اسم « الوهابية » أو « الوهابيين » أطلقه عليهم خصومهم من العثمانيين ومن ساهم فى الدفاع عن بقاء البدع فى المجتمع الاسلامى . أما أهل نجد الذين تبعوا الشيخ محمد بن عبد الوهاب لحنابلة فى عباداتهم وفقههم وعلى مذهب السلف فى عقائدهم وإيمانهم . انظر التحقيق الوافى عن ذلك فى مقال من قلم ناشر هذا الكتاب محب الدين الخطيب فى مجلته (الزهراء) المجلد ٣ سنة ١٣٤٥ صفحة ٨١ — ٩٩

لسلطان الوهابيين سعود بن عبد العزيز سياسة عجيبة فى تسيير الجيوش وجمها ، وسنبين لك نبذة من سياسته فى تجنيد الجنود وكيف استولى على ذلك الملك الكبير بحيلة نشر الدين وإماتة البدع

فصل فى تجنيد الجنود عند دولة آل سعود

وكيفية جمها وتسييرها

كان آل سعود أمة ضعيفة فقيرة ، وبلادهم ناشفة ليست مخصبة كريف مصر والعراق حتى يمكنهم جباية المال منها ، وكان لهم رياسة على العارض فقط . فلما اجتمع بهم عالمهم محمد بن عبد الوهاب النجدى فى القرن الثانى عشر حسّن لهم نشر الدين المحمدى ، وإماتة البدع ، ودس لهم دسيسة وهى أن هذه الحركات مما يحملكم ملوك الاسلام عموماً ، لأنه لم يبق فى ملوك الاسلام من ينكر المنكر ، فطاوعوه ، وكان رجلا داهية ذا علم ومكر ودهاء وخداع (١) ، وهكذا الدول لا تتأسس إلا بالسلطان والدين معاً . انظر مقدمة ابن خلدون . فاقتضى رأيهم أن يحاربوا القرية التى بقربهم مثلا ويدعونهم إلى ما هم عليه ، فحاربوها ، وأطاعهم قرى نجد جميعها ، وشروطهم التى

---

(١) هذا الاسلوب فى الكلام عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب يظهر أن المؤلف كان مضطراً اليه فى زمانه وبيئته . وانظر عن حياة هذا المصلح العظيم مقالة لناشر هذا الكتاب فى مجلته (الزهراء) المجلد ٣ صفحة ٤١٧ — ٤٣١

يشترطونها على من يدخل فى معتقدهم هى : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، والجهاد ، وأن تكونوا معنا على أهل البدعة وعلى الكفار وعلى قطاع الطريق . فلما يسمع منهم هذا الكلامَ العامىُّ يقول « هو الحق » ويعاهدهم على هذه الشروط ولكن لا يعلم ما وراءها ، فيفرضون على تلك القرية عشرين رجلاً مثلا فى كل حرب تساعدهم ، بشرط أن العشرين الرجل إذا وصلوا للمساعدة مع ابن سعود يكون معهم رواحلهم وزادهم الذى يكفيهم شهراً مثلا ، وأنهم يحضرون فى اليوم الفلانى مثلاً الذى يعينه لهم ساعة الطلب . فاذا أراد ابن سعود قتال قرية أو قبيلة فأولاً يرسل إلى القرى التى أطاعته ويطلب من كل قرية مقدار العسكر المفروض على تلك القرية أو القبيلة ، فيأتى إليه من هنا عشرون ومن هناك مائة ومن هنا خمسون مثلا وهكذا ، فتجتمع معه ألوف من الرجال محاربين بسلاحهم ورواحلهم وزادهم الذى يكفيهم شهراً ، فيسير بهم ويحارب القبيلة العاصية ، إلا أنه يحرص أن مدة سفره لا تزيد على الشهر المعين حتى لا ينفد زادُ العساكر المصحوبُ معهم من عند أهليهم فيحتاج الحال إلى أن سعود يمدُّهم بزاد من عنده ، فاذا حارب القبيلة العاصية وطوعها شرط عليها تلك الشروط المتقدمة أيضاً ، وهكذا ..

فلو فرضنا أنه أرسل إلى القبيلة الطائعة وطلب منها مقدار العساكر المفروضة عليها فأخرتها عن الميعاد يوما أو جاء بعض عسكرها ضعيفا

لا يقدر على الكر والفر أو كان زادهم قليلا أو كان بعضهم راحلته هزيلة فيغضب ويرد العسكر الى قريتهم وبعد رجوعه من تلك الغزوة أول ما يبدأ بتأديب تلك القرية التي خالفت عهوده وينكلها وينهبها وربما يقتل شيخها ، فلهذا صار متى أرسل لكل قرية أو قبيلة بطلب العسكر المفروض عليها فلم يكن لها بد من إحضار العدد المعلوم من أقوى الرجال على أفره الرواحل مع الزاد الذى يكفيهم المدة المعلومة، فتارة يعين المدة شهراً وتارة يعينها عشرين يوما وتارة عشرة وتارة شهرين ، وهكذا على حسب مقتضى الحال ، فبهذه السياسة صار يبلغ جيش ابن سعود إلى عشرين ألف مقاتل ، بل بلغنا أنه جيَّش خمسين ألف مقاتل فى بعض الأحيان ، وجميع هذه الجيوش وتلك الحروب لم يخسر فيها لا صفراء ولا بيضاء ، بل كل يحارب ومصرفه على نفسه سامعاً مطيعاً ، باذلا دمه وماله فى سبيل الله ، وذلك لحسن سياسة ابن سعود ولفصاحة الدعاة والوعاظ الذين حسَّنوا لهم ذبح أنفسهم فاستحسنوه . فانظر لهذه السياسة التى ملك بها جزيرة العرب أجمع بغير دراهم ولا دنانير ، ولم يفتح معدناً ولا جبى خراجاً ، بل كان كلُّ ما يحصله من الدراهم والمغانم فى غزواته ومن أثمان الجوهرات التى نهبها من كربلاء ومن الحجرة النبوية كان يدَّخرها ويصرف منها فى العمارات (١) وشراء الاسلحة للفداوية التى حوله ،

---

(١) وهذه هى سنة الاسلام وحكم شريعته فى هذه الأمور

وإلا فعسكره يحاربون بلا شهريات ولا قوت . ولما تحارب ابن سعود مع ابراهيم باشا المصرى وغُـلب ابنُ سعود فما غلب من قلة عسكر أو من عدم شجاعة عساكره أو من احتياج إلى مال ، إنما غلبه ابراهيم باشا بالمدافع والآلات الحربية الجديدة والنيران التى لا قبل له بها هو وجميع العرب ، وهذا أمر آخر — غير العساكر وغـير الشجاعة — يحتاج الى معارف وعلوم وصناعات وهندسة يجهلها الأعـــراب فى عصرنا هذا (١)

فهذه نبذة من حالات الوهابيين وأطوارهم ، وإلا فالعقل يحيـل أن دولة جسيمة مثل هذه تنشأ من بلاد فقيرة ، ولـكن كل من أمعن النظر يعلم أن الأسباب مربوطة بالمسببات كما هى عادة الله فى خلقه

ثم دخلت سنة ١٢١٨ ، وكان فيهـا الوباء الذى أفنىٰ أكثر أهـل العراق ، وكان مبدأه من سنة ١٢١٧ ، وكان يتنقل من بلد الى بلد . ومن قرية إلى قرية وبئس الضيف ، وهرب لأجله كل من له قدرة على الهرب إلى رءوس الجبال

ثم إن الوزير على باشا بعد ما ارتفع الطاعون دخل بغداد واشتد غضبه على أناس من الأجناد فنفاهم إلى كل الجهات وغرّبهم وأهلك بعضهم وهرب البعض إلى البرارى والقفار

ثم دخلت سنة ١٢١٩ ، فيها غزا ابنُ اخت الوزير سليمان بك على بادية الجبلين أجأ وسَلمىٰ وغنم نعماً وشاء ، فأحبه الوزير لذلك

---

(١) زد على ذلك جهل أهل المدينة يومئذ وظنهم أن ما عليه الدولة أرضى لهم ولله مما عليه اخوانهم النجديون

وجعله كتخدا بغداد

ثم دخلت سنة ١٢٢٠ ، وفيها تمكن الكتخدا سليمان بك من تنفيذ الأوامر والنواهي ، خصوصاً بعد قتل خالد بك وتعذيبه ، ونفى عبد الله أغا وتغريبه (١)

وفى تلك السنة قتل عبد الرحمن باشا الكردى محمد باشا والى كوى لما كان بينهما من الأحقاد ، ولذلك غزا الوزير ديارَ عبد الرحمن باشا الكردى فبدّد شمله وهتك بلاده وشرّده إلى العجم . وهذه الغزوة حضرها الوزير بنفسه من شدّة غيظه

وفى تلك السنة حاصر سعود بن عبد العزيز البصرة وقتل ونهب وحرّق ، ومتسلم البصرة إذ ذاك إبراهيم أغا قصاب وجالد بغاية جهده ، ثم فى آخر الأمر لحقه حمود بن ثامر بعربه وشدّ عضد المتسلم ورجع سعود إلى بلاده . وكان ابتداء غزوة سعود فى آخر السنة التى قبلها ، وهى التى قتل فيها أبوه عبد العزيز لاقطع الله يد من قتله ولا شلها (٢)

وفيها أغار سعود على آل (ظفير) ولم يبق لهم من شاة ولا بعير ،

---

(١) لعل عبد الله أغا هو الذى تقدم فى ص ٧٠ أنه كان متسلم البصرة وعصى وفرّ منها ثم أقبل سنة ١٢١٤ الى بغداد وأكرمه وزيرها سليمان باشا وأعاده متسلماً الى البصرة . وحادثة نفيه وقتل خالد بك التى يشير اليها المؤلف الآن لم يتقدم لها ذكر

(٢) لقد ذهبت اليد وصاحبها إلى من يحكم فى خلقه بما يستحقون

وهم أعراب من بادية نجد يشملهم هذا الاسم مع أن أصلهم من قبائل متفرّقة اجتمعوا وتحالفوا وتسموا بهذا الاسم ، ولكن رؤساؤهم وكبراؤهم والمسموعو الكلمة فيهم هم آل سُوَيط ـ كزُبير ـ وهم من بنى سُليم ، وهم بين سائر الأعراب مشهورون بالكرم والنجدة والنخوة والشجاعة ، وقيل « إذا كنتَ من تميم ففاخِر بحنظلة ، وكاثر بسعد (١) ، وحارب بعمرو . وإذا كنت من قيس ففاخر بغطفان ، وكاثر بهوازن ، وحارب بسُليم »

ثم دخلت سنة ١٢٢١ ، [وفيها] انتدب الوزير على باشا واستعدّ لمحاربة شاه العجم فتح على خان ، فخرج من بغداد فى عشر من ربيع الآخر بعسكر جرّار فيه من رؤساء العرب وبكوات الأكراد ما يهد به الجبال ، ودخل فى حدود ممالك العجم ، فلما تقارب الجيشان تقدَّم الكتخدا سليمان بك ابن أخت الوزير بطليعة فلاقته طليعة من عسكر العجم ورئيسها جبار الكرد عبد الرحمن باشا الذى كان طريداً فى أرض العجم (٢) ، فتناوشت الطليعتان الحربَ فكانت الكسرة على

---

(١) هم قوم الاحنف القائد الفاتح الحكيم

(٢) تقدم فى ص ٧٣ أن الوزير سليمان باشا عزل عبد الرحمن باشا الكردى وأخاه سليماً عن كوى وحريرا وحبسهما ببلدة الحلة فى القيود . وفى ص ٧٨ أن الوزير بلغه وفاة ابراهيم باشا فنصب مكانه عبد الرحمن باشا . ولم يذكر المؤلف بعد ذلك خبر خروج عبد الرحمن باشا الى أرض العجم طريداً

عسكر الكتخدا وأسر عبدُ الرحمن باشا سليمان بك ، فلما وصل هذا الخبر المسيء لخاله الوزير على باشا فُتَّ في عضده وانكسرت همته ورجع القهقرى الى أن تحصن في بعض الجبال هو وجيشه ، فلحقه حمود بن ثامر بعربه وقوّى عضدَ الباشا حتى أمن على نفسه وباقى جيشه ، ورجع إلى بغداد فى سلخ رجب من تلك السنة . ولما دخل الوزيرُ بغداد أكرم حموداً وأحسن جزاءه ، وكان قبل ذلك غضباناً عليه فجاءت هذه المساعدة وغسلت تلك البغضة وأبدلتها بالمحبة

وفى تلك السنة عاد الكتخدا سليمان بك وفرح خاله أشدّ الفرح وأطلقه سلطان العجم منّاً بلا سبب ، وما تمت فرحته بابن أخته إلا وقد دهمت الوزيرَ المنيةُ وقتل وهو يصلى قتله خدّامه ، ثم انهم قتلوا قاتليه ولكن هل تسد الكلاب فى الأسد ، وصار قتله رزيةً على الكتخدا ، إلا أنه تبدل الحزن بالفرح حيث ان ولاية بغداد بعده آلت إلى سليمان باشا الكتخدا ابن أخت على باشا الشهيد

وفى تلك السنة ورد على البصرة العالم العلامة والنحرير الفهامة الشريف العلوى المفضال الهمام الذى هو فى كل فن إمام السيد زين العابدين جمل الليل المدنى أبو عبد الرحمن عالم المدينة ، لكنه شافعى ، ولما ورد البصرة رويتُ عنه حديثَ الرحمة المسلسل بالأوّلية ، وقرأتُ عليه أوائلَ الكتب الستة ، وأسمعنى من مروياته ما صيرنى له مكاتَباً ، وأجازنى بمسندات ومعاجم ومشيخات مفيدة ، وناولنى

الثبت المسمى بالأمم لأبي الطاهر بن حسن الكوراني المدني، وكتب لي إجازةً دالة على طول باعه وتبحره في الفنون الحديثية، وذكر فيها بيتاً يدل على تواضعه ولطف طباعه وهو قوله :

أنا الدخيلُ إذا عُدَّت أصولُ علا
فكيف أذكر إسناداً لدى ابن سَنَدْ

ولما ورد بغداد في حياة الوزير علي باشا أفاد وأجاد، وروى عنه الاكابر والاصاغر طلباً لعلوّ الاسناد. وأما الوزير علي باشا فزاد في إكرامه، وبالغ في رفع مقامه. ومن إكرامه له الذي لم يكن لسواه أن الوزير اشترى للسيد كتباً كثيرة من سائر الفنون العلمية وأوقفها على باشا وجعل مقرّها تحت يد السيد ويد ذرّيته. وكان عزم الوزير على شراء أملاك بالمدينة المنوّرة وإيقافها على السيد المذكور، ولكن اخترمت الوزيرَ المنية ولم يفِ ابن أخته سليمان باشا بما أوصى به خاله

وممن استجاز من السيد زين العابدين جمل الليل في تلك السنة (داود باشا) الذي آلت إليه وزارة بغداد فيما بعد. فأجاز له رواية البخاري وفتح الباري وغيره من مسموعاته

ثم إن الوزير سليمان أمر السيد زين [العابدين] جمل الليل أن يقرأ شيئاً من البخاري رواية ودراية ليظهر فضله عند من لم يعرفه، فقرأ دروسا من البخاري أظهر بها فضله وقوة مدركه

ورجع السيد زين [العابدين] من بغداد على طريق البصرة ،

فلازمتُ خدمته ، واقتبست من آثاره . وتوجه من البصرة قاصداً طيبة من طريق البر

ودخلت سنة ١٢٢٢ ، وفيها تسلطن السلطان مصطفى بعد خلع السلطان سليم وقتله (١)

---

(١) ولد السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث سنة ١١٧٥ ، وتولى السلطنة سنة ١٢٠٣ بعد عمه عبد الحميد الأول كما تقدم فى هامش ص ٤٩ ، وكان قبل ولايته السلطنة معجباً بأوربا ولا سيما فرنسا ، مضافاً ذلك إلى إصغائه لأهل الخرافات وإصداره الأحكام والقرارات فى الأمور المهمة بتأويل الأحلام وتصديق المنجمين وأهل التمائم ، وكان على صواب فى أخذه عن أوربا صناعة الطباعة وغيرها ونظام الجيش توطئة للاستغناء فيما بعد عن نظام الينيشرية ، إلا أنه كان فى ذلك متردداً ولم يستعمل القوات الجديدة فى حرب الروس بل تركها معطلة ، وارهق الأمة لأجل ذلك بالضرائب وغلاء المعيشة فكثر أعداؤه وكان أصدقاؤه منافقين مداجين ، وبعد أن لبث فى السلطنة ١٩ سنة و ٧ اشهر و ١٠ أيام ثار عليه الينيشرية وانضم اليهم الرعاع فأرغموه على قتل أصدقائه ، ثم خلعوه وولوا ابن عمه السلطان مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول يوم ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٢٢ . والسلطان مصطفى مولود فى سنة ١١٩٣ ، وكان جاهلا أحمق ، ولم تكن له أية مزية تؤهله لهذا المقام ، وتمرّد فى زمنه الينيشرية وزادت بهم الدولة ضعفاً . ومع أن مصطفى باشا العلمدار كان من أنصار خالعى سليم الثالث إلا أن ما وصل اليه حال الدولة بعد ذلك أقنعه بأن من الخير إعادة

ثم دخلت سنة ١٢٢٣ ، وفيها ورد الخبر بتسلطن السلطان محمود ابن عبد الحميد قمر الزمان وخل بنى عثمان باتفاق عدوّه وصديقه ، وهو الذى جدد لبنى عثمان ملكاً جديداً بعد أن آلت دولة بنى عثمان إلى الاضمحلال من الفتن الداخلية والخارجية ، ولو لم يكن من فضائل السلطان محمود إلا إزالة رأس المبتدعة وهو سعود وآله الوهابيين لكفاه فخرا [١] وذلك أن السلطان محمود لما تحقق عنده مقدار فتنة

= السلطان سليم الذى كان محبوساً فى القصر السلطانى هو وابن عمه محمود الثانى ابن عبد الحميد الاول ، فلما أيقنت حاشية السلطان مصطفى بأن مصطفى باشا العلمدار جاء ليعيد سليما الثالث قالوا للسلطان مصطفى ان بقاءه على العرش متوقف على قتل سليم الثالث ومحمود ، وبالفعل فتكوا بسليم الثالث ففارق الحياة ، وتمكنت خاصة محمود من تهريبه من داخل مدخنة الى سطح القصر ، ثم وصل الذين يريدون اغتيال محمود فقذفتهم جارية اسمها (جورى) برماد فى عيونهم الى أن تمكن مصطفى باشا العلمدار من القبض على السلطان مصطفى الرابع بعد أن لبث فى السلطنة أربعة عشر شهراً ونحو نصف شهر ، وكان ذلك اليوم آخر عهده بالحياة (أوائل جمادى الأول ١٢٢٣) ، وأعلن مصطفى باشا العلمدار ولاية محمود الثانى سلطنة آل عثمان

(١) المؤلف يناقض هنا ما قرره واعترف به فيما مضى . أليس هو القائل فى كتابه هذا (ص ٨٠) : « ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتوا البدع ومحوها » ، ومع ذلك فان سلطنة آل عثمان هى التى أراد الله لها الزوال لأنها لم تكن جديرة بالبقاء ﴿ فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ﴾

الوهابيين وما سيأول اليه أمرها وتحقق عنده أنهم ملكوا الحرمين الشريفين ونهبوا أموال الحجرة الشريفة وذخائرها الملوكية التى منها الكوكب الدرّى وهو الحجر الألماس الملصق جهة الرأس الشريف، وكان أهداه السلطان أحمد العثمانى فأخذه سعود بن عبد العزيز ثم رده منهم ابراهيم باشا لما حارب الدرعية (١) . وأما باقى الذهب والجوهرات القديمة التى بعضها من ملوك الهند التيموريين وبعضها من ملوك بنى عثمان وبعضها من ملوك الجراكسة وبعضها من ملوك بنى سلجوق فلم يرجع من ذلك شئ . ويقال إن سعوداً أرسلها الى الهند وباعها هناك فكأن ثمنها صار عليه بالدمار والبوار (٢) . وبلغ مسامع السلطان محمود أن الوهابيين سفكوا دماء المسلمين وكفروا من عداهم

---

(١) بقى الكوكب الدرى موجوداً بالمدينة الى الحرب العالمية الأولى، وكان الحسين بن على يصرخ فى أقطار الأرض بأن فخرى باشا قائد العثمانيين فى المدينة نهبه . وحكم الشريعة فى هذه الأشياء معروف

(٢) كان الخلفاء الراشدون وأئمة الاسلام فى القرون الثلاثة الاولى التى قال فيها النبي ﷺ « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » يرون تعظيم النبي ﷺ ومحبته باقامة شرعه وتحقيق رسالته بقدر الامكان، أما الملوك من ذرية تيمور وبنى عثمان والشراكسة وبنى سلجوق فكانوا يتسامحون فى تعطيل الشريعة وانحراف الدولة عن نهج الرسالة، ويعربون عن تعظيمهم ومحبتهم بالألماس والجوهرات والذهب، والله يعلم من أين اكتسبوا ذلك

ممن قال لا إله إلا الله وتيقن عنده أنهم منعوا حجاج مصر والشام قائلين ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ [١] فحينئذ شمّر عن ساعد الجد، وأمر تابعه محمد على باشا والى مصر بأن يجهز جيشاً لمحو الوهابيين وإعدام دولتهم من الدنيا .
ثم إن محمد على باشا أرسل جيشاً إلى الحجاز من البر والبحر ورئيسهم أحمد طوسون باشا ابن محمد على فوصلوا إلى ينبع وتقدموا لطرد الوهابيين من المدينة أولا ؛ فلما سافروا من ينبع ووصلوا الصفراء فهناك التقى الجمعان واشتد القتال بين الفريقين فكانت الكسرة على عسكر محمد على باشا ورجعوا إلى ينبع مهزومين ، ولكن الذى كان منصوراً أولا هم عسكر محمد على باشا ، ولما ورد مدد للوهابيين من طريق المدينة - وهو سيف بن مضيان ومعه عرب الظواهر من بنى حرب - فلما رأى عسكر المصريين كثرة الرايات ظنوا أن ابن سعود بنفسه حضر فانهزموا ورجعوا الى ينبع ، وهذه الواقعة كانت سنة

---

(١) تقدمت فى ص ٦٩ رسالة سعود بن عبد العزيز عن تأمين الحجاج وغيرهم ، ويقول فيها إنهم قاتلوا لاجل تحقيق الأمان حتى جعلوا الارض كلها لله وجميع المسلمين مشتركين فيها وصار الذئب لا يقدر أن يضر الشاة .
ولم ينس القارئ قول المؤلف نفسه فى ص ٨٠-٨١ : « ومن محاسنهم أنهم أمنوا البلاد التى ملكوها ، وصار كل ما كان تحت حكمهم من هذه البرارى والقفار يسلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر ، خصوصاً بين الحرمين الشريفين » .

١٢٢٨ ، ولما بلغت الهزيمة محمد على باشا أرسل لهم مدداً فى الحال وقوى عزائمهم بالرجال والمدافع فنهدوا الى الصفراء مرة ثانية ، وساعدهم على دخول تلك الجبال والمضايق قبائل بنى حرب خصوصاً الأحامدة وشيخهم وصلا ، فخيم عسكر المصريين فى الصفراء وصارت بينهم وبين للوهابيين حرب ثانية انكسر فيها الوهابيون وانهزموا وقد داخلهم الخوف والرعب من صوت المدافع ترنّ بين الجبال ولها دوىّ وما كانوا سمعوا مثلها قط ، فرقّموا عسكرهم من هذه الجهات وحصنوها فى المدينة داخل القلعة وداخل السور الجوّانى وعلى زعمهم أنها تحصنهم ، وكانوا نحو عشرة آلاف يسمونهم المرابطية يعنى المجاهدين ، فلما لم يجد أحمد طوسون باشا من يقاتله أرسل صالح أغا الكاشف ومعه ثلاثمائة خيال يستكشف له حال العدوّ فى الطرقات فتوجه قاصداً المدينة ولم يجد فى طريقه من يعارضه إن أن وصل إلى ذى الحُليفة ـ المسماة الآن بأبيار علــى ـ بينها وبين المدينة ساعة واحدة وهو متعجب من كونه لم يلاق أحداً من الأعداء ، وبقى فى ذى الحليفة متحيراً ماذا يصنع . وكان من عجائب الاتفاق أن هؤلاء الثلاثمائة الخيال ـ بانضمام أهل المدينة اليهم ـ أخرجوا الوهابيين من المدينة وفتحوها من يد المرابطية عنوة ، وذلك أن الوهابيين لما علموا بقدوم عسكر محمد على باشا الى ينبع أمروا باخراج جميع أهل المدينة الجوّانية وقالوا : من وجد فى بيته بعد أربع وعشرين ساعة فدمه هدر . فخرج جميع الأهالى بحالة شنيعة وما معهم من أموالهم إلا ما

خف حمله ، وتركوا بيوتهم بفرشها وأثاثها وما فيها من المأكل والمشارب ، ونزلوا فى المناخة ، فمن عنده معرفة أو قريب نزل عند معرفته ومن لم يكن عنده معرفة نزل فى أى بيت مفتوح ، وصار أهل المناخة يقبلون أهل المدينة الجوانية ويرحبون بهم ويدخلونهم بيوتهم ولو لم يكن بينهم سابق معرفة ، لأنه أصاب الناس فى تلك الشدة تحابب ومودة لم تخطر بالبال لاتفاقهم فى المصائب ، ولا أحد يعلم ما يحدث بين العسكرين ، واشتد الغلاء على الناس لأن الوهابيين أخذوا جميع الأقوات نهباً وحصروها عندهم فى المدينة الجوانية وسكنوا فى بيوت أهل المدينة على فرشهم وأثاثهم ظلماً ، ولكن صار هذا الطرد واخراج أهل المدينة الجوانية من بيوتهم هو عين الرحمة لهم لأنهم انجمعوا على بعضهم ، وأرسلوا رسولا من طرفهم الى صالح كاشف أن يقدم عليهم ليلا وهم معه ، وأظهروا له بغض الوهابيين وعداوتهم ودلوه على عورات الوهابيين ، إلا أن الكاشف لا زال قلبه غير مطمئن ويظن أنها مكيدة من أهل المدينة ويريدون بقدومه عليهم أن يسلموه إلى جيش الوهابى ، ولكن لما كثر الوفود عليه من أهل المدينة اطمأن قلبه ودخل المدينة بعسكره ليلا . وسبب دخوله ليلا أنه لو دخلها نهاراً يضربه الوهابيون من القلعة بالمدافع لأن القلعة ومدافعها كانت فى يدهم وهى مرتفعة على جبل وتصل مدافعها الى ما بعد العقيق . ولما دخل الكاشف فى المدينة تلقاه أهلها بالترحيب والاكرام وانضموا مع عسكره ، وكان فى أهل المدينة رجال

معدودون بالشجاعة فصار مجموع عسكر الكاشف مع أهل المدينة نحو سبعمائة رام ، وأهل المدينة مع شجاعتهم أدرى بمخبآت بلدهم وطرقها - كما يقال : أهل مكة أدرى بشعابها - ولكن فى هذه المدة لا يمكن لأحد من أهل المدينة أن يظهر فى المناخة . لأن كلّ من لاح للوهابيين يضربونه بالرصاص من السور الذى عند سيدنا مالك ، حيث ان أهل المدينة قد تظاهروا بالعداوة مع الوهابيين ، وصاروا يبيعون ويشترون ، ولهم سوق مخصوص فى العنبرية ، ولا يمرّون إلا من الأزقة والعطفات . ومن لطف الله بأهل المدينة أن الوهابيين لا يحسنون ضرب المدافع على الوجه الأتمّ وإلا لأهلكوا أهل المدينة

ثم ان أهل المدينة اتفق رأيهم مع الكاشف على أن يحضروا لغماً من تحت الارض ، فحضروه من جهة مسجد سيدنا على قاصدين سور سيدنا مالك ، إنما استشعر الوهابيون بذلك فحضروا هم أيضا لغماً من عندهم وتلاقى اللغمان تحت الأرض ، وهناك تجالدت الابطال

ثم ان أهل المدينة لما علموا أن مكيدتهم ظهرت عدلوا عن ذلك المحل وشرعوا فى حفر لغم آخر من جهة أول درب الجنائز ، ولكن قصدهم به أن يشغلوا أفكار الوهابيين ليضيّعوا فراستهم . وفى الحقيقة أهل المدينة حفروا لغماً ثالثاً من حوش النخاولة يتصل إلى السور المجاور للحمام واهتموا به فى مدة قريبة ، والوهابيون مستعدون من جهة اللغم الذى فى أول درب الجنائز ، فما يشعرون فى يوم الجمعة إلا

واللغم الذى عند الحمام قد طار وصار له صوت هائل ، وانقلب السور من هناك ، وكان جميع أهل المدينة وعسكر الكاشف مستترين فى حوش النخاولة من الليل ، فلما انهدم السور من هناك كبر أهل المدينة مع عسكر الكاشف وهجموا على داخل البلدة واستحرّ القتل بين الطرفين ، ولفطانة أهل المدينة ما صاروا يهجمون على الوهابية من الشوارع والأزقة بل صاروا يتسلقون عليهم من أعلى البيوت وينقبون عليهم السقوف والحيطان

وأول المعركة صارت فى (ذَرْوان) ، ثم فى البيوت التى حول الحرم ، ولا زالوا ينقرون عليهم ويهزمونهم إلى أن حصروهم فى القلعة ، وقد أنزل الخوف والجبن على الوهابيين فى ذلك اليوم مع شهرتهم بالشجاعة والإقدام وأما فى هذه المعركة فكأن الله ربط على أيديهم حتى إنه صار المدنىُّ الواحد يقتل جملة من الوهابيين وهم ساكتون لا يتحركون ، وانهزموا وتشتت شملهم ، ودخلوا القلعة وانحصروا فيها ، وأهل المدينة قطعوا عنهم العين ، والأقوات تركوها فى بيوت أهل المدينة ، فطلبوا الأمان لأنفسهم ونجوا إلى نجد وتركوا القلعة مشحونة بأموالهم التى نهبوها من العالم فى مدة سنين واستولى أهل المدينة على القلعة والأسوار وضبطوها ، ودخل الأهالى المطرودون فى المناخة الى بيوتهم ، وذلك فى سنة ١٢٢٩ ، فمنهم الذى وجد أمتعته منهوبة ومنهم الذى وجد أمتعته زائدة ، أى ان الوهابيين نهبوا من بيت زيد وكان مقرّهم فى بيت عمرو فنقلوا متاع زيد إلى بيت

عمرو ، وصار أهل الديانة منهم إذا وجدوا متاعاً غير متاعهم يعرّفون عنه الى أن يجدوا صاحبه ، وأقرّ الله عيون أهل المدينة بل وسائر المسلمين بفتح المدينة وإرجاعها إلى حوزة الدولة العلية ، وصار الكاشف يتعجب من قوة إقدام أهل المدينة ومن شدّة هجومهم وتسلقهم على الوهابيين بطرق مثل البهلوانية إلى أن صار المدنى يطلع على الوهابيين من وسط البئر ، يعنى ان البئر تكون مشتركة بين بيتين فيدخل المدنى من البيت الآخر وينزل فى البئر ويصعد على الوهابيين من داخل البئر فينبهرون ويظنونه جنياً لأن أغلب عسكرهم بدو همج لا عقول لهم ولا معرفة عندهم . ولكن استشهد كثير من أهل المدينة ممن رزقه الله الشهادة فى ذلك اليوم المبارك ، وكل هذا وأحمد طوسون باشا [وجيشه] ما عندهم علم بتلك المحاربات ولا بالمحاصرة ولا بالألغام ، ولا كان يتصوّرُ العقل أن سبعمائة رجل يحاربون عشرة آلاف داخل الحصون والقلاع ويخرجونهم من حصونهم ، وما أظنها إلا معجزة نبوية لطرد هؤلاء البغاة . ولو علم محمد على باشا أن الأمر هكذا سهل ما كان جهز نحو عشرين ألف عسكرى من البحر والبر

وكان السلطان محمود مهتما جداً بأمر محاربة الوهابيين ومستعظما جيوشهم ، ولا يعتقد أن محمد على باشا بعسكر مصر ينهض بهذا الحمل الثقيل ، حتى أن السلطان عزم على تجهيز جيش آخر من طريق والى الشام ، وجيش ثالث من طريق والى العراق ليتساعد الكل على طرد

الوهابيين من الحرمين [١] ، لما كانوا يشاهدونه ويسمعونه من قوة الوهابي وضخامة جيوشه وإطاعة جزيرة العرب بأسرها له ، ثم انه آل الأمر أن يكسر جيشه سبعمائة رجل كما قدمناه ويخرجونه من أعزّ الحصون لديه

وبعد ذلك طارت النجاجيب [٢] من المدينة براً وبحراً بالبشارة الى محمد على باشا والى السلطان محمود من طريق مصـر ومن طريق الشام ، وأرسلوا أيضاً مفاتيح الحجرة الى السلطان محمود، فتلقاها من

---

(١) أى ليتعاونوا جميعاً على خنق هذه الدعوة فى مهدها ، ويحولوا بين المسلمين وبين الرجوع بالاسلام الى بساطته ونقائه الذى كان عليه فى الصدر الأول ، وليطمئنوا على بقاء البدع المتراكمة فى العالم الاسلامى منذ أكثر من ألف سنة ، وبذلك يقضى القضاء الأخير على المحاسن التى اعترف بها المؤلف فى آخر ص ٨٠ من هذا الكتاب وفى ص ٨١ وما بعدها . زد على ما تقدم أن دولة آل عثمان تطمئن بذلك إلى أن العرب لا تقوم لهم دولة صالحة ، وذلك من أعظم ما كانت تخشاه هذه الدولة التى أخنى عليها الفساد ، وقد تقدمت الاشارة الى هذا المعنى فى ص ٤٢ بقلم العلامة الشيخ أمين الحلوانى الذى كان مدرساً فى الحرم النبوى الشريف فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر

(٢) جمع نجاب وهو حامل البريد على جناح السرعة . أخـذوه من « النجيب » وهو من الابل القوى الخفيف السريع ، فاصطلحو على تسمية راكبه الذى يحمل البريد نجاباً ، ثم سمى كل من يحمل بريدا سريعا نجابا

(اسكدار) بالموكب والمباخر والعلماء والصلوات على النبي ﷺ ، وصنعوا زينة فى اسلامبول ، وأرسلت الدولة إلى كل ممالكها بهذه البشارة العظمى ، وصار يوم خروج الوهابيين من المدينة عيداً عند جميع الأمة المحمدية

ثم بعد ذلك قدم أحمد طوسون باشا بجيشه ، فخيم عرضيه (١) خارج المدينة ، وأقبل الخير والرخاء على أهل المدينة وأبدلهم الله بعد العسر يسرا بسبب الذخائر المجلوبة مع عسكر المصريين ، وتبدل الحزن بالفرح والشدة بالرخاء بعد ما صار أردب القمح بمائة ريال فى مدة الحصار الأولى عند تملك الوهابيين للمدينة وعند مدة الحصار الثانية يعنى عند إخراجهم من المدينة ، وكان مدة تملك الوهابيين للمدينة سبع سنوات

ثم ان السلطان محمود لم يكتف بهذا الفتح ، بل أمر محمد على باشا أن يستأصل ملك الوهابيين عن آخره وأن يبيدهم ويمحو ذكرهم

---

(١) أى معسكره ، وهو تعريب (أوردو) أى المعسكر . ولغة الأوردو المنتشرة فى الهند معناها (لغة المعسكر) لأن الهند ليس لها لغة واحدة بل تزيد لغاتها على ٢٥٠ لغة ، وتولدت لغة الاوردو فى المعسكر الذى يجمع أمما ولغات ، فنشأ عن تفاهمهم بألفاظ متقاربة ومشتركة تولد لغة جديدة فيها ألفاظ عربية وفارسية وهندية سموها « لغة الاوردو » أى لغة المعسكر

ورسمهم من الدنيا ، فحينئذ عرف محمد على باشا أن ابنه طوسون لا يسد فى هذا المهم ، فأمره بالرجوع إلى مصر وأرسل أسد الديار المصرية ابنه الآخر ابراهيم باشا فجاء ومعه من عسكر الأكراد والأرنؤوط وعرب مصر الهوّارة ما يدك به الجبال ، وقصد نجداً لمحاربة عبد الله بن سعود ، وذلك الحرب يطول شرحه ولا يسعه هذا المختصر وله تواريخ مخصوصة به ، إنما ملخصه أنه هدم الدرعية ، وقطع نخلها ، وأسر عبد الله بن سعود وأرسله إلى أبيه بمصر ، وأبوه أرسله الى السلطان محمود وقد صلبه السلطان ، وأما باقى عائلة ملوك الوهابيين المعبر عنهم بآل المقرّن وباقى بيت الشيخ محمد بن عبد الوهاب فانه نقل الجميع الى مصر وأسكنهم هناك ورتب لهم معاشات تكفيهم

بيان أخبار الوهابيين على الاجمال [1]

لما أسر ابراهيم باشا عبدَ الله بن سعود ونقله وعائلة الملك الى مصر سنة ١٢٣٣ انفلتَ من يد ابراهيم باشا تركىُّ بن عبد الله بن

---

(١) العنوان فى طبعة الهند سنة ١٣٠٤ مدرج مع ما قبله ، وكلمة «بيان» التى فى العنوان بأولها واو برسم «وبيان» ، ولعل أصل هذه الواو قوس مما اصطلح المختصر الحلوانى على وضعه فى أول زياداته وسيأتى فى ص ١٠٦ ما يدل على أن هذا الفصل من كلام الحلوانى ، فيكون خطاط المطبعة الهندية أخطأ بجعل القوس واوا

سعود وبقى متنقلا مستتراً من قرية الى قرية ومن قبيلة الى قبيلة ، والعساكر المصرية لا زالت منتشرة فى أرض نجد الى سنة ١٢٣٩ ، فثار تركى بن عبد الله بن سعود طالباً لملك آبائه ، وتبعه جم غفير ، وملك نجداً ، وجدّد ملك أسلافه ، وطرد منها عسكر المصريين ، وبقى فى ملك نجد عشر سنوات . وفى أثناء تملكه فرّ من مصر ابنه فيصل ولحق به فى نجد

ثم انه ثار على تركى ابنُ اخته مشارى - وهو من عائلة المقرّن - وقتل خاله تركياً بن عبد الله بن سعود واستولى على إمارة نجد فى ذى الحجة سنة ١٢٤٩ وبقى أميراً على نجد أربعين يوماً ، وكان إذ ذاك فيصل بن تركى معه جيشه غازياً البحرين ، فلما بلغه قتل أبيه رجع مسرعاً إلى الدرعية وحاصر مشارى - ابن عمته - وقتله وتسلطن فيصل بن تركى سنة ١٢٥٠ وبقى أميراً على نجد الى سنة ١٢٥٣

ثم ان محمد على باشا والى مصر خاف من رجوع دولة الوهابيين كما كانت ، فارسل جيشاً وعليه اسماعيل بك ، فلما وصل الجيش الى الحوطة حاربه أهل الحوطة ومعهم عسكر فيصل ، فانكسر اسماعيل بك وتشتت جيشه ، فجهز محمد على جيشاً آخر ورأس عليهم خورشيد باشا [1] وكان من الدهاء ومعرفة الحروب وأساليبها على جانب عظيم ،

(١) فى هامش الأصل المختصر : وتوفى خورشيد باشا بمصر فى حدود سنة ١٢٦٥ ، وخلف أولاداً أنجبهم ابراهيم باشا حليم وهو الذى حذا حذو والده فى مكارم الاخلاق وعلوّ الهمة والنباهة الخ

فتوجه الى نجـــد وملكه وحاصر فيصلا فى بلدة تسمى (الخَـرْج) وأرسله الى محمد على باشا بمصر وبقى محبوساً فى قلعة الجبل الى أن هرب منها متدلياً بالحبال سنة ١٢٥٩

وأما محمد على باشا فانه لما حبس فيصلا أرسل خالدَ بن سعود بن عبد العزيز أميراً على نجد وبقى أميراً الى سنة ١٢٥٧ ؛ ثم ثار عليه عبد الله بن ثنيان — وهو من آل المقرّن أيضاً — وهو والد عبد الله باشا بن ثنيان المقيم الآن فى اسلامبول ، ففرّ خالدٌ هارباً من الدرعية الى الحسا ، وملك نجداً عبدُ الله بن ثنيان وبقى أميراً الى سنة ١٢٥٩ ، فلما رجع فيصل هاربا من مصر المرّة الثانية ووصل الى جبل شمّر ساعده أمير جبل شمر عبد الله بن رشيد إلى أن أوصله إلى عُنيزة من أرض القصيم ، ثم وفد عليه قومه أفواجا ، وشكل منهم جيشاً وقصد الدرعية وحاصرها على ابن ثنيان ستة أشهر فملكها وقتل عبد الله بن ثنيان ، وبقى فيصل أميراً على نجد من سنة ١٢٥٩ الى سنة ١٢٨٢

وقد وفد عليه والدى (١) سفيراً من طرف أمير مكة الشريف عبد الله بن عون سنة ١٢٧٩ ، وسببه أن فيصلا منع خراج الدولة الذى كان مرتباً عليه ، فأرسل الشريفُ عبد الله والدى رحمـه الله

---

(١) نرجح أن المتكلم هو الشيخ أمين الحلوانى وأن سفير شريف مكة الى نجد والده الشيخ حسن الحلوانى ، وانظر تعليقنا على أول هذا الفصل فى ص ١٠٣

سفيراً إلى فيصل لينصحه فى إرسال الخراج ، فلما وصل والدى إلى فيصل أكرم نزله ولاقاه بغاية التكريم والتبجيل ، فحذره والدى سطوة الدولة العلية إذا التفتت إلى أحد وأنه لا يغترّ من سكوتها ومن حلمها . فلعله تنوّر بتلك المواعظ ، فانه أرسل الخراج المرتب عليه. وقد كتب والدى رحمه الله رحلة فى سفرته هذه بجميع ما رآه من يوم خروجه من مكة إلى أن عاد اليها نحو العشرة الكراريس

ثم إن فيصلاً لما توفى سنة ١٢٨٢ ترك أولاداً - وهم عبد الله ومحمد وسعود - ولكنهم تنازعوا ووقع الفشل بينهم ، قال الله تعالى ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ وبسبب منازعتهم مع بعضهم تسلطت عليهم الدولة العلية ونزعوا الحسا من يدهم ولم يبق فى يدهم إلا بعض قريات - مثل الدرعيـــة والوشم وما والاهما - ومع ذلك فتسلطنهم فيها رسمى فقط . وجميع أخبار الوهابيين [1] بعضه نقلته من تاريخ الشيخ عثمان بن سند هذا ، وبعضه تلقيته من أفواه من لقيتهم من المعمّرين من أهل تلك الجهات

واعلم أنه بقى لعائلة الوهابيين بقية فى مصر ظلوا فيها برغبتهم لأنه صار لهم أولاد وأملاك فى مصر ، مثل الشيخ عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الوهاب النجدى ، وله أولاد منهم أحمد الأجرجى [2] ، وعبد

(١) أى الواردة فى هذا الفصل من ص ١٠٢

(٢) أى الصيدلى

الله كاتب فى قلحة الوجه

ومن الذين بقوا فى مصر أحمد ابن الشيخ عبد اللطيف بن حسن ابن محمد بن عبد الوهاب

وأما الشيخ عبد الرحمن المذكور فقد أدركته فى الجامع الازهر يدرّس مذهب الحنابلة وكان شيخ رواق الحنابلة سنة ١٢٧٣ وتوفى فى سنة ١٢٧٤ وكان عالماً فقيها ذا سمت حسن يظهر عليه التقوى والصلاح

ولنرجع إلى أخبار ولاة بغداد (١)

ولما تولى الوزارة سليمان باشا القتيل سار سيرة حسنة فى أهل بغداد ، ورغب فى الفنون ، ونكب عن الابحاث الفلسفية التى كان مشتغلا بها فى أول عمره ، ومنع العمال عن الرشا والهدايا ، وكان يعاقب على ذلك أشد العقاب ، ويتجسس على من يفعلها

وممن حظى عنده بالتقرب شيخنا وأستاذنا علامة العراق الشيخ على بن محمد السويدى (٢) ، ومن كمالاته أنه لما صدّره ذلك الوزير

---

(١) لعل هذا الموضع هو آخر كلام الشيخ أمين الحلوانى الذى ابتدأ فى ص ١٠٣

(٢) هو حفيد السيد عبد الله بن الحسين السويدى (١١٠٤ - ١١٧٤) الذى قام بمؤتمر النجف فى شوال سنة ١١٥٦ تحت إشراف نادر شاه واعترف فيه مجتهدو الشيعة بأمامة الشيخين أبى بكر وعمر وولاية أصحاب =

ازداد تواضعاً ـ خصوصاً للفقراء ـ ولولا الشيخ السويدى لهلكت البصرة ، وسببه أن متسلمها كان ظالماً جائراً مخرباً للأملاك منفراً للزارعين ، ولكن من فضل الله أنه كلما جار عليها من جهة ترفع الأمر الى الشيخ السويدى فكان يمنعه بواسطة الوالى . وسمعته يقول انه عباسىُّ النسب ، وأفعاله دالة على صحة نسبه

ودخلت سنة ١٢٢٤ ، وفيها غزا الوزير سليمانُ القتيلُ ديارَ بكر بجيش عظيم لتأديب آل الضفير (١) وقبيلة من عنزة كبيرهم الدريعى ، وكان خروجه من بغداد فى الخامس والعشرين من المحرم ، فلما جاوز الموصل شنَّ الغارة على أهل سنجار فصبَّح القرية المعروفة بالبلد وغنم وسبى

= رسول الله ﷺ . أما حفيده على بن محمد بن عبد الله السويدى الذى تعرض المؤلف لذكره فان له ترجمة فى المسك الاذفر للسيد محمود شكرى الالوسى وفى غرائب الاغتراب للشهاب الألوسى صاحب التفسير . توفى الشيخ على السويدى بدمشق ليلة ٢٧ رجب سنة ١٢٢٧ ودفن فى سفح جبل قاسيون

(١) هم من قبائل نجد التى هاجرت الى العراق فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ، قال الاستاذ عباس العزاوى فى كتابه (عشائر العراق) ١ : ٢٩٥ : وهم فى الاصل قبائل متعددة تضافرت وكونت مجموعة تمكنت من المحافظة على كيانها . وقال : ان القسم الكبير منها يتجول فى الجانب الغربى من الفرات بين الزبير وأنحاء السماوة (وقد وسمناها فى ص ٨٨ بالظاء ، الظفير ، تبعاً لكتاب ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ثم عولنا هنا على تحقيق الاستاذ العزاوى)

وتحصن أهلها بثنية من ثنايا سنجار لا يمكن الوصول اليها إلا بعسر شديد . ثم توجه الوالى إلى آل الضفير والعنزيين ، فلما وصل إلى البلدة المعروفة بالعين ـ وهى كما فى القاموس : بلدة بين حرّان ونصيبين ـ جاءه رسول من رئيس عسكره الذين فى ماردين يطلب منه المدد ويستصرخه ، فلم يكن له بد من إمداده بنفسه ، وعند ذلك أرسل أخاه من الرضاعة أحمد بك بباقى العسكر إلى آل الضفير وتوجه هو إلى ديار بكر ، فلما وصل إلى قرية يقال لها ديرك حاصرها ، فأظهر أهلها الطاعة وأدّوا ما عليهم من الخراج ، وتوجه منها الى ماردين ، ولما وصل قريباً منها جاءه أخوه من الرضاعة أحمد بك وقد كسره آل الضفير وقتلوا من عسكره خلقاً كثيراً ، فأراد الوزير الكرّة على آل الضفير ولكن عسكر الأكراد تخلفوا عنه فلذلك نأى عن قتالهم فى هذا الوقت وانفتل راجعاً

ولما وصل الموصل أقام فى الموصل ثلاثة أيام ، وبلغ الوزيرَ أن أكابر بنى عبد الجليل أمراء الموصل الأقدمين أرادوا إخراج وزيرهم أحمد باشا ، فأقام الوزير سليمان ليصلح حالَ وزير الموصل ، فاشتد الحربُ بين والى بغداد وبين أهل الموصل ، ثم إن والى بغداد لما رأى تصلب أهل الموصل وعصبيتهم ونظر الى عسكره فوجدها لا تقدر على صدّهم تأخر عن الموصل مسافة ساعتين ، فلم يمكن لوالى الموصل الاستقرار بعده فلحق بالوزير سليمان باشا ، فلما أراد والى

بغداد العود إلى بغداد ترك مع أحمد باشا والى الموصل جملة من عسكره ليشدوا أزره

ولما وصل الوزير إلى بغداد غرّب خازنداره عبد الله بك ونفى معه طاهر بك الى البصرة لأمور نقمها عليهما، ثم أرسل سليمان باشا الكردى مساعداً لأحمد باشا والى الموصل، وكذلك أمر متصرف العمادية زبير بك أن يرسل عسكراً لمساعدة والى الموصل، فلما تكاملت العساكر عند أحمد باشا والى الموصل أخذ يحارب بنى عبد الجليل فنصره الله عليهم وأسر الأمير عثمان أحد بنى عبد الجليل. وما كاد أن يتم الأمر لأحمد باشا ويملك الموصل إلا وقد أصابته رصاصة من بعض عسكر بنى عبد الجليل كانت فيها منيته

ولما بلغ الوزير سليمان باشا قتله أرسل أخاه من الرضاعة أحمد بك - الذى ولاه حكومة البصرة - بعسكر ليحاصر الموصل وينتقم من الباغين على واليهم أحمد باشا . ولما وصل إلى إربل أمر بعض من معه من العشائر أن يغيروا على بعض قرى الموصل، ثم وجهت الدولة إيالة الموصل إلى الأمير محمود بن محمد باشا - أحد بنى عبد الجليل - فقفل أحمد بك من إربل ودخل بغداد

وفى سنة ١٢٢٥ بان للوزير سليمان باشا القتيل أن سليم بك متسلم البصرة راسل الدولة العلية طالباً ولاية بغداد وشهر زور والبصرة، فلما تحقق لديه ما بان ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فراسل حمود

ابن ثامر طالباً منه أن يخرج سليماً من البصرة ، فتكاسل حمود عن ذلك ليتبين الحال ، لأن سليم بك أفهمه من قبل أن الرئيس أقبل من طرف الدولة بعزل سليمان باشا وتوجيه إيالة بغداد لى ، وقد قيل إن حموداً متباطن مع المتسلم فى ذلك ، فكان من قدر الله أن حموداً لما استبطأ أوامر الدولة مع ترادف رسل الوزير سليمان باشا إليه قرّب بجيشه من البصرة ، وكان سليم بك متحصنا فى المراكب وله عسكر أيضاً على أسوار البلدة وأبوابها ، فاستنهض حمود سكان بلدة الزبير من النجديين فنهضوا معه وحاصروا البصرة مع برغش بن حمود ، وخان بعض العسكر الداخلين وفتحوا أبواب السور ، فسُقط فى يد سليم وبقى فى المراكب أياماً ثم سلمها وسافر فى مركب إلى بلدة أبى شهر وهى فرضة شيراز على الخليج الفارسى

وفى تلك السنة ورد ـ بعد ما فرّ سليم ـ أحمد بك أخو الوزير متسلماً للبصرة

وفيها ورد البصرة الشيخ على بن محمد السويدى [1] ، أرسله سليمان باشا الوزير إلى حمود بن ثامر قبل فتح البصرة لكونه من خواص الوزير المناصحين له ، فكفّ الله به عن أهل البصرة ما عسى يتوقعونه من حاكمها أحمد بك لأنه كان فى غاية من سوء التدبير ، ولما ورد المتسلم المشار إليه البصرة جاء خبر بوصول الرئيس الى بغداد وأن

---

(١) الذى تقدمت ترجمته فى ص ١٠٧ - ١٠٨

معه فرماناً بعزل الوزير سليمان باشا ، ولكن الرئيس خاف من إظهار الخبر لئلا يفتك به الوزير (لأن وزراء بغداد الكولة‌مان (١) ما كانت الدولة تعزلهم إلا بالحيل والمخاتلة لشدّة بأسهم وشرّهم) فلما خاف الرئيس من فتك الوالى به إن اطلع على أسراره فرّ هارباً إلى جهة الموصل وصار يكاتب المتصرفين القريبين منه على تنفيذ أوامر السلطان . فأول من انتدب لمناصرته عبد الرحمن باشا الكردى وحشد معه أكراده وسار مع الرئيس ومعهم عسكر الموصل ومعهم عبد الله بك وطاهر بك اللذان كانا منفيين إلى البصرة ، ووصلوا بغداد ليظهروا عزل الوزير وينفذوا أوامر السلطان الواجبة الاطاعة ، فخرج الوزير بعسكر ليقاتلهم ، فتراءى له أنه لا قبل له بجيوشهم ، ففرّ قاصداً حمود بن ثامر شيخ المنتفق ليحتمى عنده ويستعين به على مقاتلة جيوش الرئيس ، فمن الاتفاق العجيب أنه مرّ فى طريقه على قبيلة الدفافعة فنزل عند شيخهم ضيفاً ، فلما بلغ صاحبَ البيت أنه مهزوم غدر به وقتله (إما طمعاً فى سلبه ، أو لأن يجعلها يداً عند الوالى الجديد) وهذا عند العرب من شرّ الخيانة التى تنفر منها طباعهم أى كون الرجل يخون ضيفه أو يغدر بجاره ويقتله وهو على فراشه ، بل حتى أراذل العرب وقبيلة هتيم لا يرضون على أنفسهم بمثل هذه الفضيحة التى تجرّ الخزى والعار الى الذرّية فيما بعد (ولهذا سمى « سليمان باشا القتيل » تمييزاً له عن « سليمان باشا الأول أبى سعيد »

(١) أى الذين أصلهم مماليك

سيد داود باشا) فرحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه الجنان ، فانه كان على جانب عظيم من الفضائل ، وكان له مشاركة فى جميع الفنون ، وكان يحب العدل والإنصاف ولو خالف العادات القديمة . وقد أخبرنى الشيخ محمد أمين مفتى الحلة (١) أنه اجتمع بسليمان باشا القتيل وصار بينهما مباحث ومناظرات تقضى بأن الباشا من أهل الفضائل والعلوم (٢)

وفى سنة ١٢٢٥ تولى وزارة بغداد عبد الله بك الذى كان منفياً الى البصرة ، وجعل طاهر بك نديمه وصاحب مشورته . فأول أمر ابتدءا به أنهما قتلا سليم بك الذى كان متصرف البصرة ونسيا إحسانه اليهما

(١) هو الشيخ محمد أمين الشهير بالمدرّس ابن الشيخ محمد صالح . ولد سنة ١١٧٤ وتوفى سنة ١٢٣٦ . له كتاب (النخبة فى حل مشكلات صحيح البخارى) و (شرح على ألفية السيوطى فى النحو) و (شرح شواهد ابن هشام على القطر) . له ترجمة فى المسك الاذفر ص ٩٥ - ٩٦

(٢) أعجب شئ فى النهاية المحزنة لحياة سليمان باشا أن عزله كان خلسة ، وبرسالة يحملها رسول جبان دساس لم يجرؤ على مواجهة الوزير بها ، وراح يثير الفتن الدموية لاحداث حرب محلية فى العراق . وأعجب من ذلك أن يكون لمتسلم البصرة الجاهل السيء التدبير دخل فى حمل عاصمة الدولة على اتباع هذه الاساليب فى تولية ولاتها وتنحيتهم ، وثالثة الأثافى اسناد هذا المنصب لشخص ليس له مؤهلات سابقة تدل على كفاءته لذلك . وهكذا كان حال الدولة العثمانية فى زمن السلطان محمود الذى وصفه المؤلف بأنه قمر الزمان وخلف بنى عثمان

حين كانا منفيين فى البصرة ، وقد كان ورد له أمر من سليمان باشا بقتلهما ، فأرسل الى الوزير وتشفع فيهما فعفا الوزير عنهما . ثم ان سليم بك لما أضمر العصيان على سليمان باشا أعطاهما مالاً جماً وهربهما من الحبس وأرسلهما الى بلاد الأكراد وأرسل معهما مكاتيب توصيات فى حقهما ، فلما وصلت اليهما وزارة بغداد سافر من الدورق (١) وقصدهما فى بغداد ليكافئاه على إحسانه ، فما كان من مكافئتهما له إلا قطع رأسه ، ولكن فى الأمثال « من أحيا لئيماً أماته » ولا بأس فان سليم بك هو أيضاً كفر نعمة سيده سليمان باشا القتيل فما كان جزاء الغادر إلا الغدر ، فان الذى سعى فى عزل سليمان باشا هو سليم بك وهو الذى كان يراسل الدولة سراً وله يد طولى فى التحريرات التركية حتى جاء الأمر بعزل سليمان باشا وجر ذلك العزلُ إلى قتله غدراً عند الدفافنة كما مر ذكره

ولما تولى عبد الله باشا وزارة بغداد أعطى قياده ورسنه لعبد الرحمن باشا الكردى ، فوقعت بينه وبين الرئيس (٢) فتنة قتل فيها من أهل البلد من أدخل رأسه فيها

---

(١) تقدم فى ص ١١١ أن سليم بك لما غاب على أمره فى البصرة بقى فى المراكب أياماً ثم سافر فى مركب الى بلدة أبى شهر فرضة شيراز على الخليج الفارسى

(٢) لعل « الرئيس » هو الرسول الذى كان يحمل من عاصمة الدولة الأمر بعزل سليمان باشا

ثم دخلت سنة ١٢٢٦ ، وما حدث فيها من الأمور المهمة ما يجب ذكره (ليت شعرى ما مراده بالمهمة ، وهل المهمة عنده أو عند عموم الناس ؟ وإلا كيف يتصوّر أن مملكة جسيمة مثل العراق يمضى عليها سنة ولا يقع فيها حروب وفتن وحوادث مهمة)

ودخلت سنة ١٢٢٧ ، وفيها غزا عبد الله باشا الوزير ديار عبد الرحمن باشا الكردى لخروجه عن الطاعـــة ، وتقاتلا بعد المصادقة والمصافاة ، لكن هكذا عادة العـــالم الوحشيين المستبدين الذين لا ينضبطون لا بقانون ولا بشرع فانه لاثبات لمودّتهم ولا لعداوتهم . والتق الجيشان فى بلد كُفْرى - بضمّ الكاف وسكون الفاء كما هو دائر على ألسنة العوام - وممن ترأس فى جيش الوزير فى هذه المقاتلة داود باشا المترجم له هذا التاريخ ، فاشتد القتال بين الفريقين أياماً إلى أن كانت الهزيمة على عبد الرحمن - باشا الأكراد - وقتل خالد بك أخو عبد الرحمن باشا ، وهلك أكثر رؤساء الأكراد الذين حضروا فى تلك المعركة وتشتت شملهم إلى أن انتهوا إلى كرمانشاه من بلاد العجم وعسكر الوزير طاردون فى أثرهم ، وعمل الوزير من رءوس القتلى منائر ليؤذن عليها طير النصر بحى على خير العمل (وبناء منارة من رءوس القتلى كان عادة عند المتقدمين ليرهبوا بها العدوّ) وشتت الله الأكراد لبغيهم ، وعلى الباغى تدور الدوائر

ومكث الوزير ثلاثة أيام فى محل المعركة ثم توجه الى كركوك ،

ومنذ وصلها حبس متسلمها خليل بك ابن صاري مصطفى [١] وقاضيها عبد الفتاح افندي وجماعةً من الأعيان وشاطناً شيخ شمر وثلاثة رجال من كبار عشيرته

وتوجـــه إلى إربل قاصداً تنكيل والي الموصل سعد الله باشا لتخلفه عن مساعدة الوزير ، ولمراسلاته مع عبد الرحمن باشا الكردي . ولما بلغ سعدَ الله باشا والي الموصل توجهُ الوزير لمحاربته استقبله واعتذر منه فقبل عذره وعفا عنه

ورجع الوزير الى بغداد ، ولما وصل الجديدة بلغه أن سعيد باشا ابن سليمان باشا الأول فر من بغداد إلى حمود بن ثامر والتجأ اليه ليساعده على ولاية بغداد ، لأن آل المنتفق كانوا هم ملجأ العصاة والفارين من الحكومة ، وفر سعيد باشا في التاسع عشر من رجب . وفي أول ذي القعدة خرج الوزير عبد الله باشا بجيش يؤمُّ حمود بن ثامر وأرسل الى حمود بأن يسلمه سعيد باشا فأبى حمود وقال : ان الموت دون تسليم جاري . فزحف عليه الوزير بجيشه ، فلما وصل أرض المنتفق عبر من غربيّ الفرات على الجزيرة ، فوافقه على محاربة حمود شيخُ ربيعة مشكور وكان طليعة جيش الوزير ، فأول من لاقاه صالح بن ثامر ، فتقاتل مع مشكور الربعي فقتل مشكور وأنفل قومه ومع ذلك [كان] حمود يكاتب الوالي ويترضاه ببذل ما صرفه على

(١) أي مصطفى الأصفر

العسكر على أن يرجع الباشا عنه وعن ضيفه ، والوزير يأبىٰ ذلك ، وقد كان قبل هذا عزل حموداً عن إمارة بنى المنتفق ونصب مكانه نجماً بن عبد الله بن محمد بن مانع أخا ثوينى المتقدم الذكر

ولما وقع بين صالح بن ثامر وبين مشكور الربعى ما وقع وقتل مشكور زحف الوزير عبد الله باشا بعسكره إلى أن نزل قريباً من عرب المنتفق ، وعند ذلك ضاق حمود وأتباعه ذرعاً ، مع أنه عالم أن رؤساء عسكر عبد الله باشا كلهم غرس نعمة سليمان باشا أبى سعيد هذا وأن قلوبهم تهواه وتميل اليه لكونه ابن سيدهم ، ولكن لم يثق حمود بمراسلتهم له ، وانشبك القتال بين الفريقين واستحر القتـــل والتحمت الابطال بعضهم ببعض وتعانقوا ، وطُعن برغش بن حمود ابن ثامر بعد ما روّى سنانه من الأبطال ، وحمل عليٌّ بن ثامر وقتل نجماً بن عبد الله المنصوب الجديد (١) ، ولما كادت عشيرة حمود تولى الأدبار انهزم آل قشعم من جانب عسكر الوزير (٢) فقويت شوكة بنى المنتفق وذهب مَن مع عبد الله من محبي سعيد باشا الى بنى المنتفق ، فسُقط فى يد عبد الله باشا وطاهر بك ومن معهما ، فطلبوا الأمان من حمود فأعطاهم الأمان ولكن لم يفِ لهم به فيما بعد ، فان عشيرة حمود نهبت العسكر ولم تبق لواحد منهم ما يستر به عورته ولا

(١) أى الذى نصبه وزير بغداد أميراً على المنتفق

(٢) يلاحظ أن وزراء الدولة كانوا دائماً يحاربون العرب بالعرب

ما يسدُّ به رمقه ، واشتدّ الكرب على العسكر ، فأمر حمود بأسر عبد الله باشا وطاهر بك وثالث معهما وربطهم فى الحديد والسلاسل وأمر أن يذهبوا بهـــم الى السوق (وهى القرية المعروفة بسوق الشيوخ) وحبسوهم هناك . ولما مات برغش بن حمود من تلك الطعنة التى طعنها خنقهم راشد بن ثامر ثلاثتهم ، وبعد ما قبروا نبشوا فقطعت رءوسهم . هذا وما فُعل بعبد الله باشا وطاهر بك عقوبةٌ لهما إذ قتلا سليم بك ظلماً بعد ما منع عنهما القتل كما مر ذكره وبعد أن حلفا له وعاهداه على أن يكون هو الوزير وعبد الله بك الكتخدا وطاهر بك هو الخازندار ، نعوذ بالله من الخيانة والغدر ﴿ ومَن نكثَ فانما ينكث على نفسه ﴾

ولما حصل على الوزير ما حصل وتشتت الجيش شذر مذر وقتل الوزير عبد الله باشا وكتخداه طاهر بك ، وفى الحقيقة هو جيش الدولة العلية (١) لأن الوزير ما هو إلا أحد خدّام الدولة العليـــة ، أخذ حمود فى الغرور والطيش والكبرياء والعظمة بحيث لم يبق عنده لأمير ولا لوزير حرمة ولا اعتبار (٢) ، وصار أمر سعيد باشا بيده

---

(١) أى الجيش الذى تشتت شذر مذر ، وقد تبين مما تقدم أنه مكون من عشائر العرب العراقية ، وقد يكون فيهم أكراد عراقيون من مقاطعات الموصل

(٢) وكان الهادى الأعظم ﷺ لا يخشى على أمته فتنة الفقر والحرمان بقدر ما يخشى عليها فتنة الغنى والطغيان . وهذه الاخلاق لم تكن قط أخلاقاً عربية ، لكنها أصابت حموداً وأمثاله من عدوى الوسط الادارى فى دولة آل عثمان

كالطفل فى يد وصيه ، ولهذا أعطاه سعيد باشا ما فى جنوب البصرة من القرى جميعها وهو يقارب ثلث إيراد العراق ، فضحك لآل المنتفق الزمان ، وأطاعهم الحاضر والبادى ، وقصدهم الشعراء من جميع النواحى ، وأجازوا بجوائز ولا [جوائز] بنى العباس ، وكنت لا تسمع فى المجالس إلا صفاتهم ومدحهم بما هو زائد عن حدّهم بل عن حدّ الملوك

ثم إن حموداً بعد ما نظم أمورَ سعيد باشا توجه معه الى بغداد بجيوش المنتفق ، فكاتب سعيد باشا الدولة العلية فتوجهت إليه إيالة بغداد وشهر زور والبصرة . فلما انتظمت أمور الوزير رجع حمود إلى مقرّه ، ولكن لا زال زمام سعيد باشا بيد حمود وهو الذى يسيره ويدبر أموره ولا يفعل سعيد باشا جزئيةً ولا كلية إلا لما يستأذن من حمود بن ثامر على فعلها أو تركها

هذه أحوال الوزير ، وأما أحوال بنى المنتفق فانهم طغوا وبغوا ، وامتدّت يد النهب منهم على سائر الأمم ، خصوصاً على البصرة فان بعض المنتفق يدخلون بيوت أهل البصرة نهاراً فضلا عن الليل ويأخذون كلّ ما تصل اليه أيديهم ويبيعونه فى السوق جهاراً نهاراً وصاحبه يراه ولا يقدر يتكلم ، وكل من اشتكى إلى حمود من بعض رجال المنتفق لا يصغى الى الشاكى ، لأن عادة حمود نصرة الظالم ، ولكن كل هذا من سعيد باشا الذى سلم الملك لمن لا يقدره حق قدره . ومما نقم الناس به على سعيد باشا اعطاؤه هذه الأراضى الطويلة

العريضة لحمود بغير مال ولا خراج ، وهـــذا تضييع لممالك الدولة العلية . ومما نقم الناس به على سعيد باشا تصديره حمد بن أبي عقلين وإعراضه عن تدبير ملكه بنفسه وتسليمه أزمة الأمور إلى هؤلاء الأعراب الجفاة

تولى سعيد باشا ابن سليمان باشا الأول سنة ١٢٢٨ ، وفى سنة ١٢٢٩ جعل الوزير سعيد باشا كتخدا ورئيس عسكره داود باشا ذا الفضائل والكمالات التى تعجز عن وصفها الأقلام . فنهد داود باشا - بأمر الوزير سعيد باشا - لغزو بعض الأعراب العاصين عـــلى الحكومة ، وهم خزاعة وزبيد وشمر وآل الضفير ، فانهم منعوا الخراج ونهبوا القرى وقطعوا السبيل حتى أن بعضهم حاصر كربلاء مدفن سيدنا الحسين رضى الله عنه ، وكان إذ ذاك فى كربلاء نحو الأربعين ألفاً من زوار العجم وفيها حرم شاه العجم أتت للزيارة ، فلما بلغ الوالى افساد العربان حول كربلاء خاف أن يصيب الزوار ضرر فيرجع عليهم شاه العجم بالحرب والويل وتلومهم الدولة العلية على إهمالهم فى الأحكام حتى آل الأمر إلى هذه الحالة السيئة ، فتوجه داود باشا بعسكر جرار ونزل الحـــلة وصارت بينه وبين العصاة حروب ، فانكسر العصاة وتشتتوا فى القفار ، فأرسل بعض عسكره إلى كربلاء لتأمين الزوار ، ولخفر الزوار من كربلاء إلى النجف ثم من النجف إلى بغداد بعد قضاء وطرهم إلى أن يقفلوا إلى بلادهم آمنين . ثم توجه الكتخدا داود بعسكره إلى أرض خزاعة ، وفى

أثناء الطريق عزل شيخ زُبيد وأقام مقامه شيخ شَفَلح بن شلال وألزمهم بمحافظة الطريق ، ثم استدعى بآل وادى ، وبعد مجيئهم إلى عسكره عاقبهم على مساويهم القديمة ، وشن الغارة على أهاليهم ، وغنم مواشيهم . وسار إلى أن نزل بازاء الديوانية مقرّ العشيرة الخزاعية الروافض

ثم دخلت سنة ١٢٣٠ . فلما طار صيت داود باشا فى الآفاق ورأوا منه أفعالا ما عهدوها من ولاة بغداد ولا من امرائهم من الشجاعة والنصح للأمة وعدم الطمع فيما فى أيدى الناس ، مع العفة والصيانة والديانة والأمانة ، ولا تسمع لديه رشوة ولا هدية ولا تسمع بالظلم فى جيشه ، بل كل واحد من العسكر عارف حده ووظيفته لا يتعداها ، وإن اشترى العسكر شيئاً من الأعراب ينقدون لهم ثمنه قبل استلامه ، بخلاف رؤساء العساكر الذين كانوا قبله فانهم كانوا يأخذون من الأعراب والقرى كل ما يحتاجونه بغير ثمن والفضل لهم . ومع هذه الحروب ترى داود باشا مشتغلا بالعلوم مع تلاميذه فى السفر والحضر . فلما عرف العرب همة الكتخدا داود طلبوا الأمان منه وعلموا أنه لا يخلصهم منه إلا الاستقامة والصلاح فأعطوا ما لزمهم من الخراج (١)

---

(١) الناس على دين ملوكهم ، فاذا صلح الرأس صلح سائر الجسد ، واذا فسد الرأس سرت عدوى فساده إلى الجميع . وعكس هذه القاعدة صحيح أيضا وكما تكونوا يولى عليكم ، فاذا استطاع ورثة الانبياء أن يحملوا الأمة على الحق والخير اضطر ولاتها الى أن ينزلوا على قواعد الحق وسنن الخير

والشَغْلَح ـ كعَلَمّس ـ اسم للفرج ، علم منقول ، سمى به شغلح الزُبيدى ، وهم قبيلة من مذحج رهط عمرو بن معدى كرب الزبيدى

وفى سنة ١٢٣١ قتل بُنَيّة بن قُرَينس الجربا الطائى من بنى طيّ قوم حاتم الطائى الجواد المشهور الذى يضرب به المثل ، وأتى برأسه الى الوزير سعيد باشا . وبنية ـ بضم الموحدة وفتح النون وتشديد الياء التحتية وهاء تأنيث ـ من رجال العرب وفرسانها وكرمائها ، وله ـ كعمه فارس ـ أيام الوزير على باشا أبهة عظيمة وصدارة وشجاعة يحاكى بها فارس النعامة (١) . وأما الكرم فهو البحر الخِضَمّ ، وأما منع الجار فهو فى الذروة العليا منه والناس يحذون حَذْوه فيه ، وأما غضُّ الطرف عن جاراته فكأنه فيه البنت العذراء من الحياء ، وأما النسب فهو من أشراف طيّ قبيلة حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى

واعلم أن بنية الجربا عبر من الجزيرة لغربىّ الفرات عندما تولى وزارة بغداد سعيد باشا لما بين عمه فارس وآل عبيد الحميريين من

---

(١) النعامة سبعة أفراس منسوبة ، منها للحارث بن عباد اليشكرى التى يقول فيها :

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال

وابنها فرس خزز بن لوذان السدوسى . وفرس خالد بن نضلة الاسدى ، وفرس مرادس بن معاذ الجشمى ، وفرس عيينة بن أوس المالكى ، وفرس مسافع بن عبد العزّى ، وفرس المنفجر الغبرى ، وفرس قرّاض الازدى

الضغائن لا سيما أميرهم قاسم بن محمد بن عبد الله بن شاوى الحميرى ، وكان سعيد باشا ولىُّ زمام أموره إليه ، فلما بين قاسم وفارس من الضغائن لم يستقر بنية فى الجزيرة فنزل بعشيرته على خُزاعة فى تلك السنة ليكتال ، وكان بين الدُّرَيعى العنزى الرُّوَيلى وبينه ضغائن ، فاقتفىٰ الدريعى أثر بنية ونزل قريباً منه ، وأرسل إلى حمود بن ثامر فاستنفره لأنه صديق الدريعى فنفر بفرسان عشيرته لمساعدة الدريعى وخرج عسكر الوزير سعيد باشا وكبيرهم قاسم بن شاوى ومعه عفاريت عقيل النجديون ـ وهم عسكر الوزير إذ ذاك ـ لمساعدة من يحارب بنية ، فقامت الحرب على ساق ، وبنية يكر على الفرسان كأنه الأسد ، فبينما هو يطرد بفرسه إلا وجاءته رصاصة كانت فيها منيته

فصل فى سبب خروج داود باشا من بغداد
وتوليته رئيساً على العراق

اعلم أن الوزير سعيد باشا لم يزل داود باشا ساعياً له بالتأييد والنجاح والنصح والصلاح ، مع الصدق والأمانة والعفة والصيانة ، حتى كاد يعطب ويهلك من أسباب نصحه ، فان كثيراً من المنافقين الأعداء لما رأوا داود باشا متيقظاً وينبه الوالى دائماً على دسائسهم داخَلهم الحسد وأرادوا إتلاف داود بكل مافى جهدهم ونصبوا له حبائل الغدر والفتك بجميع أنواعها ﴿ يريدون ليُطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبىٰ اللهُ إلا أن يتم نوره ﴾ وتحمل هذا الخطر العظيم

شكراً لما لوالده سليمان باشا عليه من النعم . ولما اشتد غيظ الحساد والأعداء لداود أفهموا الوزير أن مقصد داود باشا قلك ليلى ولاية بغداد بالراحة بعدك ، خصوصاً والعساكر جميعها فى قبضة داود ومطيعة له ومنقادة لأوامره ، وأتوا بمن شهد عند الوزير من خدام الوزير أن داود باشا وعدنى بكذا من الذهب إن قتلت أفندينا ، وأنا لنصحى لأفندينا وحبى له نبهته وهو أعلم بنفسه ، ولا بد أنه كما قال لى قال لغيرى مثل هذا الكلام ، فالحذرُ يا أفندينا أسلم . فحينئذ داخل الخوفُ والرعب سعيد باشا من داود ، ودبر مع مشيريه المنافقين على قتل داود بأنهم يحضرونه لمشورة فيقتلونه إما خنقاً أو صبرا . فبلغ داود باشا جميع ما اتفقوا عليه ، فعزم على الفرار والخروج خارج بغداد ليكتفى شر سعيد باشا وينعزل فى أحد الجبال المحصنة الى أن يأتيه أمر الله . فخرج من بغداد ولسان حاله يتلو ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وذلك فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣١ وعمر داود أربع وأربعون سنة . ولما وصل كركوك ومعه من أتباعه نحو المائتين راسل الدولة العلية وكشف لها عن سوء سيرة سعيد باشا وشناعة سياسته وتقليده أزمة الممالك المهمة لأعراب البادية أهل الظلم والغشامة الذين دَيدَنهم النهب والسلب وهو نحوهم فى مجالسهم . وكان داود باشا باقعة فى التحريرات التركية والعربية والفارسية ينظم وينثر فى الثلاث اللغات ويشهد له فصحاء كل من الثلاث اللغات بانه إمام فيها

فلما بلغت رسائله الى الدولة تحيروا من فصاحتها وبلاغتها وما اشتملت عليه من الأمور السياسية ، فعلموا أن الذى يكتب مثل هذه التحريرات هو الجدير بالرياسة ، وهو الأحق بأن يتولى زمام السياسة (وكان الاصطلاح فى القرون الماضية عند الدولة العلية أن مقادير الرجال تعرف بمقدار تقدّمهم فى الكتابة والتحريرات ، والأسئلة والأجوبة المسدّدة) خصوصاً وداود باشا له سابقة أيادى ومعرفة مع كبار رجال الدولة ، وهو مشهور ومعروف عندهم بأنه هو الأليق لهذا الأمر من غيره منذ عشرين سنة ، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها ، والحَبُّ الذى لا يتم دفنه فى أرض الزراعة فلا يحسن نباته ونتاجه . فما كان من الدولة العلية إلا أنها أرسلت الفرمان العالى الشان الواجب الاطاعة على كل إنسان إلى داود باشا ومضمونه عزل سعيد باشا عن ولاية بغداد وتولية داود باشا بدله . فلما وصل الفرمان إلى داود باشا قرأه على مجمع من وجوه دولته علناً ، ثم أرسل صورته إلى حمود بن ثامر لأنه هو المقيم المقعد فى أرض العراق إذ ذاك لأجل أن يصدّق بعزل سعيد باشا وترتفع عنه الشكوك والأوهام ، خصوصاً وهو الذى كان مضاداً لداود باشا ، وبسبب إفساده ومكره خرج داود باشا من بغداد

فلما وصلت صورة الفرمان الى حمود بن ثامر طرحها وأهملها ، فتعجب قومه من إهماله لهذه المسألة ، فنصحوه وقالوا له : إن أمر السلطان واجب الاطاعة ، وإن مخالفة أوامر الدولة أمرها وخيم

وعاقبتها شؤم ، وان الأمر منوط بك فتى امتثلت أنت فسعيد باشا في الحقيقة ما هو إلا تابع لرأيك ، فالأولى أن تنصحه بترك القتال لأن خصمه رجل مطاع ، ولو قدم وحده بمفرده على العراق يملكه بدهائه وعقله وحسن سياسته ، فما بالك لو جرّ معه عسكراً من الأكراد وغيرهم وقدم إلى بغداد فمن الذي يعارضه والأهالي جميعاً يحبونه كمحبة الولد للوالد . فلما أكثر على حمود النصائح أعمامه وإخوانه وأولاده لأجل حقن دماء المسلمين قبل منهم رأيهم وأرسل الى سعيد باشا ونصحه بترك القتال والامتثال لأوامر الدولة العلية ، فأبى سعيد باشا أن يقبل كلام حمود ونصيحته لما غشّهُ به أرباب مشورته الخونة الذين ما مقصدهم من الحرب إلا نهب الاموال وادخارها لهم من مصاريف العساكر والحروب

وكان حمود بن ثامر معه قومه نازلين حول بغداد ، فلما رأى مخالفة سعيد باشا له عرف أنه لا طاقة له بمقابلة داود باشا ولا بعسكره وأنه لا ينازَع مَن دولته مقبلة ، ففر هارباً ورجع إلى مقره ووطنه وأسلم سعيد باشا للهلاك

فأما داود باشا فانه كان معه شرذمة قليلة نحو الالفين من الاكراد ، ولكن لكونه هو المدبر لامورهم ارتجّت منه البلاد ، فلما قارب بغداد ثار الاهالي على سعيد باشا وأرادوا إخراجه من بغداد ، فدخل القلعة وتحصن فيها هو وأتباعه ، فأرسل أهالي بغداد

إلى داود باشا أن ﴿ أقبِل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ وهذا البلد بلدك بلا معارض ولا منازع . فدخل بغداد بعد الظهر خامس ربيع الآخر سنة ١٢٣٢ ، وهنّأه الشعراء ، ووفد عليه العلماء والفضلاء ، لأنه هو الذى كان يعرف مقامهم ، وانما يعرف الفضلَ من الناس ذووه ، حيث انه منذ الهجرة الاسلامية إلى يومنا هذا ما سمع أنه تولى العراق أعلم من داود باشا . فلما استقر فى بغداد خمدت الشرور والفتن ، وأمنت الطرقات بنفسها ، لعلمهم أنه ظهر الذى يعاقب المجرمين ويحسن للمحسنين ، فرفع أهل الفضائل والعلوم ، ونفذ أمر الدولة بقتل من أمروا بقتله . فمن قتل - بعد استيلاء داود باشا - سعيد باشا الوزير السابق وكان قتله على غير مراد الوزير داود باشا

وفى سنة ولاية داود باشا على العراق توجهت العساكر السلطانية المصرية إلى نجد لمحاربة الوهابيين ولتدميرهم وإخلاء البلاد منهم ، وذلك أن السلطان محمود نصره الله أمر محمد على باشا والى مصر بأن يجهز عساكره إلى نجد ليستأصل شأفة الوهابيين ويمحو بدعتهم (!) فأرسل محمد على باشا ابنه ابراهيم باشا ووصل المدينة قبل ولاية المترجم وبقى إلى أن دخلت سنة ١٢٣١ ، فأغار فى أولها على الرس وملكها ، ثم ان عبد الله بن سعود جمع جميع ما عنده من القوة والرجال فكانت زُهاء أربعين ألفاً فرسان العرب ومجربيها فى الحروب ، فمن شؤم عبد الله بن سعود أنه أغار على عرب حرب الذين حول المدينة نحو

الحناكية فزرع العداوة معهم كما هى عادته مع سائر القبائل . وكان قريباً منهم الأمير أوزون على الأرفلى الكردى (١) ومعه نحو مائتين وخمسين خيّالاً من فرسان الأكراد المشهورين بالهجوم ، فهجم أوزون على بعسكره القليلة فى الظاهر الكثيرة فى المعنى ودخل بخيله فى وسط مقدمة عبد الله بن سعود ولحقه عرب حرب مساعدة له لما ذاقوه من عبد الله بن سعود من النهب والسلب ، واشتغل رصاص الأكراد على عرب ابن سعود مثل المطر ودهموهم مثل القضاء المبرم فمسافة ما يفك الوهابى بندقه من جرابها ويولع الفتيلة يكون قد أصابه خمس رصاصات أقله (٢) ، فما مضت برهة من الزمن إلا وقد انكسرت مقدمة عسكر عبد الله بن سعود ورجع القهقرى . وأخبرنى من شاهد تلك الواقعة أن عسكر أوزون على لولا أنهم اشتغلوا بجزّ الروس لكانوا أفنوا منا نصفنا لما دخلنا من الرعب والخوف من اسم السلطان ومن اسم الترك ومن صوت المدافع . فمن هذه الواقعة

---

(١) أوزون بالتركية بمعنى الطويل ، أى على الطويل ، والاورفلى نسبة تركية إلى مدينة (أورفة) التى كانت تسمى (الرُّها) من أرض الجزيرة فى شمال حلب بين الموصل والشام الشمالية وهى الآن داخل حدود الترك

(٢) تقدم فى ص ٨٧ قول المؤلف « لما تحارب ابن سعود مع ابراهيم باشا المصرى وغلب ابنُ سعود فما غلب من قلة عسكر أو من عدم شجاعة عساكره أو من احتياج الى مال ، وانما غلبه ابراهيم باشا بالمدافع والآلات الحربية الجديدة الخ »

استسهل ابراهيم باشا محاربة الوهابيين وعرف أنهم لا طاقة لهم بمقابلة الرصاص والنار ، إنما هم ناس يحاربون بالرماح والسيوف على الطراز القديم ، وشجاعة رجالهم فى هذا المعنى فقط ، ومعهم بعض بنادق بالفتيل وجودها كعدمها

فلما رجع عبد الله بن سعود مكسوراً تحصن فى عُنيزة ونزل عسكره حولها من أرض القصيم ، وأرسل واستنفر من بلدانه جميع المجاهدين على زعمه ، وابراهيم باشا نازل فى الرس بعسكره ، فاتفق مرة أن نحو الألفى فارس من عساكر ابن سعود أغاروا على طليعة من عسكر ابراهيم باشا وقتلوا منهم ونهبوا بعض خيلهم ، فبلغ الخبر ابراهيم باشا ، فأرسل وراءهم صقوراً من خيالته الأكراد والهوّارة أولاد على والبراعص والجوازى عرب مصر المغاربة فلحقوهم وقتلوا من عرب ابن سعود ما ينوف عن الخمسمائة كما أخبرنى من حضر الوقعة

فلما رأى ابن سعود أن قومه لا قِبَلَ لهم بمحاربة الأسلحة الجديدة النارية والمدافع رحل من عنيزة وقصد الدرعية لأنهم كانوا يسمونها (دار الهجرة) ، فرحل ابراهيم باشا خلفه وقصد عنيزة ، فلما أناخ حولها أطاع جميع أهلها إلا قصراً فيها يسمى (قصر الصفا) شاهق البناء محكمه كان متحصناً فيه عسكر ابن سعود المعبر عنهم بالمرابطية ، فلما دعاهم ابراهيم باشا الى الطاعة وامتنعوا — ظناً منهم أن حصنهم ينفعهم — رمى عليهم بالمدافع وهدم الحصن على رءوسهم

فطلبوا الأمان منه فأعطاهم أماناً على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ووفى لهم به

ثم ان ابراهيم باشا ارتحل من عنيزة ونزل بُرَيدة وأطاع صاحبها بغير حرب ، واسم صاحبها حُجيلان (بضم الحاء وفتح الجيم) أحد بني عُليّان (بضم العين وفتح اللام وتشديد المثناة) قبيلة من تميم وحجيلان هذا من ذوى الرأى والدهاء ، وأخبرنى من أقام معه فى بريدة سنتين أيام أحكام الوهابيين فرأى حجيلان فى الظاهر اعتقد اعتقاد الوهابيين ويبطن خــلافه ، وكان إذا رأى الغريب المسافر يقول له ، ابعد عنى يا المشرك يا المنافق ، (ولكن هم ينطقون الكاف من مخرج الجيم الفارسية ، وكذلك القاف ينطقون بها من مخرج الزاى) ويرسل له سراً المآكل والمشارب والتتن ، وكان يرى أن حالة الوهابيين فى نشر بدعتهم هى كحالة المجانين لشدة جهل عمالهم وشناعة الألفاظ التى تصدر عنهم ، فيوافقهم فى الظاهر ويحارب معهم ، وهو يبغضهم أشد البغض فى الباطن (١)

---

(١) هنا موقف عبرة لأصحاب كل دعوة الى الاصلاح وإقامة الحق ، فانهم اذا أتيحت لهم فرصة القيام بها تحمل عليهم وعلى الدعوة نفسها أخطاء العمال الذين يستعان بهم على اختلاف منازلهم فى الأدب والتهذيب . ويكون معهم من ذوى النفوذ من لا يبعد أن يناقض باطنهم ما يضطرون الى التظاهر به مجاراة للدعوة . وهذا موضوع جدير بالدراسة وطول التأمل =

ولنرجع إلى أخبار داود باشا والى بغداد المجعول له هذا التاريخ :

وفى أول عام من وزارته أطاعه جميع القبائل والعشائر ، إلا دليم فانهم عصوا وارتكبوا الفساد . فلما رأى عدم إذعانهم إلى الطاعة عزم على غزوهم ؛ فأرسل إليهم عسكراً ورئيسهم كتخداه محمد بك الذى عصى عليه فيما بعد كما سيأتيك بيانه

وفى سنة ١٢٣٣ لما قرب الكتخدا من عرب الدليم وجدهم تحصنوا فى الآجام والأهوار ، فحاصرهم ، ولما اشتد عليهم الحصار طلبوا الأمان والعفو من الوزير فمنحهم إياه بشرط أداء الخراج القديم والجديد ، وأن يعاهدوه بأن لا يرجعوا إلى العصيان ولا يؤون عاصياً . واستوفى جميع الأموال مواشىَ من إبل وخيل

ثم انعطف الكتخدا على الجربا وأخذ منهم خمسمائة بعير نكالا عوضاً عما نهبه من الجديديين وتأديباً له أن يعود الى النهب والغارة

وعبرة أخرى أن قيام دولة جديدة الدعوة الجديدة يجب أن يقترن به فوراً تجهيزها بأحدث وسائل الحماية والدفاع والتنظيم الاقتصادى والمالى والادارى والتحرز من الاشتباك العسكرى مع أى جهة إلا اذا توفر لدولة الدعوة مثل الوسائل المجهز بها الآخرون ، فان عاق عن ذلك عائق ـ فوق المقدور عليه ـ فلا يجوز التمادى فى تقريب زمن ذلك الاشتباك ، وأول أسلحة الحكم الحكمة ، وهى السلاح الأول للدعوة الى الحق ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة . . . ﴾

ثم فى منعطف الكتخدا ورجوعه أغار على آل يسار ونكل بهم جزاء لهم لكونهم أغاروا على بعض القبائل ، حيث ان الباشا الوزير أمر أمراً عاماً بمنع الغزو بين الأعراب وإبطال العادات القديمة القبيحة التى كانت بين العربان من غزو بعضهم بعضا وهم مسلمون ، وهذا تقليد منه لأحكام الوهابيين ، بل فى الحقيقة هو الشرع المحمدى لا تقليد للوهابيين . ورجع الكتخدا الى الزوراء بالغنائم ، وردع كل سالب مخاصم

ثم فى سنة ١٢٣٣ نهد ابراهيم باشا المصرى من بُريدة القصيم عازماً على قتال ابن سعود فى درعيته ، فكان فى طريقه كل قرية تسالمه يصالحها على الأمان ، وكل قرية تحاربه يملكها قهراً ويخربها

فمن القرى التى حاربت ابراهيم باشا القرية المعروفة بشقرا مقر بنى زيد ، فرماهم بأطوابه التى هى مثل الصواعق تهدم كل ما صادفته وتحرقه ، فطلبوا الأمان - بعد ما هدم سورهم وقصورهم - فمنحه لهم ، ومن كان فيها من أهل الدرعية لم يتعرض لهم بشر بل أذن لهم أن ينصرفوا إلى درعيتهم ولم يبال بتقوية بعضهم بعضا ، وهكذا كان يفعل فى كل قرية حاصرها وأخذها قهرا . وكان ديدنه أنه كلما فتح قرية عنوة لم يتعرض لها ولا لأهلها بأذية ولم ينهب أموالهم ولا عسكره تنوش أعراضهم بسوء ، بل كان يكتفى منهم بمجرد الطاعة فقط

ثم ارتحل من (شقرا) قاصداً (العارض) ، فمر فى طريقه على قرية يقال لها (ضَرَمَة) لحاربته أيضاً لأن فيهم جملة من آل سعود ، فصب عليهم من مدافعه نبذة فهدمها ، وأذعنت له القرية ومن فيها بالطاعة ، وعاملهم كمعاملة من قبلهم

ثم رحل عنها ونزل حول (العارض) بلدة مسيلمة الكذاب فحاصرها وقطع نخلها ودمرها وملكها ، وشتت رجال الوهابيين فى الصحارى والقفار ، وأخذ سلطانها عبد الله بن سعود أسيراً مغلولا هو وعائلته ما عدا تركى بن عبد الله فانه فر من يد ابراهيم باشا كما قدمناه [١] ، وأرسله الى المدينة ليفرج عليه الناس الذين قتل آباءهم وإخوانهم بالأمس ، ثم أمر بارساله الى مصر لوالده محمد على باشا ، فوصل إلى مصر ، ومحمد على باشا أرسله الى السلطان محمود وقتله السلطان

وفى تلك السنة أرسل داود باشا عسكراً من طرف العراق وملكوا الحسا من أيدى الوهابيين ، وذلك أن الوزير داود باشا أرسل محمداً وماجداً ابنى عرعر الخالدى الحميدى وأرسل معهما قبائلهما الذين كانوا فارين من الوهابيين وقطنوا العراق أيام غزوة على بك على الحسا [٢] ، فقدموا الحسا وفتحوها وفتحوا القطيف وطردوا منه الوهابيين ، وكان ذلك قبل فتح ابراهيم باشا الدرعية ، فلما ملك ابراهيم

---

(١) ص ١٠٣ - ١٠٤ (٢) انظر ص ٥٩ و ٦٢ و ٦٤ - ٧٠

باشا الدرعيـــة وسوس له بعض الوهابيين وحسّن له ملك الحسا وأخبره بما فيها من الأموال والنخيل والزكوات التى كادت أن تحاكى بعض بلاد النيل[١] . فأرسل ابراهيم باشا عسكراً من طرفه وملكوا الحسا من يد الخالديين المؤمرين من طرف داود باشا ، ولكن أهل الحسا لم يحاربوا عسكر ابراهيم باشا بل سلموا له البلاد بالراحة وقالوا ان البلاد بلاد السلطان ، وحيث ان ابراهيم باشا هو خادم السلطان فلا حاجة الى محاربته وسفك دماء المسلمين بغير سبب ، فداود باشا وابراهيم باشا ونحن كل منا ساع فى خدمة هـــذا السلطان المعظم المنصور المؤيد . وكان الامير على الحسا من طرف ابراهيم باشا اسمه عثمان كاشف . فلما بلغ الخبر الى داود باشا وأن عامله رُفعت يده عن الحسا سكت وقال : إن الأولى أن يشرب العاقل مراً على النهر ، فراسل داود باشا الدولة العلية وطلب منها كف يد ابراهيم باشا عن الحسا وارجاعها تحت اطاعة والى العراق داود باشا ؛ فحالا أرسل السلطان محمود فرماناً الى محمد على باشا أن يرسل الى ابنه ابراهيم باشا بأن يخلى الحسا وأطرافها والقطيف ويسلمها الى مأمورى داود باشا

---

(١) لعل الذين حسّنوا لابراهيم باشا فتح الحسا كانوا يرون أن حكومة العراق باقية مهما تغير وزراؤها ، لا سيما وقد وسد أمر الحسا الى الخالديين أصحاب الدعوى القديمة بالحكم عليها . أما حكم ابراهيم باشا فعمل عسكرى ينتهى ويزول ، فتعود الحسا الى النجديين بزواله . ولعلهم أيضا أرادوا أن يوحدوا من يواجهونه فذلك أهون من أن يكون متعدداً

والى العراق ، فلما وصل الخبر الى ابراهيم باشا امتثل الأمر بأسرع من البرق وأمر عسكره بالرجوع الى الدرعية وتسليم الحسا الى مأمورى داود باشا

واعلم [١] أن أخبار الوهابيين ذكرناها متفرقة تبعاً للمصنف ، وكان الأولى أن نضم الأشباه إلى أمثالها ، ولكن وجدنا الاتباع أولى

وفى هذه السنة نزلت قبيلة الصقور من عنزة غربى (المسيّب [٢]) للاكتيال والميرة ، فشرعوا فى التعدى والفساد والاغارة على بعض القرى كما هى عادة الأعراب مع أهل الحضر . فلما بلغ الوزيرَ داود باشا أفعالهم أرسل اليهم عسكراً ورئيسهم يحيى بك خازنداره ـ وهو غلام شاب لم يجرب محاربة الأعراب ـ فسار بعسكره إلى أن رأى خيام الأعراب فهجم عليهم من غير تعبية للعسكر ، فصدمتهم الأعراب أشد صدمة ، وقتل من عسكره جملة وانكسر بعسكره . ولما بلغ الوزيرَ هذه الكسرة أرسل اليه مكتوباً بالرجوع ، والخيرة فى الواقع ، ووعده أنه ان شاء الله سيغزوهم ويأخذ منهم الثأر

ولما حصل ليحيى بك ذلك الانكسار عصى وطغى مشكور الشمرى الزوبعى وقطع السبيل ظناً منه أن كسر يحيى بك يحدث وهناً بشوكة الوزير داود باشا ، فأرسل الوزير عسكراً ثانياً ورئيسهم محمد

---

(١) المتكلم هو الشيخ أمين الحلوانى صاحب المختصر

(٢) من أرض العراق

بك الكتخدا ، فسافر مسرعاً ، وصبح شمراً فوجدهم قد فروا لما علموا بقدوم عسكر الوزير اليهم تاركين لأموالهم ومواشيهم ، فغنمها الكتخدا وكان فيها ثمانية آلاف شاة وأكثر من مائتين من الإبل ، ورجع الى بغداد منصوراً

ودخلت سنة ١٢٣٤ ، وفيها أرسل الوزير عسكراً ورئيسهم صالح أغا الكردى الى (النجف) ، لأنه بلغه أن هناك أعراباً أخذت فى الافساد فأرسله الى تأديبهم

وفى ذلك اليوم أرسل الكتخدا ومعه عسكر إلى (عَفَك) و (جُليحه) و (الصقور) فانه بلغه عنهم عصيان . فلما وصل العسكر إلى ذى الكِفْل ورد عليه حمدان بن قميشيش وابن هدّال وابن أخيه فواز وخمسة عشر رجلاً من كبار تلك القبائل ، فلما رآهم الكتخدا أمر بهم فكبلوا فى الحديد وأرسلوا الى بغداد (١)

وأما صالح أغا الكردى فانه لما بلغ المشهد تقاتل مع ابن دُبيس وعربه فقتل ابن دبيس ورجل آخر من كبار العصاة وقطع رأسيهما وأرسلهما الى الوزير فى بغداد ، فهدأت الفتن فى جميع أنحاء العراق . ثم أرسل الكتخدا خلعة التولية على عرب النجف الى محمد بن طاهر فقبلها ولبسها

---

(١) لو غير ُابن سند روى هذه الحماقة عن إدارة داود باشا فى العراق لكان ذلك موضع شك ، لما اشتهر عن هذا الوزير من العلم والعقل ، لكنها الادارة التركية . . .

وبلغ الكتخدا أن ابن هدال وعبد الله بن حريميس من عنزة أقبلا مع قومهما ليكتالوا ، فأمر شيخي خزاعة والبجيع أن يغيرا على ابن هدال ومن معه (١) ، فأغاروا على ابن هدال وربعه ، واشتد القتال بين الفريقين يوماً كاملا فى الصباح الى المساء ، ثم كانت الغلبة والهزيمة على ابن هدال فولى الفرار ، وأما العسكر فنزلوا بالديوانية واشتغلوا بنصب الجسر ، وجاء شيخ خزاعة وعربه الى الكتخدا وعبروا جميعاً الى اليوسفية الحائلة بين جليحة وعفك وبين عسكر الوزير ، فحينئذ غزا الكتخدا وخزاعة جليحة وعفكا لخروجهم عن الطاعة ، فبعض العصاة فرّوا هاربين إلى الفيافى ، وبعضهم دخل قلعتهم وتحصنوا فيها وتسمى (قلعة شِختّير) فحاصرها الكتخدا ، فلما هجم الليل أيقن العصاة أنه متى طلع النهار يهدم القلعة عليهم بالأطواب ففرّوا فى الليل مع عيالهم وتركوا أموالهم وذخائرهم ، فلما طلع الصبح وعلم الكتخدا بهروبهم دخل القلعة ونهبها (٢) ثم هدمها ومحا أثرها وكتب الى الوزير داود باشا بجميع ما حصل وذلك بعد ما سد اليوسفية سداً محكماً وانتظم أمر تلك الناحية ، ثم ألبس المشايخ الطائعين والتزموا بدفع خمسين ألف درهم وعين لاستيفائها منهم

---

(١) وما فعل الله بالأمر العام الصادر من داود باشا بمنع الاغارات ، وما ذنبُ قوم جاءوا آمنين ليكتالوا ؟!

(٢) وهذا هو المطلوب ، كما تقدم آنفاً مع شمّر

شيخ خزاعة وجعل على السد بعضاً من عسكر عقيل النجديين وبعضاً من عسكر اللاوند الأكراد ورجع الى بغداد منصوراً مؤيداً وذلك بهمة الوزير داود باشا فألبسه الوزير خلعة من السمور

ثم دخلت سنة ١٢٣٥ وفيها عصت قبيلة آل دليم (١) فأرسل الوزير اليها الكتخدا بعسكره ، فلما سمعوا بقدوم العسكر نزلوا الأهوار والأغيال وتحصنوا فيها ، ولكن الكتخدا لم يبال بهم وهجم عليهم بين الغابات واستحر القتل بين الفريقين يوماً كاملاً ، وبعده تشتت العصاة وانهزموا وتركوا أموالهم وذراريهم ، بل أكثر العصاة غرقوا فى الفرات ، فأرسل الكتخدا نجاباً مبشراً بصورة الحال الى الوزير ، فرد عليه الوزير جوابه ومدحه وأثنى عليه وأهدى اليه سيفا

وبلغه أن قبيلة زَوْبع وجُميلة وآل عيسى وقرية شغانى لم يؤدوا خراجهم ، فعطف عليهم بخيله ورَجله ؛ فبعضهم انهزم الى البادية وبعضهم بقوا فى أماكنهم وأدوا الخراج كاملا وطلبوا العفو فعفا عنهم الكتخدا ، ثم استأذن من الوزير فى الرجوع الى بغداد فأذن له ورجع

وفى تلك السنة سكن محمد باشا ابن خالد باشا كركوك بأمر الوزير وجعلها دار إقامته ، ولكن خدامه صاروا يسيئون المعاملة مع بعض

---

(١) أكثر ما كان يسمى فى ذلك العهد عصياناً هو تلكؤ القبائل فى دفع الاتاوات المضروبة عليها كما فى الخبر الآتى بعد

فقراء كركوك ، فبلغ الوزيرَ ذلك فأرسل أوامره بأن يزجر خدامه ، فلم يفعل ، فغضب عليه الوزير وأمر متسلم كركوك موسى أغا أن يقيد محمد باشا فى الحديد ، فقيده موسى آغا امتثالا لأمر الوزير ، فلما تحقق خدامه تكبيله بالحديد أحاط ثلاثمائة منهم بالحبس وكسروه وأخرجوا سيدهم من الحبس ، فخرج وقصد الفرار الى ديار العجم ، فحين بلغ داود باشا ما فعله محمد باشا أمر على أبيه خالد بتكبيله فى الحديد وكذا على ابن عمه سليمان بن ابراهيم باشا . فلما بلغ محمد باشا ما صار على أبيه وعلى ابن عمه من جريمته ندم على ما فعله هو وخدامه ولم يذهب الى العجم وأرسل إلى الوزير يطلب العفو فعفا عنه وأطلق أباه وابن عمه وأمره بالنزول فى كركوك بشرط أن لا يتعدّى خدامه لا على غنى ولا على فقير ، ورتب لأبيه بعض معاش ليقتات منه ، وأخذ عليهم العهود بأن لا يرتكبوا المفاسد بعدها (إلى متى هذه العهود والصفح والحلم الذى لا ينشأ عنه إلا زيادة الشر والفساد ، ويكثر منه قطاع الطريق والبغاة [1])

وفى تلك السنة ختن يوسف بك ابن الوزير داود باشا فعمل له فرحاً لم يعهد أهلُ العراق مثله ، وهناه الشعراء من جميع الآفاق ،

---

(١) هذا التعليق للشيخ أمين الحلوانى ، وفى الواقع إن الاقطاعيين الذين يرتكبون البغى على الفقراء يعاملون بالصفح ، وفقراء القبائل الذين تضيق عليهم أسباب العيش فلا يجدون ما يدفعون منه الاتاوات يعتبرون عصاة ويكافأ الجلاد الذى يحصدهم وذراريهم بسلاح الدولة

فأجاز كلا على قدر مقامه

ثم دخلت سنة ١٢٤٦ ، وفيها أرسل السلطان محمود نصره الله خمسة عشر مدفعاً من الطرز الجديد بجميع آلاتها وأدواتها هدية الى الوزير داود باشا صحبة مصلح الدين بك أحد رجال السلطان ، فأمر كتخداه وبعض رجال دولته أن يستقبلوها من قبل أيام ، فدخلت بغداد بهيئة وأبهة جميلة ، وأدخلت الفرح على سائر المسلمين لتمكن المحبة والمودّة بين السلطان وبين ولاته ، ثم أمر الوزير بادخالها القلعة وأكرم الذى جاء بصحبتها

واعلم أن محمد باشا الكردى ابن خالد باشا بعد ما عفا عنه الوزير رجع الى الافساد وظــلم العباد والنهب والسلب وفر الى بلاد العجم (لأنها هى مأوى كل عاص وشقى) والتجأ الى والى كرمان محمد على خان القجرى وصار يغير على بلاد الدولة وقراها ثم يرجع الى محمد على خان فى كرمان ، فحبس الوزير أباه خالداً ليمنعه من اللحوق بولده فى ديار الرفض ، ثم تبين أن يحيى بك الخازندار كان بينه وبين محمد باشا الكردى روابط سرية ومعاهدات على العصيان ، وأراد الفرار أيضا يحيى بك الخازندار واللحوق بكرمان عند محمد باشا الكردى ، فاستشعر به داود باشا فحبسه وأمر بخنقه فى الحبس

وفيها خرج الوزير بعسكر جرار مع كمال الأبهة وأثاث الملك والسلاح والمدافع ، ففى الظاهر أنه خرج للاصطياد ، وفى الباطن

مقصده أن يظهر قوته للأعداء ليرتدعوا ، وأقام للصيد وأرسل أخاه أحمد بك إلى إربل . ومذ علم صاحب كرمان خروج الوزير بهـذا العسكر الجرار ظن أنه هو المقصود للوزير واستعد للقتـال ، وفى الحقيقة إنه لم يخطر للوزير على بال ، ثم رجع الوزير إلى دار خلافته بغداد

وأما سليمان بك ابن ابراهيم بك الكردى فانه أيضاً فر الى العجم وأما خالد باشا الكردى فان الوزير تحقق لديه أنه لا دخل له مع ابنه فى الفساد فأطلقه وبقى كما كان فى بغداد

وممن انهزم الى بلاد العجم فى تلك الأيام عبد الله باشا الكردى فى مائتى خيّال من أكراده . ولما اجتمع أمراء الأكراد فى كرمان وقوى عددهم شرعوا فى الفساد والإغارة عـلى بلاد الدولة العلية والنهب والسلب وقطع الطرق ، ثم مأواهم وملجأهم كرمان شاه ، وكل هؤلاء الأكراد ما فروا الا من كون الوزير لا يعجبه الفساد ولا المفسدون ولا الظلم ولا أهله ؛ وغايته أنه انضم والى كرمان بنفسه وعسكره مع الأكراد ودخلوا فى حدود ممالك الدولة العلية ووصلوا إلى بلدة زهاب قاصدين بغداد على زعمهم ، وصاروا ينهبون كل مـا يصادفهم من القرى ، فن القرى التى أصيبت بهم قولاى وعلبـاد وخانقين ، ولما بلغ الوزيرَ أفعالُ والى كرمان أرسل شرذمة من عساكره اليهم ، فلما سمعوا بها رجعوا الى كرمان ولم يمكن لعسكر

الوالى الدخول فى حدود بلاد العجم لعدم الإذن من الدولة العلية ، فحينئذ أرسل الوزير وأبلغ الدولة العلية أفعال العجم والمحاربين اليهم من الأكراد فأرسل السلطان إذناً عاماً الى داود باشا بمحاربة العجم جهاراً نهاراً صراحة بالاعلان ، وأرسلت له الدولة أيضاً ألفاً وخمسمائة عسكرى لمساعدته على والى كرمان ، فلما وصل عسكر الدولة إلى البلدة المسماة بالزن كباد أرسل الوزير معهم عسكر اللاوند ، ثم جمع الوزير كل ما تصل اليه يده من العسكر ومن شجعان الأعراب والعشائر وألحقهم بعسكر الدولة فى زن كباد

وتحقق الوزير الأخبار سراً وجهراً فعلم أن مقصد والى كرمان أن يجعل عبد الله باشا الكردى والياً على بلاد الأكراد ويعزل محمود باشا الذى نصبه الوزير داود باشا عليهم ، فأمر الوزير محمد بك الكتخدا أن ينهد بعساكره وينضم الى محمود باشا ويقوّى عضده ، وأمره أن يخبر محمود باشا بأنه أتى لنصرته ومساعدته وأن الوزير بعسكره قريب منهم فى الزن كباد ، فخرج الكتخدا يوم الخميس ثالث رمضان ونزل قريباً من محمود باشا وأقام هناك أربعين يوماً ، فورد عليه من محمود باشا مكتوب يستنجده فيه ويقول له : إن والى كرمان وجه مع عبد الله باشا أربعة آلاف خيال ليقصدوا السليمانيـــة ويفتحوها ويملكوها الى عبد الله باشا ، وأن والى الجاف الذى هو تبعى قد خان ولحق بعبد الله باشا ، فسار اليه محمد بك الكتخدا بعسكره ونزل فى محل قريب منه يسمى بازيان ، وعبد الله باشا بعسكر

العجم مخيم فى محل قريب منهم يسمى خواجانى ، فلما وصل الكتخدا
بعسكره إلى محمود باشا تقوّى عضده فأرسل عبد الله باشا الى والى
كرمان بأن الوزير داود باشا قد أمد محمود باشا ، فالعسكر الذى معى
لا يكفى ، فحالا ركب والى كرمان لمساعدة عبد الله باشا بنفسه ومعه
خمسة عشر ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، فلما بلغ الخبر داود
باشا أرسل أخاه أحمد بك بعسكر للمدد ، ثم رجع الوزير بعسكره
ليحضر الحرب بنفسه ، وأرسل الى الكتخدا يمنعه عن الحرب حالا
ويطلبه فيه للحضور عنده ليتخابر معه فى أمور سرّية ، فما كان من
الكتخدا إلا أنه اعتذر للوزير ولم يحضر عنده ، وظهر أنه خان
واتفق سراً مع عبد الله باشا ومع والى كرمان ، ولكن مقصده أنه
أولا يتلف العسكر الذى تحت يده ليوهن بها قوة الوزير داود باشا ،
فشرع فى المحاربة مع عبد الله باشا خلافاً لأمر الوزير وعلى غير تعبئة
ولا نصح ، حتى أن العسكر ينهزم ويتلف ثم يلحق هو بعبد الله باشا ،
فتلاقى عسكر الكتخدا ـ وكانوا ثلاثة آلاف ـ مع عسكر عبد الله
باشا وعسكر العجم ـ وكانوا خمسة عشر ألفاً ـ ومع ذلك صابر أهل
السنة مدة طويلة وآخرها أنهم انهزموا وتشتتوا ، وأما الكتخدا محمد
بك فانه لحق ببلاد العجم مؤملا أن يفوا له بما وعدوه ، فان رئيس
العجم وعده إن تسبب فى إهلاك عسكر الوزير بأنهم يهجمون على
بغداد ويجعلون الكتخدا والى بغداد

وفى تلك السنة حصل وباء عظيم فى البصرة كاد أن يفنى أهل

البصرة ، وكثير من البيوت مات أهلها جميعاً وقفلت بالضبّة[١] ، وكثير من الأموات يجدونهم فى الطرقات ولا يعلمون من أى الجهات هم ، وأغلب الناس فروا إلى البادية ، وهو طاعون كالذى ذكر الامام النووى أن من علاماته القئ والاسهال . وهذا الوباء كان كذلك يبتلى صاحبه بالقئ والاسهال المفرط ، وصاحبه لا يبول فاذا بال سلم . واستمر فى البصرة من آخر شوال الى آخر ذى القعدة ، إلا أن شدته من أول ذى القعدة الى اثنى عشر منه ، ثم كان تارة يشتد وتارة يخف الى أن انعدم . وصاحبه تعتريه حرارة عظيمة ظاهراً وباطناً . وقد ألقى بعضُ المصابين به نفسَه فى الماء البارد فلم يفده شيئا وقضى نحبه ، وتحيرت فيه الأطباء وما علموا له دواء أصلا ، كما أنهم لم يتحققوا أسبابه على اليقين ، بل كل من الحكماء يبدى سبباً للوباء يخالف ما يقوله الحكيم الآخر ، وهذا دليل على عدم الوقوف على الحقيقة لأن الحق واحد لا يختلف فيه ، وما هذا إلا لكون أدلتهم ظنية

ثم دخلت سنة ١٢٣٧ وفيها شرع محمد بك الكتخدا فى الافساد ، وجمع جموعاً وعساكر ، وطمحت نفسه لولاية بغداد والاستيلاء عليها ، وساعده على ذلك والى كرمان بجيوشه الروافض ، فساروا إلى

---

(١) الضبة : قفل خشبي فيه شبه مسامير متحركة ، وله مفتاح خشبي ذو مسامير ثابتة بعدد مسامير القفل وفى مثل وضعها ، فاذا أريد فتحه أدخل المفتاح ارتفع مساميره الثابتة مسامير القفل (أى الضبة) المتحركة فيفتح

كركوك فقاتلهم أهلها أشدّ القتال لما جبل عليه أهلها من وجوب طاعة السلطان وامتثال أوامره ومناوأة من عاداه ، فلما لم يقدر على أخذ كركوك عدل عنها وقصد بغداد ، وصار ينهب القرى التى فى طريقه (١) ، إلى أن وصل إلى محل بعدُه عن بغداد ثمان ساعات يسمى (ولى عباس) ، وقد كان الوزير داود باشا كتب الى الدولة العلية بجميع ما جرى من عصيان الكتخدا وكسر العسكر ولحوق الكتخدا بالعجم وما فعلوه بالمسلمين وببلاد الدولة العلية من المفاسد والتخريب . فلما أبطأ على داود باشا جواب الدولة العلية له جمع عساكره وحفظ بها سور بغداد ، ورأى أن هؤلاء عسكر بجمع ملفق فكلما طالت عليهم المدة تزهق نفوسهم ويتفرّقون عن الكتخدا من لدن أنفسهم . ثم ان عساكر الكتخدا صاروا يغيرون على قبائل العربان الذين حول بغداد ، فأغاروا على عرب الخالص ونهبوا منهم أربعين ألف رأس غنم وخربوا بساتين الخالص وخراسان (١) . ثم رجع الكتخدا ومن معه من عساكر الى بلاد الكرد القريبة من حدود العجم حيث لم يظهر لهم أحد من العثمانيين لمقاتلتهم ، وخافوا

---

(١) وكان داود باشا قد عله فيما مضى أن ينهب القبائل الفقيرة بلا حساب إذا فرّت من وجه جيشه المهاجم لها بحجة تلكئها فى دفع الاتاوات ، وقد كافأه وألبسه الخلعة استحساناً لما كان يفعل (انظر ص ١٣٨)

(١) فى هامش الاصل : « المراد بخراسان هنا قرية من قرى بغداد ، لا خراسان التى ببلاد فارس »

من أن سكوت داود باشا ربما يكون لمكيدة وأنهم إن بقوا حول بغداد ربما يظفر بهم ويهلكهم عن آخرهم ، فلهذا رجعوا الى قريب بلاد العجم . واتفق أن عسكر العجم احتاجوا الى الميرة فأرسلوا نحو ألف خيال ليكتالوا لهم من بعض بلاد الدولة العليـــة ، فصبّحهم (صفوق الجربا) بعربه وقتل الأكثر منهم ، والذى نجا فهو القليل

ثم ان الكتخدا مع عسكر العجم لمـــا رأوا أن المسألة طالت عليهم ، ولم يروا من يحاربهم ، وتجييش الجيوش يحتاج الى مصاريف كثيرة ، جنحوا للسلم وللصلح ، وكتبوا بذلك إلى داود باشا ، فرأى أيضا داود باشا أن ظروف الأحوال تقضى بأن الصلح هو الأصلح ، فأرسل من طرفه الفاضل الأكمل محمد بن أبي دِبس - أحـــد ندماء الوزير - وأرسل معه أحـــد تلاميذه وهو محمد افندى ابن النائب ، فساروا الى والى كرمان وتفاوضوا معه فى شأن الصلح ، فقبله منهم بشرط أن يعطى الوزيرُ داود باشا لواءَ بابان لعبد الله باشا ، وأن يكون لواء كوى وحريرا لمحمد بك ابن خالد بك الكردى . فأرسل ابن دبس وابن النائب بصورة الحال الى الوزير ، فرأى الوزير أن المصلحة فى الصلح الآن وان خالف فرمان السلطان القاضى بأن كل من لحق ببلاد العجم وعصى على مأمورى الدولة فهو محروم من الرجوع مرة أخرى الى وطنه ، ولكن يرى الحاضر مالا يرى الغائب ، فوافقهم الوزير على هذا الصلح الذى لا يخلو من الذلّ ، وأعطى الخلع على

مراد والى كرمان (١) ، بشرط أن العجم يرحلون عن حدود الدولة العلية أصلاً ، وردّ السفيران بعض المنهوبات من الخالص وهو عشرة آلاف رأس فقط (٢) ، ورجعوا . فلما عزم والى كرمان على مفارقة ممالك الدولة العلية ودخوله أرض العجم اخترمته المنية فأراح الله العباد والبلاد منه بلا حرب ولا ضرب (٣) . وأما الوزير فانه عفا من الخراج عن جميع القرى التى أصيبت من ضرر جيش العجم ومن محمد الكتخدا فى تلك السنة ، وعرّف الدولة بذلك

وفى أثناء انتشار العجم فى أرض الدولة العلية قام أهل الفساد وصاروا ينهبون الضعفاء . فمن ذلك أن عرباً أغاروا على قرى الدُّجيل وبعد ما تم الصلح أرسل الوالى عسكراً لرد منهوبات رعايا الدجيل فاسترجعوا كل ما أمكن ردُّه

وبينما هو منتظر أوامر الدولة إلا وقد وردت فرمانات من الدولة لأمين المعدن ، ولوالى الموصل ، ولوالى ديار بكر محمد رءوف باشا ، ولوالى بغداد داود باشا بأن يتجمعوا ويقصدوا بلاد العجم

---

(١) أى أن داود باشا ألبس خلع الشرف لكل من أشار والى كرمان بتشريفه من الخونة وسفاكى الدماء لشهواتهم الشخصية

(٢) أى ربع المنهوبات

(٣) الحرب والضرب انتهى من قبل أن تخترمه المنية ، وقد دفع داود باشا ثمن ذلك من كرامة نفسه ودولته وخسائر الاهالى المساكين الذين عاث المفسدون فى ديارهم ، فكوفئوا بالتكريم والتشريف

ويؤدبوا كل مفسد منهم أو بمن التحق بهم من بلاد الدولة العلية ، وأن داود باشا هو رئيس تلك العساكر بأجمعها ، وكان الأمير إذ ذاك على أطراف بلاد العجم من جهة كرمان هو عباس خان وابن شاه العجم ، وأكثر حث الدولة وأمرها على إهلاك محمد بك الكتخدا لأنه هو أساس هذه الفتن والحروب والشرور كلها

ثم دخلت سنة ١٢٣٨ ، وفيها أمر الوزير صفوقاً الجربا أن يغزو مع عربه أطراف بلاد العجم ، فركب هو وقومه إلى أن نزلوا بمرأى من جيش العجم ، فلما رأى عباس خان قرب خيالة العرب منه أمر نحو ألفي خيال من جيشه أن يهجموا على عرب صفوق الجربا الشمري ، فلما أقبلوا علـى عرب الجربا انهزم صفوق وعربه استطراداً لهم ، فصار العجم يتبعونهم إلى أن عبروا نهر ديالة وعبر العجم من فوق الجسر وراءهم ، ثم انعطف عليهم عرب شمر واختلطوا بالعجم ، وصاح الابطال بعضهم على بعض ، وتطايرت الرءوس وطاش عقل الجبان ، فما كانت إلا برهة وقد انكسر عسكر العجم ، وبسبب ضيق الجسر صار عبورهم منه فى غاية المشقة ، فازدحموا على العبور ، وهناك صارت المقتلة على عسكر العجم التى أتلفتهم عن آخرهم إلا النزر ؛ وأتى عرب شمر بخيل العجم وسلاحهم الى الوزير

وأخبرنى غير واحد أن هذه الواقعة غير الأولى التى ذكرها المؤرخ التركى

و (صَفوق) هو – بفتح الصاد وضم الفاء – فى اللغة : الممتنع من الجبال ؛ سمى به هذا الكريم الشجاع الحاتمى

ولما رأى داود باشا نصرة صفوق له أقطعه بلدة (عانة) وما والاها من القرى مكافأة له على شهامته ونخوته وشجاعته وخدمته للاسلام

وفى سنة ١٢٣٨ أيضاً وقعت فتنة بين سكان بلدة الزبير [١] بعد أن كانوا يداً واحدة على من ناوأهم وعاداهم ؛ فدخل بينهم المفسدون والمنافقون الذين شأنهم نقل الأزَيب [٢] ، ولا توصلوا إلى الغنى والثروة إلا به ، فتفرقت كلمتهم ؛ وفسا بينهم الظربان ؛ وسببه الحسد ، وذلك أن (محمد بن ثاقب بن وطبان) يحسد (ابن الزهير) على استعباده أشراف الناس باحسانه وكرمه ، وانقياد أهل تلك البلدة له لما طوّقهم به من الأيادى ، فادّعى ابن ثاقب على ابن زهير دعوى يكذبها من له أدنى عقل وهى أن ابن زهير أمر بسمّ راشد بن ثامر شيخ بنى المنتفق ، وأن ابن وطبان وكيل عن المنتفق فى أخذ الثأر لهم ، وصدّقه فى دعواه كل منافق يحب أن تشيع الفاحشة فى الذين

---

(١) هى بلدة المؤلف ابن سند . منسوبة الى الزبير بن العوام رضى الله عنه . وهى الآن ضاحية للبصرة الحالية ، وكانت البصرة القديمة فى موضع الزبير ، ثم لما ترسبت أرض جديدة على الشاطئ مما تحمله مياه دجلة والفرات حدثت البصرة المعروفة الآن لضرورة قيام مدينة على الشاطئ

(٢) الأزيب : الأمر المنكر

آمنوا . فلما شاع أمر السم ركب ابن زهير متن الحذر وتترس في بيته مع عياله وأتباعه وصاروا لا ينامون خوفاً من جماعة ابن ثاقب ، فلما علم ابن ثاقب أنه لا يمكنه الغدر به ولا الفتك به بالخداع أمر رجاله أن يدخلوا بلدة الزبير ويهجموا على بيت ابن زهير ويأتوه به ، فامتثلوا أمر ابن ثاقب ، وفي الليل هجموا على دار ابن زهير فصدهم بالرصاص خدامه وأصحابه ، فحينئذ كشّر الشرُّ عن أنيابه وتظاهروا بالعداوة والحروب وتلفت ناس بسببهم ، وكل هذه المفاسد والحروب وسفك الدماء لا سبب لها إلا الحسد والبغي والبطر والأشر . ثم إن عرب ابن زهير تغلبوا على جماعة ابن ثاقب وطردوهم عن بلدة الزبير ، فخرجوا ووصلوا البصرة وأرادوا الدخول فيها ، فمنعهم متسلمها محمد كاظم أغا خوفاً من أن الوزير يسمع بأنه مساعد للبغاة ، ولكن في الباطن هو مساعد لابن ثاقب وعدو لابن زهير . فلما مُنع ابن ثاقب من دخول البصرة نزل على (نهر مَعقل) فما زال ابن ثاقب على نهر معقل إلى أن هجم عليه بعض الأعراب من اللصوص للنهب والسلب ، وقيل انهم مدسوسون من طرف ابن زهير ، والكل جائز ، وتقاتلوا معه وقتل من الفريقين كثير وانهزم ابن ثاقب وقومه وعبروا الفرات ، فصار يكاتب كلَّ من يعرفه ويطلب منه المساعدة . ولما ورد حمود بن ثامر من البادية خدع ابن زهير وأظهر له المودّة ، فمذ ورد عليه حبسه وقيّده إلى أن مات وقيل سمّه فرحمه الله ، ولقد كان ذا صدقات وأعمال برّ وعفة عن المحرّمات

ومن وقائع هذه السنة الحرب التى جرت بين عرب الدويش شيوخ قبيلة مطير وبين بنى خالد أمراء الحسا وأن الدويش انتصروا على بنى خالد بعد ما امتنع الدويش عن المحاربة ورام الصلح والمسالمة، ولكن ماجد بن عَرعر أبىُ إلا الحربَ معهم، فكانت الدبرة عليه، وفى المثل «آبى الصلح نادم»، وغنمت مطير أموالا كثيرة من بنى خالد بن عرعر من خيل وإبل، لأنهم قوم متمولون من نخيل الحسا ومزارعها، وقتل فى هذا اليوم المسمى بـ (يوم الرُّضيمة [١]) من مشاهير العرب (حَباب) أحد فرسان مطير وأحد سادة البرزان منهم، قتله (مِشعان بن مغيث) أحد سادات آل هذّال من عنزة. وممن قتل فى ذلك اليوم (مغيث أبو مشعان). وقتل من سادات بنى خالد (دُجين بن ماجد بن عرعر). وأعظم الناس قتلى من جانب بنى خالد القبيلة المعروفة ببنى حسين فان القتل استحرَّ فيهم فصابروا وجالدوا بالسيوف حتى تكسرت. وممن قتل فى ذلك اليوم (مُخزيم ابن لحيان) وهو من كبار (السهول) القبيلة المشهورة من مطير ومن فرسان العرب المعدودين قتله أشجعُ من ركب الخيل فى أيامه (ماجد ابن عرعر الحميدى) شيخ بنى خالد، وبلغنى من بعض الثقات أن المطيريين قالوا: لسلامةُ حباب وخزيم السهيلى أحبُّ الينا من إدالتنا على بنى خالد، ولنودُّ أنه لم يبق لنا خفٌّ ولا حافر ويسلم لنا ذانك

---

(١) بضم الراء وفتح الضاد - عن الأصل

الرجلان لما فيهما من مكارم الأخلاق والنخوة والشجاعة وحماية الجار والكرم والعفة عن المحرّمات والجارات

والذى شاع واستفاض على الألسنة أن نسب السهول والمطيريين يرجع الى قحطان ولكنى لم أره فى تاريخ للمتقدمين ولا فى كتب الانساب [1]

انتهت الحرب التى ما سببها إلا البطر والأشر والطغيان

ومن الوقائع المشهورة فى تلك السنة (يوم بَصّالة [2]) وهو لشمّر القبيلة المشهورة على آل هدّال من عنزة وكبيرهم عبد الله بن هدال أحد مساعير الحرب ، وكبير شمّر صَفوق بن فارس الجربا الشمرى الزوبعى ، وكانت الغلبة لشمر على العنزيين ، واستولى الشمريون على هودج بنت ابن هدال ونهبوا أموالهم . واستصحاب النساء الخرائد فى وسط جيوش الحروب هى عادة جاهلية وبقيت الى

---

(١) سهول مطير هؤلاء غير سهول عنزة الربعيين من ضنى عبيد المذكورين فى كتاب (قلب جزيرة العرب) ص ١٧٧ (المطبعة السلفية) . اما مطير والسهول - وهى منها - فتدّعى أنها من مضر ، والذى تحققه الاستاذ فؤاد حمزة (فى قلب جزيرة العرب ص ١٩٢) أنها مجموعة قبائل متحالفة بعضها من قحطان وبعضها من عدنان ، ومنازلهم من حدود الكويت الى قرب القصيم غربا

(٢) بفتح الباء الموحدة وتشديد الصاد المهملة وألف بعدها - عن الاصل

الآن لأجل أن يشجعن الفتيان وينتخين باسماء الشجعان فيكن سبباً لنصرة قومهن ، فان الفتيان تدب فيهم الغيرة والحمية على العار فيقاتلون العدوّ قتال المنهالك ، ومن ذلك قول عمرو بن معدى كرب الزُّبيدى فى قصيدته الحماسية :

لما رأيتُ نساءنا ... يفحصن بالمعزاء شدّا[1]
وبدت لميسُ كأنها ... بدرُ السماء إذا تبدّى
وبدت محاسنها التى ... تخفى وكان الأمر جدا
نازلت كبشهمُ ولم ... أرَ من نزال الكبش بُدا

ولما عبر ابنُ هدال الفراتَ ندب قبائل عنزة لأخذ الثار وغسل العار ، فاجتمع العنزيون وعبروا الفرات على الجزيرة ثم ساروا بقضهم وقضيضهم قاصدين شمر — وذلك فى سنة ١٢٣٩ — فالتقوا فى موضع يسمى (السبيخة) وبقوا أياماً والفرسان فى مطاردة ومطاعنة ، ثم فى آخر الأيام أدبرت شمر وصارت الدالة لعنزة عليهم ، وغنم العنزيون من أموال شمر أموالاً كثيرة . وممن قتل من الفرسان (مطرب بن حمد الأسلى ابن حَطاب[2])

ولما انكسرت شمر شد الوزير داود باشا عضد كبيرهم صفوق

---

(١) المعزاء : الحصى . وكانت فى الاصل « يعزفن » . ولم أجد الأبيات فى مرجع يوثق به عند مثول هذا الموضع من الكتاب للطبع

(٢) بفتح الحاء أخت الخاء — من الأصل

الجربا وأعطاه من الأموال والنقد والمواشى والقرى والضياع مالم يسمع بمثله إلا فى زمن البرامكة

وهكذا كانت عادة الوزير داود باشا فى الكرم ، فانه لما بلغه أن شيخنا الشيخ خالداً النقشبندى مديون أمر بسد ديونه - وكانت ثلاثين ألف غازى محمودى كبير ذهباً - وصرفها الوالى دفعة واحدة ، وهذا مالم يسمع بمثله منذ قرون طويلة

ودخلت سنة ١٢٤٠ وفيها عصت بلاد المورة على الدولة العلية ، وهى قطعة من بلاد الروم ايلى ، كانت ولاية من ولايات الدولة العلية ، فلما أن السلطان محموداً اقتضى نظره قتل الينيشرية وتبديل وجاقاتهم (١) بالعسكر النظامية الموجودة الآن ضعفت عساكر الدولة وقلت (٢) ، وطمع فيها الأعداء من كل جانب ، فحاربها الروس وملكوا بلاداً من أراضيها . وممن ثار عليها فى تلك المدة أهل المورة وطردوا ولاة الدولة العلية وقتلوا أكثر المسلمين الذين كانوا فى تلك

---

(١) الوجاق موقد النار فى المطبخ ، وبه سميت أفواج جيش الينيشرية ، فان كل فوج كان ينتمى الى مطبخ طعامه ، وإذا أراد الثورة يقلب الحلة الكبرى التى يطبخ فيها طعامه (ويسمونها قزان) وذلك علامة عصيانه

(٢) فكرة تغيير نظام الينيشرية بالجيش النظامى كما هى الحال فى الجيوش الاوربية بدأ بها السلطان سليم الثالث كما تقدم فى ص ٩٢ ، وحققها السلطان محمود ، وعند التحول من نظام لآخر انتهز اليونان والروس هذه الفرصة لتحقيق مآربهما

البلاد متولدين ومتوطنين منذ قرون طويلة ، وكان المسلمون هم أهل الأراضى والأملاك والمزارع ، وكان نصارى المورة بصفة خدامين عندهم ، فلا زال أمر النصارى يتقوى بواسطة الكنائس ورؤسائها لما يجتمعون فى أعيادهم ومواسمهم وينصحون أمتهم بالاستقلال ، وشرعوا فى تعليم أولادهم الحروب والرمى بالرصاص ، وأتقنوا أسباب الشجاعة بأنواعها سراً ، وتعلموا الصنائع التى يتولد منها الغنى ، وأرسلوا أولادهم الى بلاد أوربا لتعليم الصنائع ، والمسلمون فى غاية الغفلة والبلاهة يتركون تربية أولادهم للنساء أو للمخاصى المعبر عنهم بالأغوات (١) ، فلذلك ينشأ الأولاد وعقولهم مثل عقول تلك المخاصى . وأحسن من وصف المخاصى المتنبى بقوله :

لقد كنت أحسب قبل الخصىّ أن الرءوس مقرُّ النُّهى

فلما تبين لى عقله (٢) علمتُ النهى كلها فى الخصىْ

ولما ظهر للسلطان محمود ما صار على مسلمى المورة من القتل والسبى والنهب — إلا من فرّ منهم وهاجر إلى بلاد الاسلام — جهز جيشاً عرمرماً من عنده وأمر محمد على باشا والى مصر أيضاً بتجهيز

---

(١) هذا الكلام أشبه بكلام الشيخ أمين المدنى ، إلا أنه لم يضعه بين قوسين كما أشار فى مقدمة هذا المختصر . أما إن كان من كلام ابن سند فهو يدل على يقظة ربما كان يومئذ يندر مثلها حتى فى عاصمة الدولة

(٢) أى صغر عقل كافور الاخشيدى

جيش من مصر ، فاجتمع الجيشان فى بلاد المورة وحاربوا العصاة وكسروهم وهزموهم حتى كادوا أن يجنحوا الى الطاعة ، ولكن قام بعض الدول الافرنجية وساعدوا أهل المورة - أى بأن المورة تكون دولة مستقلة صغيرة - وأجبروا السلطان محموداً على ذلك ، وأنه إن لم يعطهم استقلالهم وإلا فالانكليز يحاربون السلطان ، فوافقهم على استقلال أهل المورة وقلبه يشتعل ناراً من الغيظ كما قيل :

ومن لم يجد إلا الأسنة مركباً   فما حيلة المضطر إلا ركوبها

(فبقيت المورة من تلك السنة هى دولة مستقلة ، ولا زالت تتقوى حتى آل أمرها الى أن صارت تعد من دول أوربا [1] وتدخل معها فى المجالس العمومية بين الدول الكبار ، وصار لها سفراء فى أكثر المدن العظيمة وذلك سنة ١٢٤٢ ، وكان خروج المورة عن الدولة العلية أكبر وهن أصاب الدولة ، لأن المورة وما يتصل بها من بلاد الروم ايلى الشرقى الذى هو من درامة وقولة ، ومن بلاد الروم ايلى الغربى يعنى البلغار الى حدود الطونة جميعهم نصارى أروام متحدون فى الملة [2] ، وخطباؤهم فى المواعظ والخطب لا زالوا مجتهدين فى الحث على الثورات ، والدول الاجنبية تساعدهم لاتحاد الملة فيخشى أن يلحقوا ببعضهم فى الثورات وطلب الاستقلال ، ولربما يجر الحال الى إخراج الدولة العلية أصلا من قطعة أوربا (لا سمح

(١) وسميت دولة اليونان   (٢) أى الارثوذكسية

الله ، إن لم تتيقظ هذه الدولة من نومتها . ولا تقل ان بعض الدول الافرنجية تساعدهم كما قال المصنف ، بل قل ان ناراً مشتعلة ترى بشرود كالقصر أولهـا في اسوج ونروج وآخرها فى البلغار ، والاعاصير تضربها على بلاد الدولة العلية من الجهات الست ، فياليت شعرى من أى جهة تخمدها الدولة العلية

ولو كان رمحاً واحداً لاتقيته ولـكنه رمح وثان وثالث

ويكون سببها تلك الشرارة الضعيفة التى هى المورة والتساهل فى أمرها)

ولنرجع إلى أخبار بغداد . وفى آخر هذه السنة تحرك محمد الكتخدا وجمع عساكر للافساد وحاصروا الحلة البلدة المعروفة التى بناها صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد ، ودخل الحلة وادّعى وزارة العراق (هذه الوقاحة بعينها) وأطاعه بعض العربان المفسدين ودخلوا فى زمرته وعزموا على الهجوم على بغداد ، فلما بلغ الوزيرَ داود باشا خبرهم جهز جيشاً وأكثره من عرب عقَيل النجديين وقصدهم إلى الحلة مقر العصاة ، فلما وصل الحلة ثارت الحرب بينهم وحمى الوطيس واستحر القتل بين الفريقين ، فانهزم الكتخدا ومن معه ، ودخل الوزير الحلة وعاقب كل من اشترك فى هذه الفتنة من أهل الحلة بالقتل والصلب والنفى ، وأما الكتخدا فانه فرّ والتجأ إلى حمود بن ثامر شيخ المنتفق فما قبله واعتذر منه والله أعلم بالسرائر ،

فهرب أيضاً الكتخدا ومن بقى معه ودخلوا الحُوَيزة وتحصنوا فيها ، وكانت هذه الواقعة فى أول سنة ١٢٤١

وفى السنة التى قبلها وفد على الوزير أحد أعيان بنى المنتفق وهو محمد بن عبد العزيز بن مغامس ، فأكرمه الوزير وأحسن نزله ، وصار مع الوزير فى الأمور المهمة . ومحمد هذا من أجواد العرب وشجعانهم مع عراقة أصله وعلو همته وضخامة عقله ، وكان له عند ثوينى بن محمد بن مانع أبهة وصدارة ، وكذلك عند حمود بن ثامر ابن سعدون بن محمد بن مانع أولا ، ثم تغير خاطره عليه ، فلهذا قصد الوزير داود باشا ليستظل بكرمه ، ولما أكرمه الوزير ترشح لمشيخة بنى المنتفق فما وافقه الوزير على ذلك لأنه كان وعد بها براك ابن ثوينى حيث ان أباه كان شيخاً على تلك القبيلة وكذلك جده عبد الله وجد أبيه محمد وجد جده مانع ، والملوك من شأنهم رفع أقدار ذوى الشرف وفتح البيوت القديمة

وفى هذه السنة - أعنى سنة ١٢٤١ - وفد على الوزير داود باشا محنتان بن مهنا بن فضل بن صقر أحد أكابر آل شبيب ، فأكرمه الوزير ، فلما اجتمع هو ومحمد بن عبد العزيز عند الوزير عزم الوزير على عزل حمود بن ثامر وأن ينصب بدله براك بن ثوينى ، ثم قدم على براك جماعة من كبراء قومه من آل صالح وهم شبيبيون ، وقدم عليه أيضا محمد بن مناع الأجودى العقيلى أحد مشايخ بنى المنتفق

وفرسانهم ، فقوى عضد براك بهؤلاء الجماعة وتوجهت اليه أنظار الوزير وكاد أن يوليه رياسة بنى المنتفق إلا أنه أخرها لمصلحة . ولما شاع عزل حمود طار عقله وطاش لبه وجاهر بالعصيان على الدولة العلية ؛ وأرسل الى محمد بك الكتخدا وهو فى الحويزة فقدم العراق لإثارة الفتن ونشر الفساد ، وانضم اليهم كل مفسد باغ على الدولة مثل آل قشعم وآل حميد وآل رُفيع

وفى هذه السنة غزا براك بن ثوينى ومن معه من آل شبيب عفكاً وقاسم بن شاوى بعربه لأن قاسماً وعربه أيضاً عصوا على الوزير وتحصنوا بالمياه والأهوار ، فخاض المنتفقيون عليهم المياه وقتل من أكابرهم وفرسانهم دُوَيحس بن مغامس بن عبد الله بن محمد ابن مانع الشبيبى ، وقتل أيضاً ابن اثامر بن مهنا بن فضل بن صقر الشبيبى ، وكان مع براك بن ثوينى شيخ زُبيد ولكنه ما أخاص نيته فى تلك الحرب

وفى آخر تلك السنة غضب أمير المؤمنين السلطان محمود على الجند المسمين بالينيشرية (١) وقتل منهم ألوفا ونسخهم من ديوان الجند

---

(١) كلمة مركبة من كلمتين تركيتين (ينى) بمعنى جديد و (چرى) التى أصلها (چيريك) بمعنى حى ، وتطلق على الجندى ، وسمى بهما جند المشاة الذى نظمه العثمانيون فى زمن السلطان أورخان سنة ٧٢٦ هـ وهذا السلطان ابن السلطان عثمان الذى تسمت الدولة باسمه ، فصار جيشها يسمى

وكتب الى جميع ممالكه أن يعزلوهم وأن يمحوا هذا الاسم من الدنيا ولعنتهُ نمياً على كل من ينطق بهذا الاسم (لأن الينيشرية لما قدمت اصطلاحاتهم اعترام الخلل فى الضبط والربط وصاروا يتسلطون على الوزراء بالقتل وعلى سلاطين آل عثمان بالخلع والقتل[١]، ويتنازعون فيما بينهم فى المدن حتى فى حالة الحرب، وينشأ من ذلك فتن داخلية، فكان هذا من جملة أسباب انحطاط دولة آل عثمان فى القرن الثانى

(ينيشرى)، وكان عليه اعتماد الدولة فى حروبها، وسجل له التاريخ مواقف مجيدة. وكان هذا الجيش عند تأسيسه قد تبناه الدرويش الحاج بكتاش الذى يعتقد سلاطين الترك وأعيانهم بصلاحه، إلا أن طريقته تجنح الى عقائد الباطنية والتحلل من تكاليف الشرع. وتطرق الفساد بالتدريج الى نظام الينيشرية وقادتها وجندها ولا سيما بعد القرن العاشر، وانتشر منهم الشر والفساد فى البلاد، وامتدت أيديهم الى جيوب الناس وبيوتهم وأصبحوا وبالا كبيرا. وكانوا يتدخلون فى شئون الدولة وتعيين رجال المناصب. الى أن حاول السلطان سليم الثالث احداث نظام جديد للجيش (كما تقدم فى هامش ص ٤٩ وهامش ص ٩٢ - ٩٣) ثم امضى هذا الامر السلطان محمود الثانى فى معركة نشبت بين رجاله من انصار النظام الجديد وبين قوات الينيشرية فى ميدان الخيل بقلب العاصمة (القسطنطينية) يوم ٩ ذى القعدة سنة ١٢٤١ انتهت بتحطيم الينيشرية وابادتهم ومطاردة أنصارهم البكتاشيين وتسمى هذه المعركة فى تاريخ الترك (الوقعة الخيرية)

(١) وآخر ذلك ثورتهم على سليم الثالث وارغامه على قتل رجاله ثم خلعهم له كما تقدم فى هامش ص ٩٢

عشر وفى أوائل القرن الثالث عشر حتى ما بقى لملوك آل عثمان إلا الاسم فقط ، وجميع الفتك والعزل والخلع والحرب والصلح كان بيدهم ، فنشأ من ذلك تسلط أهل أوربا على ممالك الدولة العليـــة وتقسموها ، ولولا ما أدركها الله به من هذا الشهم الهمام السلطان محمود بتغيير العساكر الى النظام الموجودين الآن لكانت اضمحلت هذه الدولة أصلا منذ سنين طويلة) فنسأل الله أن يؤيد هذا الدين به وبذريته آمـــين

وفى سنة ١٢٤٢ غضب السلطان أيضاً على الددوات المعبر عنهم بالبكتاشية [١] ، وطردهم من تكياتهم لمداخلتهم مع الينيشرية .

---

(١) الددوات جمع « دده » بمعنى الجد ، واستعيرت عند الترك لآباء الطريقة ، خصوصاً طريقة المولوية وطريقة البكتاشية ، وأكثر ما يسمى الشيخ عند البكتاشية « بابا » . وطريقة البكتاشية طريقة صوفية فى الظاهر لكنها فى الواقع طريقة إلحاد وتحلل وسفسطة وإباحة واستهزاء بكل حق وبكل خير ، ورجالها - على قدر ذكائهم أو غبائهم - يتخذون من التأويل والشطح والخيال والجهـــل تكأة للايغال فى كل ما يبعد بالمسلمين عن الاسلام وهدايته وأغراضه ، وأهون مافيهم من شر استحلالهم تناول الخمر ، وما يتصل به مما يليق بأهله . وهـذا ليس بشىء فى جانب عقائدهم الباطنية الخارجة عن دائرة الاسلام . وكان باباوات هذه الطريقة أصحاب السلطان المطلق على نفوس الينيشرية . فلما قضى السلطان محمود عـــلى ذلك النظام العسكرى أخذ يطارد البكتاشيين ذوى السلطان الدينى على الجيش المنحل ، إلا أنه ويا للاسف لم ينقذ عقائد البسطاء من هذا الوباء الذى استمر بعد ذلك .

ولكون البكتاشية روافض أرسل السلطان فرماناً الى سائر الممالك الاسلامية بطرد الددوات (١) . ولما وصل الأمر الى الوزير داود باشا طردهم من تكيتهم وولى عليها أحد خدامه خليل افندى ، فولى خليل افندى إمامه السيد طه الحديثى القيام بتكية الددوات فى بغداد ، فبعد أن كانت التكية مَلعنةً للصحابة أصبحت دار الحديث ، ولكن بعد أيام قلائل عزلوا منها السيد طه الحديثى بتهمته أيضا أنه من الددوات

ومن وقائع سنة ١٢٤٢ أنه قدم بغداد الشيخ عَقيل بن محمد بن ثامر ، فأكرمه الوزير وتخيل فيه أنه هو الذى يصلح لرياسة بنى المنتفق ، فولاه تلك الرياسة وألبسه خلعتها وأعطاه الوزير أسلحة كثيرة ودروعا وبنادق ، وأمره بالتوجه الى سوق الشيوخ وطنه ومحل حكومته ومنزل قومه وعشيرته ، ثم أرسل الوزير الى متسلم

فى بلاد كثيرة . والى الآن يوجد منهم فى آلبانيا ، بل لهم معقل فى جبل الجيوشى بالقاهرة ، وفى كل عام يدعو شيخه بنات الأجانب ورجالهم للاحتفال بذكرى مقتل الحسين على موائد تحوى مالذ وطاب لأمثال ضيوفه من مأكول ومشروب ، ويجد من عظماء الأسر التى تمت الى رجال هذه الطريقة بنسب ومشرب سخاء فى المعونة والبذل والاكرام

(١) يظنونهم روافض لأنهم كالشيعة يبغضون أصحاب رسول الله ﷺ ويتظاهرون بتقديس آل البيت ، لكنهم فى الحقيقة يدعون الى تأليه على وبعض بنيه لا حباً بعلى ولا ببنيه بل لينقضوا بذلك دعائم الاسلام وعقائده

البصرة : إنا خلعنا حموداً عن إمارة المنتفق فأظهرْ ذلك فى أطراف أحكامك ، وولينا بدله عقيلا ابن أخيه ، فأنت تحفّظْ على البصرة وعلى أطرافها ولا تخش من غارات العصاة فان باطلهم دخان مآله إلى الزوال . فلما أظهر متسلم البصرة عزل حمود وتولية عقيل خف عقل حمود وطاش لبه بعد الحلم الذى كان مشهوراً عنه . فأمر ابنيه ماجداً وفيصل أن يقصدا البصرة بجموعهما ويستوليا عليها ويستأصلا من فيها ، وندبا لمحاصرتها كل رافضى من بنى كعب ومن ممالك العجم ، واستدعيا أيضاً الى محاربتها ومحاصرتها السيد سعيداً سلطان مسقط ومعه عسكره الإباضية . فأما ماجد فانه نزل قريباً من نهر معقل ، وأما فيصل فنزل أبا تَسلال ومعهم الاباضية عسكر إمام مسقط السيد سعيد والروافض بنو كعب ومن التف عليهم من محبى النهب والغارات . ولما اشتد الأمر وكادوا أن يفتحوا البصرة برز اليهم عسكر عُقيل من عرب نجد ونشب القتال بينهم وبين عسكر فيصل — وكانوا على الربع من عسكر فيصل — فثار عليهم عسكر فيصل ، فالتجأ عرب عقيل فى النخيل ، فهجم عليهم عسكر فيصل ، ورمتهم عُقيل بالرصاص وهم متترسون فى النخيل ، فما مضت سويعات إلا وانكسر عسكر فيصل وانهزموا وقتل منهم خلق كثير بالرصاص ، وعلى الباغى تدور الدوائر (١) . وأما عسكر عُقيل فانهم رجعوا الى

---

(١) لا ندرى من هو الباغى هنا . إنه خلع حمود عن إمارته لم يكن له من

البصرة منصورين غانمين ، فقوى بهم عضد أهل البصرة وثابروا على الحصار والمقاتلة . وهذه الكسرة فتّت من عضد ماجد وفيصل مع أنهما لم يُبقيا من طلاب الشر والطمع واحداً إلا ندباه ، ولا عدواً للدولة العلية إلا استعانا به ، حتى أن السيد سعيداً إمام مسقط ملأ بسفنه الشط ، لأنهما وعداه أن يملّكاه البصرة فساعدهما ، وقد كسر الله أنف الجميع بهذه الواقعة التي لم تخطر بالبــــال ، ثم صار بعدها مناوشات ومقاتلات ، وتم الحرب والجلاد أكثر من شهرين

هذا ولما ضاق الحصار على متسلم البصرة واشتد الغلاء خاف من الفشل العام ، فأرسل الى سلطان مسقط السيد سعيد وصالحه على مال وحذره من بطش الدولة العلية وانتقامها ، فـــنزع سفنه وسافر الى مسقط بلده ، وظل فيصل وماجد بمن معهما من الأعراب فقط ، وهذه مصيبة ثانية كسرت عضد فيصل وماجد

وفي أول ربيع الأول خرج عُقيل شيخ المنتفق الجديد من بغداد متوجهاً الى وطنه سوق الشيوخ ، وفي إثناء ارتحاله مر على سليمان بك الميرآخور محاصراً للأقرع جند الشيطان ، ومع الأقرع آل قشعم ومحمد بك الكتخدا العاصي القديم ومعهم رستم خان رئيس

سبب إلا راحة داود باشا وحقده القديم عليه أيام ولاية سعيد باشا . وكان حمود حكيماً في إيثاره السلام عندما تولى داود باشا ، وقد نصح حمود لسعيد باشا بالاستسلام ، ولم يبدر منه شيء بعد ذلك ، فهل كان يريد منه داود باشا أكثر من هذا

الروافض[١]، وما كان مع سليمان بك إلا قبيلة زبيد المعروفة من كهلان وعقيل وشيخهم جعفر، وكان عسكر سليمان بك نحو العشر من عسكر الأقرع، ولكن مع عسكر ايرآخور المدافع والأسلحة الجيدة. فلما التقى الجمعان وترامت الصفوف ورمى عليهم سليمان بك بالأطواب فأزعجهم بأصواتها ودخانها وصار لها دوى فى الجو جفلت منه الخيل، فحينئذ انكسر الأقرع بمن كان معه وانهزموا، ولزم عسكر الروم أقفيتهم [١] وقتلوا منهم مقتلة ظلت الجيف مطروحة فى محلها أشهراً ويقال إن القتلى أكثر من ألفين. ولما ورد الخبر الى الوزير داود باشا أمر أن يبنى من رءوس القتلى منارتان فبنيتا على طريق الحلة، ولم يحضر هذه الوقعة الشيخ عقيل شيخ المنتفق ولا الشيخ صفوق الجربا، ولكن حضرا قلعة شِخَيِّر واظهرا فيها من النصح للوزير ومن أنواع الحروب ما هو مأمول فيهما. ولما ورد قتل الأقرع صباحاً زاد السرور بذلك للوزير وعلم أن سعده قد قام بلا منازع (والاقرع [شيخ] فرقة من الجبور من سبيع)

ولما أمر الوزير داود باشا عَقيلا شيخ المنتفق بالسفر الى محل حكمه قال له: لا تعجل فى سفرك، بل تأنَّ ما أمكنك ولو تجعل

---

(١) فى هذا الخبر أسماء لم يسبق ذكرها من قبل، وكان من حق المؤلف أن يزيد قارءه إيضاحاً عن أصحابها. وسيأتى أن الأقرع [شيخ] فرقة من الجبور من سبيع

(١) الروم فى اصطلاح الدولة العثمانية هم الترك

الطريق أشهراً فهو أولى ، لأن العصاة كلما طالت عليهم المدة تشتتوا حيث انه لا يقدر على المصابرة على القتال والمداومة على الحصار إلا الدول الذين يجبون الخراج ويصرفونه على العساكر ، فيصابرون الشهور بل الأعوام والدهور ولا يملون ولا يحتاجون ، وأما مثل هؤلاء الطغام فمتى طال عليهم عدمُ المناجزة سئموا وملوا وتفرّقوا يطلبون القوت ، وتجمّعهم ماهو إلا ساعات ، وإذا طال وقوى واشتد فيكون أياماً لا غير ، فلهذا صار عَقيل ومن معه كلما مر على قبيلة أقام أياماً وهو يذبح الكوم السمان ويكرم وينعم ، وكل هذا من خير الوزير عليه . وكان ممن صحب عقيلا بأمر الوزير صفوق الجربا بعربه لتأييد عقيل . وبعد واقعة الأقرع صير الوزير الميرآخور سليمان بك سرداراً على عموم عساكره لما رأى من قوة بأسه وعقله وشجاعته فى حرب الأقرع

وأما البصرة فبقى متسلمها مع عسكره يحاصر ويقاتل ، ويهاجم عسكر أولاد حمود ، وشد عضدَ المتسلم سكانُ قصبة الزبير من أهل نجد . فلما سافرت سفن السيد سعيد إمام مسقط ضاقت الأرض بما رحبت على فيصل بن حمود وسُقط فى يده ، فسار ونزل على أخيه ماجد فى نهر معقل ، وأشار عليه أن يذهبا إلى والدهما ويستشيراه فى مقاصده ، فلم يقبل منه أخوه ما أشار به قائلا : لا أرحل حتى أملك البصرة بالسيف وأجعل عاليها سافلها ، وأقتل عالمها وجاهلها »

وأستبيح الفروج ، وأهدم القصور والبروج [١] ، وأريق دماء أهلها وأصبغ من دمائهم أرض البصرة (انظر فى هذه الألفاظ الشنيعة التى تقشعر الجلود من سماعها فضلا عن رؤيتها . ويا عجبا كيف تصدر هذه الألفاظ ممن يدعى الاسلام [٢] . ويا ليت شعرى ماذا صنع له أهل البصرة ، هل هم الذين عزلوا أباه ، ولو فرضنا أنهم عزلوا أباه هل يستحقون مكافأتهم بذلك . لكن الطغيان والطيش والبطر والأشر متى استولى على الانسان تعمى منه البصيرة لا البصر ، فانها لا تعمى

---

(١) هذه السجعات الأدبية وأكثر معانيها مما نظن أنه قد أملاه على المؤلف متزلفه من داود باشا وخطته فى تأييده والثناء عليه ، والاخبار فى اثناء الفتن والحروب تأتى بجملة ويبعد أن يكون فيها مثل هذا التنميق . ولا شك أن متسلم البصرة والسلطات التركية الحاكمة كان من مصلحتهم فى ذلك الحين اذاعة مثل هذا الكلام عن لسان خصومهم ليوغروا صدور الاهالى ويستجيشوهم معهم ، وقد كانت خطة ولاة الترك فى بغداد وعمالهم فى العراق أن يقاتلوا العرب بالعرب

(٢) وهناك احتمال كبير بأنها لم تصدر ممن نسبت اليه . ونحن الآن نسمع رواية الخصم فى خصمه . وان حموداً وابنيه دفعوا الى هذا الموقف دفعاً من غير سبب يوجبه ، وكان داود باشا فى غنى عن أن يثير عليه وعلى الدولة والأمة أناساً كانوا راضين بالسلم مخلدين الى السكينة . ومثل هذا التصرف مألوف من الولاة الحمقى الأغبياء ، أما داود باشا فى علمه وعقله فيؤاخذ على هذا التصرف الخاطىء الذى كان فى غنى عنه

الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . أعاذنا الله وإياك من كفران النعم ومن تحكم النفس الأمارة) . فلما سمع فيصل من أخيه تلك الألفاظ الدالة على أن صاحبها لن يُنصر قط قام يجرّ أذياله موقناً أن الله لا ينصر من نوى الشر على عموم المسلمين خصوصاً الأبرياء . ورحل فيصل وفارق أخاه وقصد أباه حموداً . ولما وصل الى والده تصادف ورود محمد بك الكتخدا العاصي القديم على حمود أيضاً ليشدّ عضده على عصيان الدولة وعلى محاربة رجالها ، وما درى حمود أن محمد بك الكتخدا أشأم من طويس ، فتى حل مع قوم انهزموا وانكسروا ، وقد قالوا : العادة تثبت بثلاث مرات ، وهذا المنحوس المفلوك صار له أكثر من خمسين كسرة تجاه عسكر الدولة العلية وهلك بسببه أمم من المسلمين لا تحصى ولا زال الناس من غفلتهم يؤونه ويقبلونه

وأما ماجد بن حمود فانه شمر عن ساعد الجد وجمع عسكره الروافض وغيرهم وصنع سلالم ليصعد بها على سور البصرة ونادى مناديه إن ماجداً أباح البصرة ستة أيام لا يصان فيها فرج ولا يغمد فيها حسام . ولما بلغ أهلَ البصرة نية ماجد الخبيثة خرج عليه سكان بلدة الزبير وتراموا معه وشد عليهم بخيله ورجله وترك خيامه وأثقاله وأمواله وراءه . والحال أن المتسلم بعسكره كانوا كامنين له ، فلما رأوه توجه الى عرب نجد (١) بكليته وكليله أغاروا على خيامه وأثاثه

(١) وهم أهل بلدة الزبير

وأمواله ، فلما بلغه الخبر سُقط فى يده ، فما كان إلا ساعة وقد ولى الأدبار وترك جملة من عسكره قتلى فى الميدان ورجع الى أبيه مهزوما مخذولا منهوبا . فلما وصل الى أبيه وجد أباه حموداً قد فارق عزه وسؤدده وتفرق عنه قومه وعشيرته ، وذلك أن عَقيلا شيخ المنتفق الجديد لما نزل البُغيلة ورد عليه أعمامه وأهله وعشيرته فأكرمهم وخلع عليهم . وأما حمود عمه فانه لما ارتحل عنه إخوانه علم يقيناً أن دولته قد زالت وتيقن أن جَد الوزير فى عنفوان شبابه ، ففرَّ هو وأولاده وأهله الى البادية ، فورد عَقيل الوطن ومعه عسكر الوزير واستقر على كرسى حكومته ونفذ أوامره فى رعيته ، فحينئذ رجع الميرآخور بالعسكر الى بغداد

وفى هذه السنة دخل الشفلح بغداد واسترحم من الوزير أن يمنحه العفو ، فعفا عن عصيانه

والشفلح هو كبير قبيلة زُبيد[1] وكان شيوخ هذه القبيلة من أهل السنة ؛ ولكن الآن هم روافض ، وذلك بسبب أن الشيعة عندنا لهم دعاة وخطباء يدورون على قبائل العربان ويعظونهم ويدسون عليهم دسائس الرفض ، والأعراب عوام مغفلون لا يعرفون الدين ولا العقائد[2] ، فلهذا ضل منهم خلق كثير وتمذهبوا بسب الصحابة

---

(١) وقد سبق ذكره فى ص ١٢١

(٢) بل إن براعة أهل التقية من دعاة الرفض جعلتهم يدسون دسائسهم

(فلو أن الله يلهم الدولة العليـة أن تتنبه لهـذا الخطـب الجسيم الذى عاقبته لا ترجع على الدين فقط، بل أكثر ضرره على الملك والسياسة فان الدولة متى كانت متمذهبة بمذهب وخرج بعض رعاياها عن ذلك المذهب يخشى أنهم يجرّون عليها عراقيل وفتنا داخلية تعجز عن إطفائها وربما تفضى الى تداخل الدول الاجنبية[1]، فانك ترى المورة والبلغار لو كان جميع من فيها على دين الدولة العلية لما ثاروا عليها ولما طلبوا مداخلة الدول الاوربية فيهم، وانظر الى دولة إيران وكم صار بينها وبين الدولة العليـة من محاربات ولم تزل المحـاربات مظنونة الى الآن وكل ذلك بسبب مخالفة المذهبين، فكان ينبغى للدولة العلية أن تجعل جواسيس فى البادية عند العربان لمنع دسائس الروافض عنهم أو ترسل علماء من أهـل السنة لتعليم هؤلاء العوام حتى اذا تمسكوا بمذهب أهل السنة والجماعة يصير نقلهم الى مذهب آخـــر بطيئا لا بسرعة كما هو مشاهد فى هؤلاء العوام الخالى الذهن، وقد قال ﷺ «كل راع مسئول عن رعيته»، ولا شك أن هذه المسألة من وظائف أمير المؤمنين

حتى عـــلى الخواص من رجال الازهر فى آخر الزمان بحجة التقريب بين المذاهب، ودعاة الرفض لا يملكون تقريب شىء من مذهبهم الى أى مذهب غيره، ولا يقرهم أهل ملتهم على شىء من هذا التقريب على فرض حصوله

(١) وقد وقع شىء من هذا فى سنة ١١٩٢ من عرب بنى كعب كما تقدم فى هذا الكتاب ص ١٤

باب

فيمن قرأ عليهم الوزير داود باشا العلوم

أما القرآن فجوّده على شيخ القراء محمد أمـين افندى الموصلي ، ومحمد أمين هذا كانت له دراية فى التجويد والقراءات ، واجتمعتُ به فى بغداد فى أيام حكومة الوزير سليمان باشا أبي سعيد وداود باشا إذ ذاك مهر داره ، واجتمعت به مرة ثانية وداود باشا كان خازنداره ، وعاش الشيخ محمد أمـين الموصلي الى سنة ١٢١٥ وبعدها لا أعرف حاله ، وأعرف له ابنا يسمى سعدياً له شعر ، ورأيت له كتاباً فى الأداء والتجويد وعزم عليّ أن أقرّظه فقرظته جبراً لخاطره تقريظاً بشعر بأنه على جهة التمليح . ولما وردتُ بغداد سنة ١٢٢٤ أقسم عليّ إلا جئتَ الى بيتى وأكلتَ من طعامى ، فجئته وأكلت معه من طعامه إبراراً لقسمه وفيه سماحة

أما علم النحو والصرف فأخذه الوزير داود باشا عن المنلا حسن ابن محمد على الزوزوجى ، وقد اجتمعت به فوجدته مع قراءة داود باشا عليه هو أيضاً يقرأ المطول بالمشاركة مع داود باشا على منلا محمد أسعد بن عبيد الله وقد شاركتهما أنا أيضاً فى المطول ، ولما قدم سليم بك ختن سليمان باشا أبي سعيد متسلماً للبصرة قدم بالمنلا حسن معه فصار له بالبصرة جاه عظيم ، وكان له ميل إلى المداعبة والمزاح ، وكان حياً الى سنة ١٢١٧ ، ولا أظن كلام أهل البصرة فيه صادقاً ، لأن

الناس لا يسلم منهم أحد ، خصوصاً غالب من اتصف بالعلم فانهم أكثر الناس غيبة لبعضهم ، فلا والله ما حضرتُ مجلساً من مجالسهم إلا رأيت نُقْلهم ومحادثاتهم وملاطفاتهم الغيبة والنميمة (١) ، وقد اصطلحوا على هذه المعصية الجسيمة وصارت عندهم من العادات التى لا نكير عليها ، وقد استوى فيها الفقير والغنىّ والعالم والجاهل والصالح والفاسق - إلا الشاذ النادر - ولا أدرى ما عاقبة ذلك عليهم (٢)

ثم قرأ مولانا داود باشا على الحافظ أحمد مدرس السليمانية علوماً جمة ، خصوصاً التصوّف وعلم الحقائق ، توفى الحافظ أحمد سنة ١٢٢٩

ثم قرأ داود باشا علم الرياضى على لطف الله افندى كاتب الديوان لسليمان باشا أبى سعيد وتوفى سنة ١٢١٣

ثم قرأ داود باشا المطول وعلم آداب البحث والمناظرة وعلم البيان

---

(١) وسبب ذلك أن أكثرهم يعيشون للدنيا والاصابة من مغرياتها ، فيشعر كل واحد منهم بالحسد للآخرين على ما فى أيديهم من ذلك ، فاذا تحدّثوا عن أى انسان انبسطوا فى ذمه مدفوعين بما يشعرون من الحسد له على ما أصابه من الدنيا . ولذلك انحط المسلمون تبعاً لمن تظاهروا بحمل أعباء قيادتهم الأدبية

(٢) من عاقبة ذلك عليهم أن الدول الصليبية استعمرت بلادهم إما بجنودها أو بخططها الثقافية والفكرية ، وتمكنت من تحويل الأذكياء الناجحين من أولادهم الى آلات تعمل فى مناصب الحكومة وعلى صفحات الصحف والكتب لتحقيق أغراضها التى فى طليعتها سلخ المسلمين عن الاسلام وتصييرهم أعداء له بأسماء الأصدقاء

والمعانى وشرح المواقف على المنلا أسعد بن عبيد الله بن صبغة الله مفتى الحنفية والشافعية ، وعليه تخرج فى سائر العلوم ، وبه عُدَّ من الرجال أهل الكمالات الموصوفين بالدقة والمباحثة والمناظرة

ثم قرأ داود باشا على صبغة الله بن مصطفى الكردى الأصولين[1] وتفسير البيضاوى . وصبغة الله هذا درس فى جملة علوم واعترف له بالفضل معاصروه ، وقد اجتمعتُ به وتلقيت عنه بعضاً من الشفا للقاضى عياض فألفيته مع جلالته يلحن فى العبارة والكمال لله . وقد رأيت له رسالة يردُّ فيها على العلامة صبغة الله الحيدرى دالة على سعة باعــه فى المعقول والمنقول وأن له يداً طولىٰ فى الاستنباط ، وكان هذا الفاضل صبغة الله بن مصطفى الكردى غرسَ نعمة بيت عبد الرحمن باشا الكردى ، لأن العلماء من قديم الأزل لا يتعلمون وينجحون كال النجاح إن لم يكن لهم مساعــدة فى أمر معاشهم من طرف بعض الأمراء[2] ، وإلا فالفقر المطلق لا ينشأ عنه إلا الخمول والجهل عادة

---

(١) أى أصول الدين وأصول الفقه

(٢) طالب العلم إذا تعلق إيمانه بالله وحده ، وتوخىٰ أن يكون فى حياته غرس نعمة ربه ورب العالمين ، جرت عادة الله فى خلقه أن يجعل عله أنفع وأعظم بركة ، ومقامه فى قلوب الناس أرفع وأكثر غبطة . وهذا لا يمنع من أن يلتمس المشتغل بالعلم سبباً شريفا لمعيشة الحلال يهنأ به ويقنع ، فيرضى عن الله ويرضى الله عنه

فصل

فى ذكر الإجازات التى كتبها العلماء للوزير داود باشا
لما أجازوه بعلوم شتى

فأفضل من كتب له إجازة شيخنا ومولانا السيد زين العابدين جمل الليل المدنى[١] أبو عبد الرحمن ابن السيد علوى ابن السيد باحسن جمل الليل علامة الكون ومحدّث العصر بقية العترة وملحق الأحفاد بالأجداد . وهى إجازة بليغة دالة على كمال منشئها فى سائر العلوم[٢]، ودالة على فضائل المجاز له ، ولولا خوف الإطالة لسردتها بألفاظها . ومعناها : انه أجازه بجملة من كتب الحديث ، وذكر سنده ، وأوصله بأرباب المسانيد الحفاظ المتقدمين . وتاريخ تلك الاجازة سنة ١٢٢٢ من الهجرة فى بغداد دار السلام . وتوفى السيد زين العابدين جمل الليل سنة ١٢٣٥ . وله مؤلفات بديعة منها كتاب فى (المشتبه والمفترق) . وله (مختصر المنهج لشيخ الاسلام زكريا) ثم (شرحه) أيضاً فى فقه الشافعية

ومن أجاز للوزير داود باشا علامة العراق الرحلة المحدث بقية

---

(١) مضى الحديث عن قدومه الى العراق فى ص ٩٠ - ٩٢

(٢) كلمة « سائر » بمعنى « بقية » . والاتراك يستعملونها فى لغتهم بمعنى « جميع » فسرت عدوى هذا الخطأ منهم الى من كان يتصل بهم من كتبة العرب

السلف شيخنا الشيخ على بن محمد السويدى البغدادى الشافعى [١]، وهى متضمنة للحديث المسلسل بالمصافحة، وفيها علوم من الحديث وغيره. وتاريخ هذه الاجازة سنة ١٢٢٥ . وتوفى شيخنا الشيخ على بن محمد السويدى بالشام سنة ١٢٣٨

ومن أجاز الوزير داود باشا الشيخ صبغة الله بن مصطفى الكردى الزبارقى الشافعى ، أجازه فى جملة علوم وفى طريق القوم باجازات كردية مطولة يمل من طولها السامع

باب

فى ذكر من أخذوا العلم عن داود باشا واستفادوا منه

وهم جماعة يطول شرحهم ، ولكن مالا يذكر كله لا يترك كله . فنهم السيد الشريف بقية العترة السيد محمود البرزنجى [٢] . قرأ عليه جميع العلوم ، وتخرج على يديه إلى أن صار هذا السيد من أرباب الكمالات المشار اليهم فى العراق

ومن أخذ عن الوزير داود باشا محمد افندى ابن النائب المتقدم الذكر [٣] ، ولكن الظاهر أنه خرج عن مقولة العلماء ودخل فى

---

(١) تقدم كلام عنه فى ص ١٠٧ — ١٠٨

(٢) السادة البرزنجية نشأوا فى المنطقة الكردية من شمال العراق ، وهاجر بعض أفاضلهم إلى المدينة المنورة

(٣) فى ص ١٤٦

مقولة الأمراء والحكام ، وكان أمين الوزير داود باشا وكاتم سره

*

وإلى هنا انتهى تاريخ العلامة الشيخ عثمان بن سند البصرى الوائلى ، وما ذكر بعد هذا المحل إلا حكايات على طريق الأحاجى والألغاز جعلها مثل المقامات على لسان شخص سماه مقاعس بن مزاحم وصار يطارحه فى أخبار العرب وأشعارها وآثارها ، ولا بأس بها من مقامة دالة على بلاغة منشئها ، ومنبئة عن قوة باعه وسعة اطلاعه ، ولكن لا يسعها هذا المختصر ، فلهذا ضربت صفحاً عن ذكرها

هذا ما تيسر جمعه لكاتبه الفقير الى الله تعالى خادم العلم بالروضة الشريفة أمين بن حسن الحلوانى المدنى عفا الله عنه . وذلك فى سنة تسعين بعد المائتين والألف من الهجرة المحمدية

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين
وعلى آله وأصحابه هداة الدين وقدوة المسلمين

الفهارس

وزراء بغداد

فى ١٣٠ سنة

صفحة	الوزير	زمن وزارته	مصيره
قبل حوادث هذا التاريخ	حسن باشا (ابن مصطفى بك السباهى)	١١١٦-١١٣٦	توفى وهو يحارب ايران
	أحمد باشا ابن حسن باشا	١١٣٦-١١٦٠	توفى فجأة
	ولاة أرسلوا تباعا من القسطنطينية	١١٦٠-١١٦٤	لم يفلحوا وأقيلوا
	سليمان باشا أبو ليلة (مملوك حسن باشا)	١١٦٤-١١٧٦	
	على باشا الايرانى (ربيب أحمد باشا)	١١٧٦-١١٧٨	حبس وأعدم
٨-٩	عمر باشا (مملوك أحمد باشا)	١١٧٨-١١٨٩	عزل وقتل
٩-١٥	مصطفى باشا والى الرقة	١١٩٠	عزل وقتل
١٥	عبدى باشا والى كوتاهية	١١٩٠	عزل
١٦-٢٢	عبد الله باشا الطويل والى ديار بكر	١١٩٠-١١٩٢	مات
٢٤-٣٠	حسن باشا والى كركوك	١١٩٢-١١٩٤	ثار عليه البغداديون
٣٠-٧٧	سليمان باشا الكبير (مملوك حسن باشا وابنه)	١١٩٤-١٢١٧	توفى
٧٧-٩٠	على باشا (صهر سليمان الكبير)	١٢١٧-١٢٢١	قتل غيلة
٩٠-١١٣	سليمان باشا القتيل (ابن اخت على باشا)	١٢٢١-١٢٢٥	عزل، وقتل بالبادية
١١٣-١١٨	عبدالله باشا (مملوك سليمان الكبير)	١٢٢٥-١٢٢٧	قتله بنو المنتفق فى معركة دفاعا عن سعيد باشا
١١٨-١٢٦	سعيد باشا (ابن سليمان الكبير)	١٢٢٨-١٢٣٢	عزل، وقتل
١٢٦-١٧٦	داود باشا (مملوك سليمان الكبير)	١٢٣٢-١٢٤٦	حاربته الدولة، وأنهكه الطاعون، فجىء به الى القسطنطينية ثم عين شيخا للحرم النبوى وتوفى سنة ١٢٦٧ بالمدينة

فهرس

لمواد تاريخ ابن سند ، وإضافات الحلوانى

وتعليقات النـــاشر

صفحة

الى ايران ، وقتله فيها طريداً متشرداً خاضعاً . عصيان محسن الخزاعي وحملة الوزير عليه وعزله وتعيين حمد بن حمود بدله

٣٧ مجيء عثمان بن محمود بابان من ايران

٣٧ عصيان حمد بن حمود سنة ١١٩٩ والتنكيل به وهربه والتحاق عجم محمد به

٣٨ سعاية أحمد بك المهردار بالفساد بين سليمان الكبير والأمير سليمان بن شاوي وخروج ابن شاوي عن الطاعة وفراره لتكريت فالخابور

٣٩ تعيين أحمد المهردار لكتخدائية بغداد . وقوع قحط شديد فى بغداد وضواحيها ، وثورة البغداديين على الوزير ، وبطشه بهم وصلب بعضهم

٣٩ دخول سنة ١٢٠١ ، وإغارة جماعات ابن شاوي من الخابور على بغداد

٤٠ تجهيز الوزير حملة على ابن شاوي ، وانتصار ابن شاوي على جيش الوزير وأسره قائديه ، وطمعه فى محاصرة بغداد لولا دفاع عرب عقيل النجديين عنها وردهم ابن شاوي

٤١ انسحاب ابن شاوي الى الدجيل ، فالشامية ، ونزوله الأبيرة ، وتجهيز حملة عليه من بغداد بقيادة الكتخدا ، واتفاق ابن شاوي مع أمير المنتفق وقبائل خزاعة وغزوهم البصرة واستيلاؤهم عليها وأسرهم متسلمها الفاسق ابراهيم بك ونفيه الى مسقط وقطعهم خراج الدولة

٤٢ استنجاد حكومة بغداد بابراهيم باشا بابان ورئيس باجلان لتدارك الأمر قبل أن تقوم دولة عربية فى العراق

٤٣ إبطاء الأكراد عن نجدة سليمان الكبير ، ومعاقبتهم بعزل ابراهيم باشا وتعيين عثمان باشا ابن محمود باشا وعزل عبد الفتاح بك عن باجلان وتعيين عبد القادر بك والاستنجاد بهما وبرجالها وتأليف حملة جديدة غزت خزاعة

صفحة

صفحة

فهرس الاعلام التاريخية

ا

ب

ت - ث

د

ر - ز

ش

ص - ض

ط - ظ

ع - غ

ف - ق

م

ن - ﻫ

و — ى

فهرس الاعلام الجغرافية

ا

د - ذ

ر - ز

س

ش – ص

ط – ع

ف – ق

ك – ل

ن — هـ

و — ى

الكتب المذكورة فى هذا التاريخ

